سنابل الشّعر

رحلة في حقول جوزف حرب

الطبعة الأولى

2023

ISBN 978-614-503-030-0



Tel: 00961 3 385 257 - Email: dar-albayan2021@hotmail.com

سنابل الشّعر

رحلة في حقول جوزف حرب

د. رامز الحوراني

2023

يا مَنْ أصبحْتُ مثلَكَ

إذْ تقول:

عِشْتْ

وعْرِفْتْ

حْزِنْتْ

وفْرِحْتْ

وكْبِرْتْ

وهَلَّقْ يَ هالدَّفِّي

انْغِمْسِي بِمَوْجِ اللَّيْلْ

بيكَفِّي

زْهِقْتْ مِنْ هَالكَوْنْ

زْهِقْتْ مِنْ هَالكِلْ

وْطَالِعْ عَ بَالِي فِلْ

جوزف حرب

الإهـــدَاء

إلى أخي غسّان الحوراني

المقدّمة

عزيزي القارئ

لماذا جوزف حرب؟

إنّ ما دفعني إلى اختياره ثلاثة أمور:

أوّلها: المادة الشعريّة الغزيرة كمًّا ونوعًا، وثانيها فرادته في ابتكار الصور الشعريّة العذراء، وموهبته الفذّة في الانسياب الشعريّ الشفيف والأنيق، وثالثها التنوّع في موضوعاته التي تطال حياتنا في ميادينها الدينيّة، والاجتماعيّة، والسّياسيّة، والإنسانيّة، والجّماليّة.

شعره حقول تحتشد فيها السنابل التي تتباهى بذهبها الذي يلهبه الشّوق للهرب عن تيجان الملوك، والتبرعم على شفاه المهمّشين.

جوزف حرب قامة شعريّة خصبة. شعره حقولٌ مترامية الأبعاد. فيه الحب والمحبّة، القمح والطحين، الجسد والروح، الملوك والعبيد، الغني والفقير، السّادة والعبيد، المسحوقون والطغاة، المؤمنون والملحدون، وأجمل ما فيه «بانوراما» الكون والطبيعة، التي طرّزها بإبرة خياله لمعةً لمعةً ورؤيا تلو رؤيا.

تشعر، وأنت تقرأ قصائده، بجاذبيّة سحريّة، لما فيها من الاحتراف في التّصوير، والدقة في اختيار التعابير المشحونة بالأخيلة المشفّرة، التي تمثّل الجوهر الشعري، بالمشاهد الحسيّة، وتنساب انسيابًا مائيًا، تكاد تصغى إلى الحركة فيها، منتصبةً أمام حواسك.

جوزف حرب من الشــعراء العرب الكبار، فقد أثرى الأدب العربي بروائع شعريّة خالدة، بالفصحى والمحكية، وكان شعره المادة المفضّلة لأغاني سفيرتنا إلى النجوم السيّدة الجليلة فيروز.

عاش جوزف حرب اللغة العربيّة مســؤوليّة وعيٍ جماليٍّ حضاريٍّ، فكانت العربيّة تنبع من قلم شــاعريّته مكســوّةً بآيات ســموّ الرؤيا، معطّرةً بعبق بخور الجمال، متوّجةً بآفاق الإبداع، والدخول إلى عوالم ســحره. لم يتعامل جوزف حــرب مــع اللغة إلّا ضمن هذا الاحترام، ومن خــلال تلك الرؤية التي اختطّها لفاعليّة الكاتب والمثقّف. فكان في شــعره إضافةً نوعيّةً إلى العطاءات الكبرى التي قدّمها للعربيّة كبار مبدعيها وعظماء فنانيها. الشــعر عنده روح الحياة التي يعيشها، وجوهر الوجود الذي يطلّ منه على الدّنيا بتاريخها وناسها وأزمانها.

الشــعر عنده هو قدس أقداســه، سخّر له كل ما لديه من قدرةٍ وعلمٍ وبراعةٍ وثقافةٍ وكيانٍ. الشــعر هو الســرّ المحيي، وهو كأس قربان الرســالة التي ندب جوزف نفسه لها، ونذر حياته ليسقي العطاشى ارتواءً منها لوجودهم.

ولقد قسمنا هذه الدراسة إلى خمسة فصول، تناولنا في الفصل الأوّل «استرداد الأصالة للإنسان المهمّش» وفيه أربعة عناوين رئيسة، العنوان الأوّل: «الله هو القلم والكاهــن هــو الممحاة» وفي هذا العنوان عرضنا رأيه في رجال الدين وملخّصه: إنّ ما خطّه الله في كتبه بدّله رجال الدين بما يتناسب مع مشاربهم الدنيويّة.

والعنــوان الثاني: «الأرض قصر من العظــام»، وفيه يرى جوزف حرب أنّ الأرض التي أرادتها السماء مسكنًا هادئًا للإنسان حوّلها الحكّام والكهّان والتجّار إلــى غابة فيها كل أنواع العــذاب والقهر والحرمان تقرؤها في العيون المهترئة، والقامات النحيلة التي امتصّها الجوع والتّعذيب.

والعنوان الثّالث: «تقديس الأرض والتوحّد معها»، وفيه يرى الشاعر الأرض الأم الأولى، منها كل الأصول الإنسـانيّة، وجميع الكائنات الحيّة، وكل الرؤى الفنيّة للمبدعين، وكل الخبز للجائعين. والأرض تتكلّم بأبجديّتها التي لا يقرؤها إلّا الراسـخون في معرفة الحقيقة الكونيّة، والذين يتقنون ترجمة هذه اللغة عبر سيبرانيّة خيالهم المجنّح.

والعنوان الرابع: «الأرض هي الأم والوطن، والملوك هم الغزاة»، وفيه: من يحـب أمـه الأرض عليه أن يعمل على عمرانها وهذا لن يحصل إلّا بأكفٍّ نقيّةٍ، تفهم لغة السـنبلة، والثقة المتبادلة بين البيدر والطاحونة، حتّى يتأكّد القمح بأنّه سوف يصير طحينًا للفقراء قبل أن يسرقه الملوك والحكّام.

والفصل الثاني: «الشاعر صاحب رسالة كبرى»، وفيه أربعة عناوين: الأوّل: «الشـعر هو الكتاب الديني للكون»، وفيه: الشـعر الذي ينفخ فينا روح التحليق إلـى البعيد، هو مفتاح المغامرة الكبرى نحـو الفتوحات الفكريّة، لفهم الكون، ومعناه، وقيمته بالنسـبة للإنسـان. ثمّ يأتي دور الإنسان، في البحث عن الطريقة المثلى لتحقيق وجوده. إنّها مهمّة مرهونة بمسـتوى معرفته التي وحدها، تؤهله بتحقيـق هذا الوجود، كما يريد وكمـا يرغب. فكلّما زادت معرفته زادت قدرته على التغيير، وكلّما فقد هذه المعرفة غرق في الجهل والتخلّف.

والعنوان الثّاني: «رسالة الشعراء سد النقصان في الخلق»، وفيه: إنّ الكائنات لا تولـد عبثًـا. إنّها تصبح بمعانٍ غير مرئيّة، ولا تدرك بالحواس. فإن أرادت أن تكشـف عن معاينها تبدّدت، وذابت في دواة الشـعراء، الذين يتلمّسون روحها، ويتفاعلون مع جوهرها، فيكشفون لنا كنهها، وبذلك يسدّون النقص في الخلق.

والعنوان الثّالث: «الشـاعر المبدع يعمل علـى اكتمال فكرة الله»، وفيه: أنّ

الله عندما خلق الكون جعل فيه أشـياء واضحة وأخرى غامضة ليمتحن الإنسان المخلوق في كشفه للغامض من وحي الواضح.

والعنوان الرّابع: «تمثّل الجوهر الشـعري بمشـاهد حسيّة»، وفيه: الشعراء قد أشعلوا الفانوس، كي يخرجوا الكلمات، نحو شموسها، من عتمة القاموس. وهذا يعني عند «حرب» أن المتشـابهات، والمتطابقات، التي يلتقطها الخيال العلائقي، ليسـت وحدها مكوّن شعريّته، وعناصر عالمه، إنما هي مظهرٌ حسّيٌّ لجواهر ذلك العالم الشعري. فإذا كان الطرب جوهرًا، فإنّ الشاعر يقطفه من مشهد الطحن، حيث تتناغم جوقة الطبيعة المؤتلفة، من عوادي المياه، وتدوير الرّحى، وقصب السواقي.

والفصل الثّالث: «بين الشعر والطّبيعة»، وفيه عنوانان: الأوّل: «توحيد العلاقة بين الشـاعر والفلاح»، وفيه أنّ النص الشعري عند جوزف حرب، يوحّد حقيقة المزارع مع حقيقة الشـاعر، وإذا المزارع الشـاعر الرائي الشـفيف، لذلك دمج جوزف بين معجم الفلاح، ومعجم الشاعر في شبكة معجميّة تسيطر على القصيدة كلّها حتّى بتنا نرى التراب ورقًا، والقلم سـطرًا، والمحراث ريشـة، والمعاول والمحاريث وقضبان الرمان أقلامًا.

والثّاني: «الطبيعة ديوان شـعري»، وفيه التفاعل والتطابق إلى حدٍّ كبيرٍ، بين الشـعر والطبيعة. يرى الشـاعر بأنّ مشـهد الحقول بعد الحصاد هو قصيدة. في الحقل المحصود، وجه التراب المغطّى ببقايا أسلات القمح يبدو صفحة بيضاء، والقش أسطرًا، وظلال العصافير والطيور التي تحوم حول الحقل لتلتقط الحبّ نقطًا أو علامات وقف...

والفصل الرابع: «المرأة والغزل في شـعره»، وفيه وصف جسـد المرأة من شـعرها حتّى أخمص قدميها، وتسمية الأماكن بأسمائها، بجرأةٍ، وأناقةٍ، وسياقٍ

شـــعريٍّ أخّاذٍ، ولكنّه لم يهمل الروح، فالمرأة في نظره بعدٌ إنسانيٌّ للرجل، فهي بحره ونهره، ونســيمه وحديقته الغنّاء التي يأوي إليها ليغســل عندها وبها تعب الحياة، ويكتب من وحيها أجمل الأيّام والسّاعات.

وفــي غزله متعةٌ وروعــةٌ، لما فيه من التصوير المثير، والإبداع، الذي ينقلنا إلى عوالم تضجّ باللذة والفرح، ويدخلنا إلى أعماق الجسد الأنثوي الذي يقطّر الشهد في كل عضو من أعضائه. وفي شعره مقاطع غزليّة جميلة وعميقة، ولكن معظمها مشــفّر برموز شــاعريّة، ظاهرها التغزّل بالطبيعــة وباطنها غزل حقيقي بالحبيبة، وبالمرأة ومفاتنها الماديّة والمعنويّة.

والفصل الخامس: «الأبعاد الفكريّة في شعره حول الوجود والله» وفيه خمسة عناوين.

الأوّل: «فشل الدين في تحقيق العدالة على الأرض»، وفيه أنّ الله قد أرسل الرســل والأنبياء، كي ينقذوا البشــريّة من ويلاتها. لقد أتى هؤلاء ورحلوا، وإذا بالخطايا والظلم والشرور قد زادت.

والثّاني: «الفردوس المفقود»، وفيه خطاب طويلٌ إلى الله شاكيًا فيه الجحيم الذي تتخبّط فيه الأرض، عبر مجموعة من الأسئلة: إلهي، هل تريد للأرض هذا الجحيم؟ لماذا لا تجعل الشرائع عليها تتوالد بحيث يبقى النقي المثمر، ويسقط الفاسد. وهذه الأرض كما هي الآن، نصّها غير كامل، ونحن البشر لا نملك مفتاح الســماء لنكمل هذا النص. ليتك يا الله، تضيف إلى نصوصك الســابقة، نصوصًا جديدة فيها شيء من نصوص الطبيعة التي تتغيّر، وتتبدّل عبر دورة الفصول.

والثّالث: «الله هو العدل الجليل»، وفيه وصف يليق بالخالق العظيم ومجموعة

من الأدعية التي يتمنّى فيها من الله أن يستجيب لها ومنها: ما أجمل هذه الأرض، لو نزعت عنها ثياب الكهان، وألبستها ثيابك.

والرّابع: «المقدّس على الأرض هو الإنسان الذي يعمّرها»، وفيه: لماذا لم تصعد إلى الفردوس بعد الأرض؟ ما أعرفه من نصك: أنّ العدل شيخ الأرض، والمحبة هي الزيت الذي يليّن النفوس ويمنع عنها اليباس.

والخامس: «العقل هو المفتاح للوصول إلى الحقائق الكونيّة»، وفيه أنّ صباح هذا العقل هو الذي سيمحو هذا الظلام، وبه وحده سنكتشف أسرار هذا الكون. وسوف نجد به صورة الله مختلفة كثيرًا عن الصورة المشوّهة التي يعرضها رجال الدين علينا.

والفصل السادس: «ما قاله فيه معاصروه»، وفي هذا الفصل عرضنا نصوصًا شعريّةً ألقاها الشعراء في حفل تأبينه، منهم: الشاعر اللبناني طارق آل ناصر الدين- الشاعر اللبناني باسم عبّاس- الشاعر السوري عبد القادر الحصني- الشاعر اللبناني محمد علي شمس الدين- الشاعر اللبناني غسّان مطر- الشاعر المصري فاروق شوشة.

د. رامز الحوراني

بنت جبيل في 22/ 12/ 2022

نبزة عن حياة
جوزف حرب
1943 – 2014

ولد الشّــاعر اللبناني الكبير جوزف حرب، في لبنان، بتاريخ 30/ 11/ 1943 فــي بلدة الناقورة، في لبنان الجنوبي، لأنّ والده كان دركيًّا، وكانت تفرض عليه الخدمة العســكريّة التنقّل من مكان إلى آخر في ربوع الجمهوريّة اللبنانيّة، وهو من بلدة «المعمريّة» بقضاء الزهراني من الجنوب اللبناني.

يعتبر جوزف حرب من أهم الشعراء في لبنان، والعالم العربي، الذين وصلت قصائدهم إلى أقصى الحدود. ما ســاهم في انتشــار قصائده ارتباطها بالوطن، والحب، والقضايا الإنسانيّة، وبالسّيّدة فيروز التي غنّت من كلماته حوالى عشرين أغنية، منها: «أسوارة العروس».

تخرّج في كليّة الحقوق بالجامعة اللبنانيّة، في ســتينيّات القرن الماضي. ثمّ تابع دراسة اللغة العربيّة وآدابها، في الجامعة نفسها، وحاز على إجازة في اللغة العربيّة وآدابها. وفي العام 1976 تعرّف إلى الفنان الشــهير زياد الرحباني، الذي عرّفه إلى والدته فيروز.

أعـدّ جوزف حرب، مجموعـة من البرامج الإذاعيّة، فـي الإذاعة اللبنانيّة الرّسميّة، وله أيضًا العديد من المسلسلات التلفزيونيّة منها: «مع الصباح» و«رماد وملح» و«قالت العرب» و«أوراق الزمن المر» وغيرها. له حوالى عشـرين ديوانًا شعريًا بالفصحى والمحكية أشهرها ديوانه «المحبرة» الذي تجاوز 1750 صفحة، وهـو أكبر ديوان شـعري في العالم العربي. تولّـى منصب رئيس اتحاد الكتاب اللبنانيين مرتين. كان يتردّد إلى العاصمة السوريّة دمشق لإقامة الأمسيّات الشعريّة، وقد منحه الرئيس السوري بشّار الأسد وسام الاستحقاق السوري تقديرًا لإبداعه.

الفهرس

الفصل الأوّل:

استرداد الأصالة للإنسان المهمّش

1 - الله هو القلم والكاهن هو الممحاة

2 - الأرض قصر من العظام

3 - تقديس الأرض والتوحّد معها

4 - الأرض هي الأم والوطن والملوك هم الغزاة

الفصل الأوّل

استرداد الأصالة للإنسان المهمّش

1 - الله هو القلم والكاهن هو الممحاة:

إنّ الله، سبحانه وتعالى، أنزل كتبه لتسود العدالة، والمساواة بين البشر، ولكن معظم رجال الدين، اتخذوا الدين وسيلة للسيطرة على شعوبهم، وخصوصًا على البسطاء منهم، وهم الأغلبيّة الساحقة، في المجتمعات البشريّة، والتّاريخ الإنساني حافل بالوقائع، والأحداث التي تؤكّد لنا هذه السيطرة الظالمة، والتي تجافي المبادئ الإلهيّة، وهذا ما يصوِّره لنا الشاعر جوزف حرب قائلًا:

وَهَبَ المؤمنُ ما يملكُهُ للمعبدِ
حتّى أدركَهُ الفقرُ، فلمْ يأكلْ،
لم يشربْ
مرضَ المؤمنُ،
جاعْ
ضاعْ
ماتَ المؤمنُ. ألقوا لكلابِ المعبدِ
بالمؤمنِ. لا نعشٌ ضمَّ المؤمنَ. ما لفقيرٍ
آمنَ نعشٌ

ومدافنْ.
وبما قدْ حُرِمَ المؤمنُ
منهُ،
عاشَ بِهِ الكاهنْ[1] (فاعلاتن)

وهكذا محا الكهّان ما خطّه الله في كتبه من الرحمة وبدّلوه بما يتناسب مع مشاربهم السلطويّة.

إنّ التقاتل على السماء إهانة للسماء وللأرض. أيّها الإنسان، إنّ انتماءك للأرض، والإخلاص لها، والذوبان فيها، يفتح لك أبواب السماء، ويعلّمك فنون العطاء والإبداع، ويخلصك من مطاردة الكهّان، الذين يريدون اغتيالك:

وتعالَ نغمر هذه الأرض التي قد طارد الكهّانُ
فيها الورد، وانتشروا حرابًا بين نهديها
ليغتالوا مع الدّمِ منهما لبنَ الولادة[2] (متفاعلن)

ويصعِّد جوزف حرب من لهجته على رجال الدين ويتهمهم باللصوصيّة والخداع لامتصاص رحيق الفقراء ويعاونهم في ذلك حلفاؤهم من الأغنياء الذين يشاركونهم اقتسام الثروات العامة وقمح الفقراء، والسلطة هي التي تحمي هذه السرقة الموصوفة:

لصوص عندك الكهّان. ما تركوا رقىً، سحرًا، أحاجيَ،
أو طقوسًا، لم يروّوا غُلَّةَ الفقراء منها، والغني حليفهم
لِصّان بينهما دماء الأرض، يحمي بئر كيسِهِما المليئة
عسكريٌّ

فقير قد توزّع عمره التجّارُ والكهّانُ. وهو يظن أنّهما
الطريقُ إلى السماء...
وما الفقير إذا يداه استلّتا سيفًا، فشكّ السيف
فيه لأنّه قد ظنّ أنّ الفقر داخله، ولم يدرك بأنّ
الفقر يُدعى:
كاهنًا في الروح،
يُدعى: تاجرًا، في القمحِ[3] (مفاعلتن)

وكعادته يصوّر جوزف حرب هذه الفاجعة الإنسانيّة قائلًا:

أيا
حَسَراتُ
هل مسَّتْ أصابعُكُنَّ أيامًا علا ساعاتِها
عفنُ الدمِ الممصول، والصدأُ المقشَّرُ في ضريحِ الميّتينْ،
كما لمسْتُنَّ الأسى الكحليَّ في الفقراءِ؟
هم سَرْجُ الغنيِّ
وتربة الكهّان حيث يجرُّ ثورَيْ معبدٍ وخرافةٍ
فلّاحُ دينٍ، يزرع الأوهام، والخوف العميق، وركعة
الصلوات، والجوع المقدّس، والضحايا. ثمّ تُمْرِعُ
هذه الأرض الحزينة أدمعًا،
ملحًا،
وأجسادًا تفتَّح في مساحبِها
الخريف، وأضلعًا يُشْبِهْنَ أوتارًا لآلات

البكاء. ويحصد الكهّان أكواخًا،
مجاعاتٍ، دمًا يمتصُّهُ نحلُ
المعابد، سكّر القربانِ![4]

إنّ هذه المأســاة الوجوديّة تُدمي الشــاعر، وتُلهب فيه حرارة التعاطف مع الفقراء، وتجعله يُشــعل فيهم وقود الثورة، والثأر لاســترجاع حقوقهم المنهوبة، باسم الدين الإلهي الذي حوّله رجال الدين إلى قانون للسلب والنهب:

أهذا
دينُكُم؟!
لو يعقل الفقراء
كلٌّ منهم جمَّعَ جوعه، ملحَ البكاء به،
أفاعي سُلِّهِ، أنيابه المسنونة السوداء
نعشَ
ضريحِهِ
كَفَنَهْ.
وبنى جحيمًا فوق هذي
الأرض للتجّار
والكهَنَهْ
وإنْ منهم قضى أحدٌ
فلا عينٌ عليه بكَتْ، ولا حفّارُ
قبرٍ جائعٌ
دَفَنَهْ[5] (مفاعلتن)

في قناعة جوزف حرب، الكاهن والتاجر وجهان لدينار واحد، وهذه العلاقة عكســت واقعًا اجتماعيًا مشــوّهًا، خاليًا من المعاني الإلهيّة، والإنسانيّة، بحيث أصبحنا نشاهد المؤمنين فقراء، والكافرين أغنياء:

بعد نبيذٍ

وعشاءْ

إتّفق الكاهنُ والتاجرُ

ذاتَ

مساءْ

التاجرُ يدفعُ للكاهنِ مالًا

سلطانًا، شكرًا،

ودعاءْ

والكاهن يُقنِعُ كلَّ البسطاءْ

أنْ يبقَوا من أجل صعود

الجنّةِ

ناسًا فقراءْ[6] (مستفعلن)

ومــن الصور المعبّرة عــن نفاق معظم رجال الدين، هــذا التصوير الرائع لجوزف حرب، حيث أتقن هؤلاء فنَّ الخداع، والاحتيال وجعلوا كلام الله وسيلة للجاه والارتزاق... الناس البســطاء يقبّلون ظهور أيديهم ويملؤون باطنها ذهبًا، تبرّكًا بهم، وتقرّبًا إلى الله بواسطتهم:

أخذَ

الكهّانُ الكلامْ

كلامَ

السيّدِ الإلهْ

في كل ما قد روى

ما قد كتبْ

جعلوه كفًّا في أياديهم،

كفُّهُم صارَتْ بأيديهم لُعَبْ

ملؤوا ظهرها قبلًا،

ملؤوا بطنَها ذهبْ(7)

ما دفعته البشـــريّة في حروبها الدينيّة من المآسي لا يُعدُّ ولا يُحصى. رجال الدين هم السبب في إشعال هذه الحروب التي ملأت الأرض بالدماء، وقطعت سيوفهم أعناق السماء!!!

لا كاهنٌ،

إلّا وصار لدينِهِ أحزابُهُ، ومذاهبُهْ

لا دينَ إلّا صارَ كاهنُهُ يكفِّرُ

كلَّ دينٍ آخرٍ

ويحاربُهْ. كهَّانُ أديانٍ، متى أدركْتَ كيف

سيوفُهُمْ مرَّتْ على

عنق السماءْ

تعرفُ لماذا الأرضُ

ملأى بالدماءْ؟(8)

إنّ التاريخ البشـــري هو حصيلة التكافل والتضامن بين الســـلطة السياسيّة،

والمنظومــة الدينيّة، في الديانــات الوثنيّة، والإلهيّة، وهذا ما جعل رجال الدين، قديمًا وحديثًا، يتاجرون بكرامات الناس من أجل الحصول على الذهب.

وشاعرنا جوزف حرب، بما يملكه من ثقافة، ووعي ومخيلة شعريّة شفافة، وهادفة، يصوّر لنا الجشــع القابع في أعماق رجال الدين، الذين يضعون الرذيلة في قالب ديني يبهر المؤمنين، ويتنافســون للقيــام به، إرضاءً للإله في الديانات الوثنيّة، وكـأنّي بجوزف حرب، يريد أن يؤكّد لنا، بأن تغيّر الديانات، لا يغيّر في وظيفة رجال الدين الذين يتّخذون الدين وسيلة لمصالحهم الدنيويّة الماديّة، غير عابئين بالقيم والمبادئ الســامية، التي ينصّ عليها الدين، والمتمثّلة بإعلاء قيمة الإنسان في الدّنيا والآخرة.

يلجأ الشاعر إلى الأساطير اليونانيّة القديمة، ويقمّش لنا من خيوط مخيّلته، نصًا يطفح بقذارة رجال الدين:

«يولين» النّاحتُ صبحَ الصيف
أصابعَها،
أغرى عاشقُها الكاهنَ بالذهب
الصافي
ليضاجعها
ذهب الكاهن،
قال لها:
«آنوبيس»
الربُّ اختارَكِ من بينِ نساءِ الأرضِ لمتعتِهِ
الليلة في المعبدِ

فابتهجتْ

فرح الزوجُ

فأدخلَها الكاهنُ غرفةَ «آنوبيس»

السوداء. وظلَّتْ حتى الصبحِ يضاجعُها العاشقُ.

ظلَّ الكاهنُ حتّى الصبح يعانقْ

ذهبَ العاشقْ!!!(9)

يتوجّه جوزف حرب إلى الرهبان متسائلًا: لماذا أنزلتم مساميركم في كفّ رسولكم؟ لماذا غرزتم جبهته بشوككم؟ لقد دفنتوه لترثوا مجده ثروةً وسلطة:

يا رهبانُ

هل كنتم سواقي في الخريف،

أم أنّكم كنتم خريفًا في السواقي؟

هل قبضتم فضةً؟

أوليس في آذانكم وقعُ المسامير

التي أنزلتموها في أكف رسولكم؟ أو لم يزل

إكليل ذاك الشوك – يا من قد غرزتم صبح جبهته

به – يدمي أصابعكم؟!

دفنتم ربكم حتّى يقومَ

دفنتموه ولم يَقُمْ إلّا وراثتكم له.

فتناسلَتْ في الأرضِ

روح الطينِ

واكتست المجاعة عندكم

عفنًا. وبوركت الحروب.
ولست أدري!
هل مجيء رسولكم، لا علم فيه بما ستفعله
أياديكم؟ فإنّ لا علم فيه فكيف جاء؟(10)

وبعــد أن يتصفّح الشــاعر التاريخ، تصفعه الخيبة المرّة، بعد أن يكتشــف بأنّ الحياة البشــريّة رحلة شاقة وطويلة، وغير متكافئة: الملوك والتجّار والكهّان لصوص وقراصنة، يتنعّمون بالخيرات، وشعوبهم تحلم برغيف الخبز!

جاءَ
ملوكُ الجانْ
يؤكّدون،
جاء تجّارُ الزمانْ
واللصُّ
والسلطانُ
والقرصانْ،
يؤكّدون،
جاءت الثورات والأديانْ
تؤكّدانْ،
أنّ الحياة
رحلة طريقها خطانْ،
متوازيانْ
وليس يلتقيانْ،

الخبز والإنسانْ![11]

يبدو جوزف حرب في النص التالي فاقدًا ثقته برجال الدين، فهم يتشدّقون بالمواعظ في المعابد، ويمارسون الرذيلة سرًّا:

عندما كنت صغيرًا، علّموني أنّ في الكاهن
قديسًا، وفي راهبة الدير ملاكًا أبيضًا
مثل السحابِ
وأتى يومٌ.
وضعت العين فوق الثقب في الباب. وكان
الباب سرّيًّا. رأيت الكاهن القدّيس في أحضانه راهبةُ
الدير كشمعٍ
في ضبابِ.
منذ ذاك اليوم، لا رغبة عندي،
غير أن أكتشف الأشياء من
ثقبٍ ببابِ[12] (فاعلاتن)

في عرف شاعرنا الطبيعة الكونيّة هي المعبد والكاهن المقدّس هو الله وجوقة التراتيل هي الأزهار والأشجار والعصافير والشّمس والقمر والرياح والسواقي...

هذا
الفضاء كنيسةٌ. والأفقُ مذبحُها المشيَّدُ
من رخام الماء. يأتي الله عند الصبح، يفتحها،
وينثر من بخور البحر حبّاتٍ على جمر المسارج،
ثمَّ

يُحْرِقُها
فتصير بيضُ خيوطها لوحاتِ قدّسين أبرارٍ
يعلِّقُها
غيمًا على الجدران، أو تغدو حمائم في نحاس الدير
يُغْرِقُها
وعلى أكفّ الريح
أجراسًا
يُفَرِّقُها، ثمَّ
يُغْلِقُها
بعد الغروبِ، فلا يفكِّرُ
كاهنٌ فيها،
ويسرِقُها[13] **(متفاعلن)**

كنيسته قلبه. وليست أجراس كنائس الأرض التي يدخلها الناس ويخرجون منها ملوّثين بنفاق الكهّان الذين يصلّون للذهب والفضة ويلوّنون كلامهم بالأصفر والأحمر والأزرق والأخضر وهم الذين كسوا الأجساد بالسواد حدادًا على قتلى وضحايا فتنهم:

كنيستكم
يدخلها الكُحْليُّ ليخرجَ منها أسودَ.
ليس يصلّي إلّا ليصير أعمَّ خطايا
وتعالوا
قلبي جرسٌ

روحي يسكنها من أهل شيوخ الحكمة

قدّيسٌ

وصبايا المعبد

قدّيسةْ[14]

2 - الأرض قصر من العظام:

كل الوحـــي الإلهي هبط إلى الرســـل والأنبياء، لتفـــرح الأرض، وتزدهر، ويعيش عليها الناس في عدلٍ وأمان. لقد فشلت الأديان في تحقيق هذه الرسالة الإلهيّة، وتحوّلت هذه الأديان من وسيلة للعمران إلى وسيلة للخراب والدمار.

وهذا الفشـــل جعل جوزف حرب يتساءل: لماذا حصل هذا الفشل؟ ولماذا كثـــر الجياع، وازداد عدد الفقـــراء والمحرومين، وتجمّعت الثروة في خزائن قلة من الأغنياء؟ ولماذا أصبحت الأرض قصرًا من عظام؟

قبل الإجابة عن هذه الأســـئلة، يسترســـل الشاعر في وصف الأرض، التي صورها قصرًا يلمع تحت الشّـــمس، يبدو من بعيد، كإله حاملٍ في الريح أكياس غمام:

أبوابه جلود أطفالٍ إذا ما فُتِحَتْ
أَنَّتْ.
بَلاطُهُ الصقيل ساحة تغصُّ بالقتلى،
تموج النار كالبحر عليها،
ويغطّيها الظلام
صالاته السجاد فيها من عروقٍ نُسِلَتْ
حمراءَ
زرقاءَ
وبيضاءَ
وحِيكَتْ أغصنًا

طيرًا

وأكمام خزامْ

أيٌّ من المقاعد السوداء، نعشٌ

أو ركامْ[15] (مستفعلن)

وهكذا فالأرض التي أرادتها الســماء أن تكون مسكنًا هادئًا للإنسان حوّلها الحكّام والكهّان والتجّار إلى غابة، يقتل فيها القوي الضعيف، ويستعبد فيها الغني الفقيــر، وكل أنواع العذاب والتنكيل تجدها أينما كنت، وشــاهدت، وكل أنواع القهر والحرمان تقرؤها في العيون المهترئة، والقامات النحيلة التي امتصها الجوع والتعذيب:

للقصر سيّدة تجاوز عمرها زمن

اكتشاف النار. ضاجعها جميع المجرمين،

من الملوك

إلى الغزاة

وكل تجّار العصور[16] (متفاعلن)

وفي النص التالي يجيد الشاعر التصوير، ويقدّم لنا صورة المأساة الوجوديّة، علــى هذه الأرض، التي ما زالت حتّى وقتنا الحاضر، تشــهد الفصول نفســها، وهذه المرّة بحضور ما أرسلته السماء من مبادئ، وتعاليم مرصّعة بألوان الحق، والعدل، والمســاواة، لرفع قيمة الإنسان وتحريره من شتى أنواع العبوديّة والرق القديم والجديد.

هذه الصورة لم تتبدّل عبر العصور فهي مسرحيّة واحدة. موضوعها واحد، ولا يتغيّــر فيهــا إلّا الممثّلون من أباطرة، وملوك، وســلاطين، وخلفاء، وأمراء،

وحاشية إنتهازيّة تخدم أسيادها، وتأخذ أجرها من دماء الناس، وأرزاقهم وفلذات أكبادهم:

ولقد رأيت القادة، الأبطال، كلَّ
الفاتحين، وكلَّ ضبّاط الفيالق، يركعون أمامها،
ويقبّلون عناكبًا برصاءَ تنسجُ جوربًا لزجًا
على أظلاف رجليها
فترمي أنجمًا سودًا لهم، خوَذًا، صوالجةً
مطارفَ، عاهراتٍ، فضّةً، ذهبًا[17] (متفاعلن)

ويتساءل شاعرنا: ما الخلاص؟ كيف نهرب من هذه النار؟ وكل الطريق إلى خارج هذا القصر مزروعة بالجمر! إلى أين نمضي وخطانا مقيّدة بزوايا الزنازين، ووجوهنا شاحبة لا حياة فيها، هل نهرب إلى ماضينا الضرير؟ أم إلى ما أرسلته السماء، وهي مرهونة عند رجال الدين الذين ينتظرون منا النذور، أم إلى القضاة الذين يفصّلون القوانين حسب الطلب، أم إلى المثقّفين الذين يحملون المباخر، ويقفون على أبواب السلطان، أم إلى الشعب الذي يرسم الرغيف كي يأكل صورته... إنّها المأساة!!!

إلى
أين نمضي؟
وأقدامنا المطفآتُ زوايا زنازينَ نسمع
فيها سعال خطانا. وعمق الجهات مرايا في القطن
تمتص زيت المصابيح فينا
هربنا إلى أمسنا

كان أعمى

هربنا إلى زرقة الله، كانت نذورًا مخبّأة

في صناديق ذات قلانيسَ سودٍ، لحًى مرسلاتٍ،

وأقفال نومٍ

هربنا إلى قاعة العدل، كان القضاة

يدورون حول القوانين كهّانَ تاجٍ، يرشون

أوراقها الباليات ببَوْل الملوك.

هربنا إلى سنبلات عليهنَّ حبرٌ،

فلم نلق إلّا خرابًا

هربنا إلى راية الأرض، ما كان فيها

سوى نسوةٍ نحيلاتٍ، أجفانهنَّ

ثقوبٌ وخيطانُ دمعٍ[18] (فعولن)

ويتابع جوزف رحلته الشاقة في الأرض: كل ما شاهده كان معتمًا، تفوح منه روائح العفن، الذي ينمو على الأجساد والجدران والأضرحة والشواهد الخشبيّة، التي طحنها السوس، وهذه الخرائب كانت مساكن للفقراء، وللناس الطيبين، الذين قتلهم حكّامهم بالتواطئ مع رجال الدين.

خطونا

قليلًا،

رأينا زوايا من الطين فيها محاريثُ زرعٍ،

غُرِزْنَ بأجساد جرحى يغطّيهم الشوك،

تطلع منهم شجيرات خوخ لها ورق ناعم، ثمر

لامع حاولوا قطفه بالأكف ولم يبلغوه،
فظلّت دماهم تسيل وترسم شيئًا من الفم،
شيئًا من النهد، شيئًا من المقلتين، ولم
يكتمل أيّ رسمٍ، ولكنّها عندما رسمت
روحهم أكملتها، فكانت أيادي خُضْرًا
لهنّ سنابل سود مكان الأصابع.
سرنا خلال المآتم حتّى وصلنا إلى باب كهفٍ عليه
شواهد من خشب تختخته الرياح، وصار طواحين
للسوس، خارطةً لقرًى نائياتٍ[19] (فعولن)

ويمضي «جوزف» في حكايته، مؤرخًا للزنود السمر التي تصنع الحياة، بعرقها ودمها، ثمّ يأتي الإقطاعيّون، والرأسماليّون فيحصدون نتاج هذا العرق، وهذا الدم.

ومن هذه المأساة يولد النبي وفوق يديه كتاب «التراب» ويبدأ في الأرض عصر السماء.

هبّ ضباب علينا، التفتنا رأينا خلال الضبابِ
عراةً وسوقًا يبيعون فيها سنينًا تَرَقْرَقْنَ فوق حصى
عمرهم، وفي يدهم قطعة من نقودٍ على كفنٍ أبيضٍ، وفي
السوق بئر عليها جرارٌ مُلِئْنَ دمًا طازجًا،
عرقًا دافئًا
ولمّا يصيرون خارج بوابة السوق يغدون كوخًا، فيسكنُ
فيه نعاسٌ نحيلٌ، ويُشْعِلُ حُمْرَ قناديلهم في الظلام، فتظهر

في الكوخ أشباح كلّ المصانع، كل المصارف، تمحوا خيالات كل
المساكين، ترسل نيرانها في العراة، فيعلو لهيبٌ له قامةٌ
ذُوِّبَ الكلُّ فيها، فصارت نبيًّا
رأيناه
بين الضباب
وفوق يديه
كتاب «التراب»[20] **(فعولن)**

ويحلّق الشاعر في رؤياه ويحطّ خياله في عالم الأرواح ويقرأ أسرار الأجساد التي حطّمها الطغاة والتجّار والإقطاع:

ليس موتًا تترُّبُ أجسادكم. إنّه
جسدٌ ودَّع الروح منكم، وفيها قناديلُهُ
المطفآتُ، وأيّامُهُ العارياتُ، ولون
يديه الذي صار رملًا بغير نخيلٍ،
فطارات إلى القادمين على خيل قمحٍ
مطارفُهم أرجوانُ،
وتيجانهم من ترابٍ وشمسٍ،
وقد أرجعوا زيت كل القناديلِ
قمصان كلِّ السنين
وواحات كلّ الأكفِّ،
وعادت إليه لينهض من قبره جسدًا
لا يُرى،

ويشارك في صنع ليلٍ بغير جياعٍ
بلادٍ
بغير حروبٍ
وجوهٍ
بغير بكاءْ
ويبدأ في الأرض
عصر السماءْ[21] **(فعولن)**

هكذا يقرأ الشاعر مخزون القهر والحرمان، في تاريخ الأجيال، فهذه المآسي هـي رصيد تاريخي متراكم من رحمه تولـد الثورة... إنّها طبيعة الحياة الحتميّة التـي مهما بدت لنا صامته، لكنّها كالجمر تحت الرماد، يكفي أن يداعبها الهواء المنعش قليلًا حتّى تنفث هذا الرماد، لتتوهّج النار وتعلن شروق الأنوار. ويغدو جميع المساكين في الأفق قوس قزح.

والشـاعر مؤمن إيمانًا عميقًا، بأنّ القهر قوة، بل طاقة إنسـانيّة تتجاوز كل الحدود الدينيّة، والجغرافيّة، والعنصريّة، وتُصْهَرُ الشـعوب في سـبيكة إنسانيّة واحدة، ضد المسـتكبرين والمستغلّين في السلطات الزمنيّة، والروحيّة، ويصبح كل فقير قديمٍ فقيرًا هو الآن يعرق في أرض مصر... وتصبح روح الجياع «برومًا» القديمة مرسـومة في جياع «البرازيل» ومن قطّعتهم سـيوف الخليفة في سـوق بغداد... كلّهم صاروا هتافاتِ عمّالِ كلِّ المناجم.

مَنْ حُمِّلوا النير عبر العصور
لكي يحرثوا الأرض
ذابوا بأعماق كل العراةِ
فلا روح تُطْفَأُ في الموتِ

أو هي تصعد حتّى انتظار

القيامةِ[22] (فعولن)

لا يستقيم العدل في الأرض، إلّا إذا شقّ الفقراء جباه الأغنياء المستكبرين... عندهـا فقط يبدأ النور ويزول الظلام، ويعود الفقراء إلى الحياة بعرق سـيوفهم وليس بصراخ هتافاتهم.

ولمَّا يشقُّ الفقيرُ الأخيرُ

جبينَ الغنيِّ الأخيرِ

بآخر سيفٍ

تكون جميع أكفِّ المساكينِ

في كفِّهِ،

وتكون جميعُ جباهِ الطواغيتِ

ممتدة في جبين الغنيِّ

وتولد الأرضُ بلا فقراءْ

وحيث المساكينُ كانوا يجوعونَ،

ينبت قمحٌ

ويُشعل في ليلِهِ الأخضرِ الوردُ

قنديلَهُ

حيث كانت تسيلُ

الدماءْ[23] (فعولن)

وهكذا فالحياة صراع مرير بين الفقراء والكادحين وبين المسـتغلّين الذين يمتصّون رحيق الأجيال بجشعهم واحتيالهم وأساليبهم الملتوية. هذا الصراع لا يربحه الفقراء بالحوار بل بالثورة والدماء.

3 - تقديس الأرض والتوحّد معها:

يتوجّه الشـــاعر إلى الأرض، طالبًا إليها أن تفرش كل ما لديها من الســـجّاد لاستقبال قدّيسة الخصب، التي تحرس الحب فينا. أيّتها الأرض: ليس أبهى منك إلّا هذه الأم التي جاءت إلى قامتك الصفراء كي تسكن فيها. أيّتها الأرض أنت الأم الأولى للكون. أنت أمّ الأمهات اللواتي علّمتيهِنَّ خصوبة الأرحام والقلوب والأكفّ التي تمسح الآهات عن جباه الأطفال والرجال والعذارى.

ولأرفع ذراعيَّ لها مبتهلًا

كي أستحقَّ الحبَّ إن أحببْتُ

والأيام

إنْ جاءَتْ

وهذا الجسد المولود منها

ليس غيرَ الأمِّ مَنْ يأتي

لكي نأتي،

ومَنْ يرحلُ

كي نبقى[24] (فاعلاتن)

أيّتها الأرضُ الأمُّ إنّ فيك من القمح والأشكال والألوان وتضاريس الجسد مــا يُبْهِرُ ويُسْــكِرُ ويبعث فينا الســكينة والأمان. إنّك تحضنيـــن الطير والحيوان والإنســـان وأنت تستحمّينَ في أنهارك وترسلينَ نهدَكِ إلى السماء قمرًا من فضّةٍ وتجعلينَ الريحَ منديلَكِ!.

تعرّي وضعَتْ طيرُ البراري بيضها
فلتمسحِ المنقارَ في بطنك حتّى تطمئنَّ
الطيرُ أنّ القمح آتٍ.
وتعرّي كي أرى أمّي.
تعرّي كي أرى طفلي
تعرّي واستحمي في مياه النهر
حيث القمر الطالع يغدو فوقها
صابونةً من فضةٍ
والريح منديلًا إذا لملم
عن قامتك القطرة سمّاها
ندًى.
ثمّ استريحي فوق هذا السهل
كي أسمع صوت القمح
لمّا يرتمي رأسي على بطنِكِ
في الليل
كأعرابٍ رموا آذانهم في الرمل
حتّى يسمعوا صوت مجيء الخيل[25] (فاعلاتن)

وهكـــذا تصبح الأرض عند شـــاعرنا المرأة الأولـــى التي منها كل الأصول الإنســـانيّة وجميـــع الكائنات الحيّـــة وكل الرؤى الفنيّـــة للمبدعين، وكل الخبز للجائعين.

حوار عميق وشفّاف بين الأرض والشاعر، فيه ذوبان وجداني كثيف، وهذا

الذوبــان يرفد النفــس بالحنين، وبالكلام الرخيم الذي يرســم لنا صورة حافلة بالجمال الطبيعي الأخّاذ، وهذا الجمال هو صورة من صور الله المبدع الأكبر:

كلَّ ليلَةْ تشعلين القمر الأصفر
في السهل كقلبي
وعلى كرسيِّكِ الهزّازِ ما بين السواقي
تغزلين الوقت كنزاتٍ بكُمٍّ واسعٍ
حولك للطفل هدايا من نساء الأرض
قمصانُ نسيمٍ
قبّعاتٌ من ضباب الصبح
أيقونةُ ماءٍ
صندلٌ أصفرُ ذو شرّابةٍ من أقحوانٍ
مئزرٌ من ورقٍ
أقمطةٌ من زعترٍ فوق حواشيها فراشٌ
طقمٌ طرّزتْهُ الشّمسُ.
سلسالٌ من الفضةِ مكتوبٌ عليه
الله[26] **(فاعلاتن)**

وهكذا فالأرض تتكلّم بأبجديّتها، التي لا يقرؤها إلّا الراسخون، في معرفة الحقيقة الكونيّة، والذين يتقنون ترجمة هذه اللغة عبر سيبرانيّة خيالهم المجنّح.

ولا ينســى الشاعر الشــجرة المباركة، التي ترمي أجنحتها المكتنزة بحبوب الحيــاة، وتتدلّــى قطوفها ثمرًا لذيذًا، للجياع والمتعبيــن، وتلتمع أوراقها بفضّة السلام:

كان قرب السهل مدرسةٌ لها جدرانُ دِلْبٍ
أرضها عشب
قديمًا، سقفها مدّته كفّ الله
أزرقَ صافيًا
فيها معلّمةٌ تزيّن كلّ بيتٍ بالخوابي
والقناديل المضاءهْ
واسمها زيتونة الأرض. عليها من بخور
البحر منديلٌ، ومن عرّافةِ الزرعِ
عباءهْ[27] (فاعلاتن)

وأجمل ما في جوزف حرب، مقدرته الشـعريّة الواسـعة، التي تضعك في قلب موضوعه السـياقيّ، وفي الوقت نفسه، تحمّل الموضوع معنىً آخر، يتوحّد في السياق، وكل ذلك، دون أن نشعر بالإطناب، أو الخروج عن الفكرة الرئيسة التي يفرضها المعنى.

في النص التالي، يتابع الشاعر حكاية الأرض والطبيعة وإذا اكتفينا بالظاهر من السرد، نكون أمام نص الأرض، ولكننا إذا أعدنا القراءة نصبح أمام وجه مريم العذراء»، وابنها السيّد المسيح، وهنا تذوب المعاني وتتداخل في تطريزٍ فنّي باهر ولا تجيد ذلك إلّا إبرة جوزف.

قالت الزيتونة: امتصَّتْ يداهُ الحبرَ
حتّى صار طفلًا من كلامٍ
فاحملاه إلى خباءٍ من عريش
فيه شيخ مالح يدعى:

حزيرانَ الحكيمَ
مشى إليك على عصاهُ
كيوم غصنٍ يكتسي شيب الخريفِ
وعندما غطّت عليه طيور عينيك
انحنى
يا مريمُ
المصنوعة الكفَّيْنِ من صور الكنائس
قال: يا أمَّ العراقِ، وكنزَ أيدي الجائعينَ
كم انتظرْتُ قدومَكِ الملكيَّ
كيْ أَهَبَ المفاتيحَ القديمةَ، والشرائعَ
والسيوفَ الحمرَ
للقمح الذي يأتي على فرس الترابِ
متوَّجًا بالشّمسِ
متّشحًا بقمصانِ الطحينِ
وخلفَهُ فقراءُ كلِّ الأرضِ قدْ حملوا رماحًا
جُوِّدَتْ من معدنِ الأفواه والأيدي لموتاهمْ
وجاؤوا من رماد الوقت، أو حجر الشوارعِ
بعدما نبّشوا تروس وجوههم مما تبقّى
من مرايا الجمرِ[28] (فاعلاتن)

كتــاب التــراب، وحده، يختــزن التاريخ الحقيقي للبشــريّة، لأنّ صفحاته ممهــورة بأكفّ العراة، والكادحين الذين تحبّهم الأرض ولا تطرب إلّا لسـعال أقدامهــم وطيــب عرقهم. وفي هــذا الكتاب الذي تتحدّث فيــه كائنات الكون

بألوانها، وأشكالها، أمام الشّمس والقمر والنجوم وصهيل البحر، ورقص السنابل، المترعـــات برائحـــة الخبز، نقرأ التاريخ الذبيح الذي تركه لنا ملوك الأرض، وما زالوا يفرحون بما يسفكون.

نفتّش الأيام يومًا بعد يوم في هذا الكتاب فلا نجد إلّا ســـطورًا مليئة بجملٍ من القتلى، وفواصل من مشانق تحتها جثثٌ، نقاطٌ من مقابر لفّها عفن السنين.

نقرأ في هذا الكتاب بأنّ كل خرائط الموائد الدســـمة، وكل صناديق الكنوز التي امتلأت بالأصفر الرنان، هي أشلاء الفقراء والمساكين الذين ماتوا بلا كفنٍ وبلا نعشٍ، وبلا قبرٍ بينما للملوك وللمرابين وللصوص نصوب من رخام!

وينظر في خرائطَ للموائد والكنوز،
وفي فهارس للصناديق التي امتلأت دراهم
صار من أصحابها حتّى الغبارُ اللّصُّ،
والصدأ المرابي
بينما ابن الأرض إن هو مات،
لا يجد الضريح به سوى نوم التراب
على الترابِ[29] (مفاعلتن)

الملك في كتاب التراب هو شـــهر تموز: إنّه ملك بلا حراس وبلا حاشـــية وبلا تاج مُذهَّب... إنّه ملك لا يشبه في شيء الملوك والسلاطين الذين ذكرتهم كتب التاريخ البشريّة:

يا أيّها الجائعونَ
توّجني الغيمُ على عرش فقركم ملكًا.

سنبلةٌ صولجانُ مملكتي.
تاجي رغيفٌ
وكاتبي ولدٌ
والأمهات قضاة مملكتي
وليس لي حرسٌ ولا خدمٌ
يا أيّها الجائعون،
حاشيتي الرعاة وامرأة الحصاد
بلاطي الطواحين،
رايتي المطرُ الخريفُ
لا بيت لي
وأسلحتي سيوف ماءٍ
وخاتمتي عرقٌ"[30]

الملك في كتاب التراب هو شـهر تموز... ملك تاجه السـنبلة، وحاشـيته الرعاة، ونسوة الحصاد، فهو لا يشبه ملوك البشر وسلاطينهم الذين يبنون ممالكهم من عظام الفقراء، ويخوضون حروبهم بأجسـادهم ويرمون أشلاءهم للوحوش الضارية، ويتركونهم في أكواخهم، بلا خبز وزيت عندما تنتهي الحروب، ويرتوي الملك من شرب الدماء.

وهذا الملك الذي اختاره الشاعر هو «غيفارا» الفقراء يحرّضهم على الثورة ضـد الطغاة، ويدعوهم إلى الخروج من أغلال حكّامهم ويبشّـرهم بالشّـمس المشـرقة بعد ظلامهم الحالك إذا تحوّلوا مطرًا ينصبّ أحمر كالجحيم، مدوبًا، عميقًا، تغوص قطرته في الظالمين كرمح صاعقةٍ:

أقول يا أيّها الجياع لكم:
لا تدعوا إلّا رفوف الطيور تسرق خبزًا عن موائدكم.
وإن خطب الصيف الحقول، تزيّنوا بهفافٍ، وارقصوا فرحًا،
فكلّ فم خاتم وردٍ، وكل سنبلة عروس قمحٍ وكلّكم ذهبٌ[31]

جوزف حرب شـاعر يغمّس قلمه بحبر الفقراء، والمسـحوقين ويسخّر فنّه وإبداعه، لاسـترداد الأصالة لهؤلاء المهمّشـين، عبر التاريخ ويقول لهم بلسان تموز الملك:

إنّي لكم وحدكم
لكم بدمي، وكل صيف السنين في جسدي، لكم
بسنبلتي التي صعدت من التراب لأنّ حبّتها لكم
لكم وحدكم
فلا تدعوني فوق مائدة الذين أهانوا تاج مملكتي
التي فتحت أبواب حنطتها لكم.
فأبي التراب أرسلني أبشّركم بالأرض، فابتهجوا بها،
وتعالوا كي أبارك جوعكم
بيدي
إنّي مسيح أكفّكم. فخذوا اشربوا
دمي، وخذوا كلوا
جسدي[32]

وهكذا يتوحّد الشـاعر وتموز في جسـد المسيح ليمسـحوا الظلم والفقر والاستغلال عن هذه الأرض!!! ويبدأ النشيد:

يا
قمح البسطاءْ
يا
ملك البسطاءْ
ناداك الحصّادون، حفاة الشارع، من عاشوا
مقهورين جياعًا
ناداك الغرباء
مَنْ ما ملكوا من شجر الوقت
سوى الصحراءْ
مَنْ رحلوا،
ليس لهم – يا قمحُ – قبور
أو أسماءْ
يا
ملك البسطاءْ
فليكن الزمن الآتي
من غير دماءْ
من غير سلاحٍ وسجون. من
غير أكفٍّ حمراءَ
وأجراسٍ سوداءْ
يا
ملك البسطاءْ
ولتخلُ الأرضُ

من الفقراءْ

يا ملك البسطاءْ

ما أجملَ أن تصبح هذي الأرضُ مكانًا للعشاق

وللشعراءْ

أن نتداخلَ مثلَ الماءْ

يا

ملك البسطاءْ

يا

قمر البسطاءْ

ما أجملَ أن تخلو الأرضُ

من الفقراءْ[33]

4 - الأرض هي الأم والوطن والملوك هم الغزاة:

في الأرض المسكن، والمأكل، والمشرب، والحديقة، والملعب. وفيها ذكرياتنا منقوشة على وجوه صخورها، وقامات أشجارها، وتبدّل قمرها من قوسه إلى بدره، ومن ألحان سواقيها، وحفيف سنابلها التي أتعبها حملها، الذي ننتظره خبزًا.

قديمًا كانت أرضنا بلا حدود مرسومة على الورق، كانت زرعًا وحصادًا وشجرًا وثمرًا وعرزالًا في الصيف ومدفأة في الشتاء وقمرًا نغسل بصابونته وجوه حبيباتنا وشمسًا تُنضج نهاراتنا وندىً صيفيًا يترك لؤلؤه على خدود أكواز التين، وشهدًا من عرق النحل وطيوب البراري، وكرمًا ومحبةً وسلامًا تطمئن بها النفوس.

تكالب على أرضنا الغزاة: قتّلوا... أحرقوا... هدّموا اغتصبوا... قسّموا أرضنا وجعلوها حصصًا لهم ولنواطيرهم من الملوك والحكّام.

يختصر جوزف حرب هذه الحكاية فيقول:

أتى وطن، بعده وطن، بعده وطن، حاملين
ترابًا لهم. فبنوا منه سدة ملكٍ جلسنا عليها.
تقدّم منّا حكيمٌ

وقال:

أجمل الفتح للعصافير لا للخيل،
والخبز لا لسيف المراثي.

حمّلاني إذا دخلت بلادًا
أغنياتٍ وحنطةً وسلامًا
ما الذي خلفَ بعلبكَّ وأهراماتِ مصرٍ
وبُرْجِ بابلَ إلّا بشرٌ قصّبوا الحجارة فيها،
وبنوها على الأكفّ، وأجروا دمهم تحتها
ولم يسكنوها.
كلَّ عامٍ، سنابل الصيف تمضي
لأيادي الذين لم يزرعوها
من ملوكٍ، توارثوا الأرض حتّى
حوّلوها إلى مقابر جمرٍ وعلى
كلِّ أهلها أغلقوها[34] (فعولن)

ويرى جوزف حرب الجندي المحارب في جيوش الملوك إبنًا بارًا للأرض والزرع فهو يمارس القتل ويهدّم ويحرق الزرع تنفيذًا لأوامر سـيّده وليس قناعة منه لأنّه في قرارة نفسه هو عبد عند سيّده ويخشى عقابه:

تقدَّمَ منكِ المحاربُ
قال:
هذه بندقيّتي. كنت لما أطلق النار
لا أرى غير أمٍّ وَقَفَتْ ما بين طلقتي وابنها،
فاتحةً لي ذراعها وهي تبكي.
هذه بندقيّتي. ذوّبيها في المحاريثِ
فالمحاريث دارٌ، تنشر الأرض في دواوينَ خضرٍ

هذه خوذتي املئيها ترابًا،

فهو راءٍ، وراقصٌ، وحكيمٌ[35] (فعولن)

ولكنّ السـلام لا يخيّم على الأرض إلّا إذا اسـتبدلنا البندقيّة بالمحراث، والسّـيف بالمنجل، والخوذة بآنية للشـتول والزهور. من يحب أمه الأرض عليه أن يعمل على عمرانها.

وهذا العمران لا يحصل إلّا بأكفّ نقيّة، تفهم لغة السنبلة، الشجرة، الوردة، وعبق التراب، وشكل الحجر ولونه، والثقة المتبادلة بين البيدر والطاحونة، حتّى يتأكّـد القمح بأنّه سـوف يصير طحينًا للفقراء قبل أن يسـرقه الملوك والحكّام ويقبضون ثمنه ذهبًا يكدّسونه في صناديقهم المقفلة:

هذه خوذتي املئيها ترابًا

وازرعيها موشّحات زهورٍ

علّقيها على جدارٍ قديمٍ

واثقبيها ليرشح الماء منها

ومتى أقبل الربيع ستبقى

خوذةً في الجدار تنزف وردًا

لا دموعًا ولا دمًا لقتيلٍ[36] (فعولن)

ولكنّ الأرض كونها أمّنا فهي لا تفرح ولا تنتشي إلّا إذا رأت من عمّروها يتنعّمون بخيرات أكفّهم التي بنتها ومشّطت سنابلها بأصابعهم الذهبيّة

ومدَّ لنا عاملٌ كفَّهُ

ثمّ قالْ

ليس فيها سوى أصابع لم تحمل رغيفًا إلى فمي
لم تعمّر لي بيتًا، وهي التي حملت كلّ رغيفٍ
وعمّرت كلّ بيتٍ.
فخذاها، فلم تزل كفّ بانٍ، يعشق الأرض
أن تكون صكوكًا في أكفِّ الذين قد عمّروها[37] (فعولن)

أيّتها الأرض، فتك الملوك بنسـلك، وأعدموا زرعك واسـتعبدوا إنسانك، وعمّ الخراب، وحطّت البوم في ديارنا، وغطّانا ضباب كثيف، وفجأة التمع وسط الضباب برقٌ جميلٌ فيه أمواج من الأضواء والألوان... سمعناه يخاطبنا: [الوافر والقافية من المتدارك]

ويكفي أنّني قدْ عِشْـتُ شمسًا — وبعـدَ نهـارِ هذا العمـرِ غِبْتُ
رفعْـتُ الغيـمَ إبريقًـا، ولمّـا — رأيْتُ الأرضَ فوقَ فمي شربْتُ
وضعْـتُ الريـحَ أوراقًا، عليها — بأجنحـةٍ نشـيدَ دمـي كتبْـتُ
إذا مـا جئْـتُ للدنيا رسـولًا — صُلِبْـتُ فكيف تبكي مريماتي؟
وأجمـلُ قصتّـي أنّـي صُلِبْـتُ.

السيد المسيح نبيٌ أرسله الله إلى الأرض حاملًا معه رسالة السماء. جوزف حرب شاعر رؤيوي أرسله وعيه ليكون صاحب رسالة إنسانيّة تصبو إلى محاربة الظلم والاستعباد.

السـيّد المسـيح صُلِبَ لأنّه انحاز إلى الفقراء والمعذّبين ولم يهادن التجار ولصوص الهيكل. جوزف حرب عاش حياته حاملًا شـعره الحافل بالنقمة على

معظم رجال الدين الذين اتخذوا الدين وسيلة للسيطرة على البسطاء والفقراء. كلاهما مجدا الأرض وسكانها وكائناتها وناديا باحترام الإنسان واعتباره القيمة الوجودية العليا.

السيّد المسيح رسالته إلهيّة ذات طبيعة مثاليّة أي أن الوعي فيها أسبقيّة موضوعيّة على الوجود على الإنسان أن يؤمن بهذه الرسالة ويلتزم بمبادئها الإلهيّة حتّى يحققّ له وللإنسانيّة حياة راقية قائمة على العدل والمساواة وخالية من التمييز الطبقي والعنصري. من يعمل بتعاليم السيّد المسيح ينجُ في الدنيا والآخرة ومن يخالفها سينال جزاءه في الآخرة عذابًا إلهيًا عظيمًا.

السيّد المسيح صُلِبَ ماديًّا وعُلِّق على الصليب في القدس وهذا ما تعتقد به الديانة المسيحيّة، وصلب معنويًا لأن أتباعه في الكنيسة اختلفوا في طبيعته وتفرّقوا شيعًا ودارت بينهم حروب مدمّرة دفع ثمنها الفقراء والمساكين الذين دعانا المسيح للرأفة بهم والعمل على مساعدتهم لتحسين أوضاعهم المعيشيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة.

إنّي أكتب هذا الكلام، ولست أريد منه، المقارنة بين السيّد المسيح، النبي المرسل من الله، وبين جوزف حرب، لأنّ المقارنة بينهما غير جائزة، وغير مبررة، وغير منصفة، فالمسيح نور الله على الأرض. جاء ليبشّر بوجود الله، ووحدانيّته، وهداية الناس للإيمان به، والعمل بشرائعه السماوية التي وحدها، تحقّق الخير والأمن والسلام والرفاه للبشر.

أمّا جوزف حرب فهو أنسان مسيحي مؤمن بالله، وملتزم بمبادئه، التي بشّر بها المسيح، ومنفتح على الديانات الإلهيّة، وغير الإلهيّة، وساعدته ثقافته ونظرته الفكريّة، الثاقبة على المقارنة بين هذه الديانات للوصول إلى القواسم المشتركة،

التي تؤمّن للإنسان حياة كريمة، بعيدة عن الظلم والفساد والطغيان.

وجوزف حرب كمفكِّر وجد أن الأديان قد فشلت، في تحقيق ما كانت تصبو إليه، وكل المشــاكل والآفات التي أرادت هذه الأديان معالجتها والقضاء عليها، قد زادت وتفاقمت: الظلم فاق التصور وســيطرة القوي على الضعيف أدّت إلى نهب ثروات الشــعوب الضعيفة، عن طريق الإستعمار والاحتلال والاجتياحات العســكريّة والأعمال الإرهابيّــة... إنّ هذا الواقع الأليم حفر في مجامر جوزف حرب ألمًا كبيرًا واعتبر نفسه قد صلب معنويًا على صليب المعاناة وعلى صليب الانتظار قبل أن يتدخّل الله وينصف عباده المقهورين على الأرض.

يتساءل جوزف حرب: ماذا تصير الأرض في أيدي الملوك؟ وما الذي يبقى إذا ركبوا الخيول وطوّفوا فيها؟ وكم طفلًا سيكبر وهو يحمل في يدٍ خبزًا، وفي أخرى دواةً؟

كم أبًا سيكون أطول من مدامعه؟ وكم أمًا ستحيا غير معتمةٍ؟ وأين ننام إن كانت قبور الأرض أكثر من منازلها؟ وما هذا الذي ينساب في الساحات ماءٌ أم دمٌ؟

ماذا ســنقرأ عندما يغدو التراب كتاب تاريــخ يؤلّفه الملوك بحمر أيديهم، ســوى جُمَلٍ من الأكواخ ذات فواصل صفرٍ من الفقراء؟ ما من صفحةٍ إلّا وكل كلامها أســرى ومعتقلون، ما من مقطعٍ إلّا وكل ســطوره تجري دمًا ما بينه نقطٌ من القتلى.

أجــل، الملــوك مجرمون والشّــعوب ضحايــا. لا كرامة للبشــريّة بوجود

الملوك... إنهم شياطين الأرض التي نريدها ملاكًا يرتدي ثياب اللوز وعلى كل زهرة نحلة ترشــف الرحيق ليكون عســلًا شــهيًا لأجيالنا التي تنتظر الطحين لا الدماء والطعام لا الرماد.

انكسار وخيبة وشعور بالغربة تُفَسِّخ دخيلة جوزف تجعله يتساءل:

لست أدري أين كان الله
حوَّلوا هذا الخراب كنيسةً
علّقوا أصواتنا جرسين
غابوا بعدما صرنا نعاةً[38]

ويلملم جوزف كَسَراتِ السنين من عمره ويصرخ:

يا لهذا الجوع. كيف تعيش سنبلةٌ ببيتٍ
للطحين، وليس لي من خبزها كَسَراتُ أمٍّ؟
هل وُلِدْتُ لكي أشاهد موت أمي
ثمّ أجلس فاتحًا كفّي ليلقي العابرون
حجارةً فيها، فأبني قبرها، وأنام
عند جداره إكليل دمعٍ أم دم؟
هذا أنا:
لا
شيءَ
إلّا أنّ لي عينًا ترى[39] **(مستفعلن)**

يلجأ جوزف إلى الأسطورة الحلم حتّى يفتح لخياله آفاق الإبداع الواسعة،

ويرسم لنا صورة أمه. وفي هذا الحلم تتوحد الأم الأرض بالأم الآدمية ويتبادلان الأدوار في الملامح والحركات في سياقٍ شعري جميل ثريّ بأطياف الرؤى التي تحرّك فينا كلّ أوتار الحنين إلى الحضن الدافئ لديهما.

في منامي ذات ليلٍ،
كبِرَتْ أمّي،
وقد كانت تغطّي وجهها الحُلْوَ
تجاعيدُ السنينْ
وكغصنٍ يحفر الزرقة في بطءٍ ليعلو، بدأت تكبر
حتّى أصبحت قامة فُلٍّ، كلّما مرّت بها عينا فتًى، صار
نسيمًا يحمل الطيب الذي ماج عليها
ويُجَنُّ
دمعها تنقيطُ شمعٍ، ضحكها أجراس ماءٍ في يد النهر
ترنُّ
ترتدي أيّامها الأرض، وأمي وأبي تفاحةٌ ملأى
بشمعٍ ونبيذ
وقُبَلْ
ومساءاتٍ يذوبان كموت الشّمس فيها، فيصير الليل
أوراقًا عليها القمر الفضّيُ عنوان حبيبٍ، والهواءُ
الناعمُ اللّينُ أقلام فراقٍ،
والغمام جُمَلْ[40] (فاعلاتن)

وكعادته في صوره الشعريّة يطرّز «جوزف» صورة الأرض الأم فيقول:

وجهها
رسمٌ بحبر الصّيف، مختاراتُ شعرٍ في الهوى
أصحابها «عُرْوة» ذو الرمة، قيسٌ، عمر، المجنون،
ديك الجِنّ، مَنْ تسمعُ مجرى دمعهم في بُحَّة الناي،
وليلِ الكتبِ
مَنْ تُرى عذَّبَها؟
أعماقُها صارَتْ مساءً، ومواويلَ رعاةٍ،
ومرورًا لخُزامى الريحِ
بين القصبْ
تَسْكَرُ الإصبع منها وهي تبكي
إن رآها الحزن نادى مقلتيها، ونبيذُ الدّمع
يجري منهما:
يا عنبي[41] **(فاعلاتن)**

إنّ العلاقــة بين جوزف حــرب والأرض تكاد تصبح علاقة عضوية ويصير جوزف عنصرًا من عناصرها فهي بيته وغرفة نومه وأمه التي تســهر على راحته وتغطّيه بالرعاية والحنان:

كلّ ليلَهْ
قبل أنْ أخلدَ للنومِ تجيءُ الأرضُ
كي تفرش تختي. تضع الغيمة في تختي
وسادهْ
تجعل الماء المنقّى شرشفًا أخضر في أطرافه

تطريز موجٍ
بالزَّبَدْ
ثمّ أرتاح بتختي فتغطّيني بظلٍّ حاكه قبل
المساءاتِ
الشجرْ
قمرٌ بالقرب من تختي مُضَاءٌ، ولكي أُغْمِضَ
عينيَّ وأغفو
تطفئُ الأرضُ القمرْ[42] **(فاعلاتن)**

بين الشاعر والبحر نسبٌ قديم، فالبحر عنده هو بداية الأرض، وأمواجه ما زالــت تتكلّم لغته الأولى، وصفحته حقلٌ عشــبُهُ أزرق، ولُجّجُهُ قطعانُهُ، وزبدُهُ صوفها، وهو الراعي الذي يرعى هذه القطعان، ويراقبها من الشاطئ.

كأنّ الموجَ قطعاني
كأنّي عند هذا الشطِّ
راعيها.
وتُقْبِلُ، صوفها زَبَدٌ، خطاها صندلُ الفيروزِ
حينَ من الحشيش الأزرق الملآنِ ماءً
في مراعيها. أناديها[43] **(مفاعيلن)**

والأرض عند جوزف حرب، هي بيتنا، وحديقتنا، وكل أجسادنا من ترابها، ونهاياتنـــا هـــذا التــراب، ولا وطن لنا غيرها. كل وفاءٍ لا يبـــدأ منها، لا قيمة له، ولا جدوى منه، وكل الحدود الجغرافيّة، والسّياسيّة، التي وضعتها الشعوب لها، وتموضعت فيها لتتميّز عن غيرها، هي الســبب في الحروب والخراب والدّمار.

الأرض جميلة وقلبها كبير ورقيق وكائناتها تحبنا وتطربنا وتملأ نفوسنا بالبهجة والأمل وهذا يدعونا إلى الإنتماء إليها كوطن نهائي للإنسانيّة جمعاء من جميع أجناسها وألوانها وأعراقها...

فكلّنا من جنس التراب، ومن طعم المياه، ومن طحين القمح، شمسنا واحدة، وقمرنا واحد.

الأرض كريمة ومنصفة، فهي معطاءة وشفّافة وأنيقة في تعاملها معنا، إنّها تحمل إلينا كل كنوز زينتها، ونحن الذين ننكر جميلها ونشوّه جمالها ونصحِّرُ خصبها وندمّر طبيعتها:

أيّتها الأرض:
أذكر أنّي وُلِدْتُ من قمرٍ، وألبستْني الحقول أندلسًا.
وكان لي طائر يجيء إلى شبّاك بيتي بغصن زنبقةٍ
بيضاءَ، والشّمس لم تكن يدها إلّا لكي تحملَ
البنفسج لي.
لم أحبَّ لغاتِ الدّين، والفيلسوف، والعلماء،
والقرون التي اكتشَفَتْ كم فيَّ وحشٌ، ويابسٌ، وقبورٌ،
كم مع الوقت
صِرْتُ مِقصلتي.
وضاع وردي
وعنفُ سنبلتي
وقلّ هذا المدى

بأجنحتي.
أيّتها الأرض، أَرْجِعي صغري،
فليس لي منك غيرُ أسئلتي
أجمل لي، أن أعيش فيك، معي
غموض هذا المدى، وأخيلتي[44]

الأرض في شـــعر جوزف حرب هي مصدر الجمال، هي الآية الكونيّة التي طبعهـــا الله بإبداعـــه. فكانت وما زالت الأيقونة التي يســـتوحي الفنّ منها صوره وأشكاله وألوانه وموسيقاه بل ولغته.

ولمّا رتّبَتْ بين البحار بيوتَها
الأرضُ استعانَتْ بالغمائمِ
والرّياحِ
فألبست أشجارها
قمصانها
الخضراءَ
حوّلَتِ الحقول إلى مقاعدَ من ركاياها الظلالُ
ومن مساندها الحفافي.
مدَّتِ السجّادة الفيحاء فوق السهل أندلسيّةَ الألوان،
والوديان صارَتْ في بيوتِ الأرضِ معصرةً.
وصارت ذي الشواهقُ من جبال البَرّ جدرانًا،
تقوّس فوقها سقفٌ سماويٌّ تدلى منه بِلَّوْرٌ
تقطّر فيه زيتٌ برتقاليٌّ له لونُ المسارج.

علَّقَتْ قمرًا لهذا الليل

شمسًا للنهارْ

ومدّت قرب أرحِيةِ الطواحينِ القصاعَ.

وحوّلَتْ كلَّ الينابيعِ العتاقِ

إلى جِرارْ[45] (مفاعلتن)

الأرض تسكنها الأمومة والخصوبة وهي دائمًا عذراء ودائمًا حبلى، وهي حارسة الحياة من الفناء، وهي عروس وعريسها البحر المقدّس. كلّ الكائنات تناديها: أمي... نهدها لبنٌ، وعيناها ملاك... الهواء يدها والرّيح غضبها والبرق سيفها تشق به أعناق الغيوم السود حتّى تستحيلَ مطرًا وثلجًا وحصادًا وجنّة ألوانٍ في نيسان...

والأرض ترقص

تجعل الصفصاف قامتَها، وريح الصبح عاشقَها

وترقص وهْي في شَبَقٍ وتفتيحٍ

وإنّ الأرض تسكنها الأمومة والخصوبة

نهدها لبنٌ

وعيناها ملاكٌ

والهواء يدٌ لها حتّى تهزّ به الأراجيحَ

المموَّجَ طفلُها فيها، كعصفورٍ ينام

على ورق العريشةِ.

إنّها العينُ التي لا نومَ فيها

دائمًا عذراءُ

حبلى دائمًا، تُنْهي الولادة ثمّ ترجع للعروس البِكْرِ
من بكرٍ إلى امرأةٍ
ومن امرأةٍ إلى بكرٍ
عروس دائمًا عذراءُ[46] (مفاعلتن)

ولكـــن هذا التقديس لـــلأرض يقلق جوزف حرب ويوّتره لأنّ هذه الأرض الخالقة والسيّدة هي عاهرة وقاتلة ولصة لأنّها تسرق عمره وتطفئ جمر إبداعه.

... كلُّ شيءٍ أنتِ
خالقتي، وسيّدتي، وعاهرتي، وقاتلتي
وواهبتي السنينَ
وإنّما أيضًا يدُ اللِّصِّ الذي يأتي ويسرقُها
وكيف وأنتِ أمّي تطلبين من الخريف
تسلُّمَ الأوراق من أشجار عمري؟!
وكيف تُذَرْذِرِينَ على اخضراري السكَّريِّ
رمادَ جمري؟![47] (مفاعلتن)

وهكذا فجوزف حرب لا يريد أن يرحل عن هذه الأرض، لا يريد أن تنطفئ حياته. إنّ شعور الموت عنده، يبقى حاضرًا دائمًا، ولا يفارقه أبدًا، وهو في أماكن كثيرة في شعره، يعاتب الله، ويحتجّ على هذه الضريبة التي فرضها الله على عباده، في الحياة الدّنيا، والآن يكرر الشيء نفسه، معاتبًا الأرض التي خلقته، كيف تعطيه الحياة ثم تسرقها؟

وكيف يدُ التي زيّنت أرجوحتي،
هي ذاتها مَنْ عمّرت يا أرضُ

قبري؟!
يا لَطَبْع الأرضِ!
من لَفْحِ النسيمِ، إلى الزلازلِ.
واحتفالاتِ الكرومِ إلى الجفافِ
ورقصةِ العصفورِ حتّى لسعةِ الأفعى
تلينُ، تُجَنُّ، لا تبكي، تخونُ، تحبُّ
تكره، ليس تُهْزَمُ
لا تُحَاكَمْ
يستوي تاجان فوق جبينها:
تاج الندى، تاج المجاعة
وهي لا تُصغي إن صلَّيْتَ
ولا تهتمُّ إن مرَّتْ بها اللعناتُ[48] (مفاعلتن)

ولكنّ كل هذا الصراخ الذي يتصاعد من أعماق جوزف يتبخّر فجأة فيعود مجدّدًا إلى أمه الأرض ويناشــدها أن تســاعده للبقاء عليها حيًا حتّى يتمكن من اكتشاف أسرارها.

خوفي قدَّسَ الأشياءَ
عشقي قدَّسَ الأشياءَ
إنّي خائف منك، وأعشق أن أظلّ بلا رحيلٍ
ليس عندي قوّة إلّا التمنّي أن أظلَّ
بغير موتٍ
واكتشاف البَعْدِ

ليس سوى توهُّم خائفٍ من موته
ماذا سأفعل كي أظلّ عليك حيًّا
إنّني من طينةٍ يا أرضُ واحدةٍ
وما عقلي سوى هبةٍ لأعرفَ
أنّنا من طينةٍ يا أرضُ واحدةٍ.
فأفرح فيكِ ممتلئًا بعشق بقائي الأبدي فيكِ
نعيش منطلقَيْنِ نحو الكون في عرباتنا، حيث
المسارج والنّجوم تصير من بلداننا الأخرى
اصعدي نحو العناقِ.
لسوف أمضي
نحو أن أبقى
لسوف يَرِقُّ طبعُكِ(49) **(مفاعلتن)**

جوزف حرب عاش حياته كما يريدها، غير عابئٍ، بالتّقاليد والعادات الصنميّة، أحبّ الحياة وأعطاها كل نهاره ونصف ليله. أحب الأرض وذاب في عناصرها حتّى أصبح من طينتها وعاتبها وصعّد من لهجته تجاهها ولكنّه في النهاية عاد إليها وعبدها:

لَلأرضِ! رغم القسوة السوداء فيها
والفُتات المرّ، والصدأ الذي بين الدقائق
والجنازة، والخراب، وكلِّ أقبيةِ الرمادِ،
وما على حدِّ المقاصلِ من دمِ القِنديلِ
نعبُدُها(50) **(مفاعلتن)**

لقد ســطّر جوزف حرب جمر مراجله شــعرًا بحبر انحيازه إلى المهمّشين الذين ينخّلون تراب الأرض بأكفّهم، ويســقونه بمآقيهم ثمّ يأتي الملوك ورجال الديــن ليتنعّموا بثمار هذا التعب المقدّس. بقــي جوزف حرب الحادي الأمين لقافلة الأرض وشــاعرها الذي يدوزن قوافيه على إيقاعات الســواقي وحفيف الصفصاف وزقزقة العصافير.

ويغــوص جــوزف حرب عميقًا في حبه لــلأرض، ويبدو ذلك في مناجاته لهــا. فهــو ينفخ فيها مــن روحه، فتغدو أمامه امرأة، من لحــم ودم، تُصغي إليه وتحدّثه وتبوح له بأســرارها، وبعظمة كائناتها: فالبحر قدّيس البراري، والجبال سلالة الحكماء، والأعشاب في لغة الثرى خطّ الفواصل، أو علامات التعجّب.

ربّما يا أرضُ
كنتِ أخفَّ همًّا
لو أنا ما جئْتُ
لكنّا معًا في الكون
فَلْأَحْبِبْكِ كي أبقى
وكوني،
لا زلازلَ، لا بحارَ بغير ملحٍ، كي أظلّ عليك مفتونًا
بقامتك التي لا شيء يُبكيني سوى أنّي سأرحل ليس
عنها، بل وعنّا، عندما يأتي ضريحي[51] **(مفاعلتن)**

ويبلغ هذا الحب مداه عندما يعلن جوزف بأنّه جنين الأرض وهي أمّه التي لم يكن لولاها:

من قديمٍ أنتِ أمّي،

قُلْتُ، عذرائي، وربّتي التي آتي إليها
بالنذورِ، وبالأضاحي
إنّك الرَّحِمُ المقدّسةُ الخصوبةِ، والهوى،
والسرّ، والينبوع.
لست سوى جنينكِ
فَلْأُمَجِّدْكِ لأني لم أكن لولاكِ
لم أولَدْ، ولم أوجَدْ
فكلّ الكائنات كأنهنَّ سنابلٌ
في كفِّ خابزتكِ
ووحدي، خبز مُعجزتَكِ(52)

وهكذا فمن يحب الأرض، ويذوب فيها، وينفخ فيها هذه الروح، يستحق أن تكافئه الأرض وتعلن بأنّه معجزتها.

ويعود الموت إلى شاشة هواجسه من جديد، فيخاطب أمّه الأرض، قبل غروب عمره، ورحيله طالبًا إليها، أن تحضنه، وترتّب سفره إلى الرحيل النهائي:

وأعشق نزهة الدوران حول الشّمس.
أنتِ بنزهتي قربي. تعالي رتّبي
سفري، تعالي وافتحي أرجوحتي
وغناءك البحريّ.
ها قد شعَّ قنديلُ الغروبِ
فرتِّبي نومي
وإنّك ربّتي، وأنا المحمّل بالشّموع

فرتّبي روحي
ويا أرضُ، اغمريني للصباح، فإنّ
صوتًا من بعيدٍ يناديني:
لقد هبّت رياح الراحلينْ
وإنّكَ مبحرٌ معنا لأسوَدِنا الذي لا ذكريات به
ولا أبواب فيه
ولا حنينْ
ولسنا من هناك
بعائدينْ[53] (مفاعلتن)

يتوجّه جوزف إلى الإنسان، أينما كان على هذه الأرض ناقلًا إليه رؤياه، التي سطعت من شمس أعماقه، أيّها الإنسان، الأرض تدعوك إلى خلع الكسل، وارتداء ثياب العمل، لأنّ وجودك مرهون بعملك، وإبداعك، لاكتشاف الأسرار العظيمة المخبّأة فيها وفي الكون الفسيح الذي تدور فيه:

هي الرؤيا، وقد سطعت، ولاح لمسمعي
من راح يهتف:
قُمْ.
فلا للنوم أنت أو الزّوالِ. وإنّما أنت
الذي سيقودُ هذي الأرض مكتشفًا عناصرها،
ومنطلقًا إلى الكون البعيد تفكّ من أسرارهِ
ما سوف يجعل منك عارفه الوحيد، كمعرفة
المصلّي للغروبِ، وراحةِ البحّارِ في صنع الزوارقِ.

قُمْ.
قميصًا مُرْسَلًا، وجهًا حكيمًا، قامةً كرسولِ
أمواجٍ، فمًا كنبوءةٍ، عينين أعمق من سواد
البئر ممتلئًا مسارجَ.
سوف تُقْبِلُ نحوَك الأشجارْ
على أكتافها قطع الغمام جرارْ
وقرب ظلالها تمشي بأحذية
لها شكل الحصى الأنهارْ[54] (مفاعلتن)

الله في عليائه هو سـيّد الكون وخالقه. والإنسـان هو سيّد الأرض. بعمله، وحكمته، وإبداعه، يكتشفها ويكيّف عناصرها لتحقيق راحته، وتطوّره الدائم لأنّ التطور المادي، والمعنوي هو في نهاية المطاف، حاصل هذا التفاعل بين الإنسان والأرض.

لذلك فعلى الإنسان إذا أراد أن يكون سيّد الأرض، أن يجيد التعامل معها، في احترامها وصيانتها وفي الوقت نفسه الإستفادة من خيراتها، والتعلّم من حكمة فصولها، وثورة عواصفها، وجمال طبيعتها.

وفي فمها نشيد الأُفْق، والأعماق في يدها
كتابُ الملح. وانظر إنّها الأرض ارتدَتْ
قمصانها الخضر الوريقهْ
وحول جلالها الليل ارتدى قَمَرِيَّهُ
والصبح ألقى فوق قامته شروقَهْ
وغيم فصولها وشّى مطارفَهُ بساقيةٍ

وعشبٍ، واستوت هالته فوق الجبين
موزّعًا فيها بروقَهْ.
فقم يا سيّد الأرض الحكيم، الأرض في
عيد الجلوس، فقم، تقدّم نحوها
واجلسْ على عرش الخليقهْ[55] **(مفاعلتن)**

وهذه الأرض التي توّج جوزف الإنسان سيّدًا عليها ليست الأرض التي تبارى المؤخّرون في تأريخ ما ارتكبه فيها الملوك من مظالم ومآسٍ، وما حفروه من أثلام الدّمع على خدود الأمّهات. وهذه الأرض التي يريدها ليست المعبد الذي حوّله رجال الدين إلى متجرٍ لبيع خداعهم للبسطاء، وتبخيرهم لتيجان الملوك. الأرض التي ترتسم صورتها في مجامره هي الجنة التي يسامرها القمر ويحرسها السلام، وتجود كرومها بالنبيذ.

انهضوا من موتكم، وانتشروا في الأرض،
أيديكم عليها قمرٌ أعينكم فيها سلام،
فمكم سكّرة، أرجلكم فيها نبيذ أبيضٌ
فيها سنونو، واكبروا حتّى يخلّي
كل طفلٍ بعده عكّاز شيخٍ[56]. **(فاعلاتن)**

هوامش

الفصل الأول:

1 - جـوزف حرب: المحبـرة: رياض الريس للكتب والنشـر، بيروت، 2006، ص:135.
2 - المصدر نفسه: 172.
3 - المصدر نفسه: 182 – 183.
4 - المصدر نفسه: 181.
5 - نفسه: ص 183.
6 - نفسه: 250 – 251.
7 - نفسه: 274 – 275.
8 - نفسه: 392 – 393.
9 - نفسه: 524 – 525.
10 - نفسه: 678 – 679.
11 - جوزف حرب: الخصر والزمار، دار الآداب – بيروت 1994 ص: 168 – 169.
12 - نفسه: 115.
13 - نفسه: 82 – 83.
14 - جوزف حرب: دواة المسـك – رياض الريس للكتب والنشر بيروت 2011 – ص: 132 – 133.
15 - جوزف حرب: مملكة الخبز والورد – دار الآداب – بيروت – 1991 ص: 58.
16 - نفسه: ص 61.
17 - نفسه: ص 63 – 64.
18 - نفسه: ص 69 – 70.
19 - نفسه: 74 – 72.
20 - نفسه: ص 74 – 75.

21 – نفسه: ص 78 – 79.

22 – نفسه: ص 82.

23 – نفسه: ص 83 – 84.

24 – نفسه: ص 106.

25 – نفسه: ص 106 – 107.

26 – نفسه: ص 108 – 109.

27 – نفسه: ص 113.

28 – نفسه: 115 – 116.

29 – نفسه: 119.

30 – نفسه: 122.

31 – نفسه: 124.

32 – نفسه: 125 – 126.

33 – نفسه: 128 – 129 – 130 – 131.

34 – نفسه: 175.

35 – نفسه: 176.

36 – نفسه: 176.

37 – نفسه: 177.

38 – نفسه: ص 209.

39 – نفسه: 210.

40 – نفسه: 213 – 216 – 217.

41 – نفسه: 214.

42 – جوزف حرب: أجمل ما في الأرض أن أبقى عليها – دار الريّس – بيروت 2009 – ص: 40 – 41.

43 – نفسه: 108 – 109.

44 – نفسه: 121 – 122 – 123.

45 - جوزف حرب: المحبرة – رياض الريّس للكتب والنشر – بيروت – 2006 ص: 87 – 88.
46 - نفسه: 90 – 91.
47 - نفسه: 93.
48 - نفسه: 94 – 95.
49 - نفسه: 96 – 97.
50 - نفسه: 95.
51 - نفسه: 100.
52 - نفسه: 101 – 102.
53 - نفسه: 103 – 104.
54 - نفسه: 104 – 105.
55 - نفسه: 107 – 108.
56 - جوزف حرب: مملكة الخبز والورد: 232.

الفصل الثّاني:

الشاعر صاحب رسالة كبرى

1 - الشعر هو الكتاب الديني للكون

2 - رسالة الشعراء سد النقصان في الخلق

3 - الشاعر المبدع يعمل على اكتمال فكرة الله

4 - تمثّل الجوهر الشعري بمشاهد حسّيّة

الفصل الثّاني

الشاعر صاحب رسالة كبرى

1 - الشعر هو الكتاب الدينيّ للكون:

في العصور الأولى، كان الشعر يكتفي بتصوير الواقع كما هو، وكان الشاعر آلة تصوير، ثمّ أصبح الوسيلة الإعلاميّة للقبيلة، وبعدها صار مدّاحًا، على أبواب الملوك، والخلفاء، والأمراء.

إنّ الشعر الذي ينفخ فينا روح التحليق إلى البعيد، هو مفتاح المغامرة الكبرى، نحو الفتوحات الفكريّة، لفهم هذا الكون ومعناه، وقيمته بالنسبة للإنسان، في حياته ومماته. ثمّ يأتي دور الإنسان في البحث عن كيفيّة الطريقة المثلى لتحقيق وجوده. إنّها مهمّة مرهونة بمستوى معرفته، التي وحدها تؤهله وتسمح له، بتحقيق هذا الوجود كما يريد وكما يرغب. فكلّما زادت معرفته، زادت قدرته على التغيير، وكلّما فقد هذه المعرفة، غرق في الجهل والتخلّف.

ولكن الشعر بطبيعته يوحي، ويشير ويكون كشفًا، ومضةً، رؤيا أو سؤالًا يمسّ سرًّا غامضًا. إنّ الشعر يعطينا أجنحة ولكنّه لا يحكم ولا يحسم، ولا يفسّر ويجيب ومعظم أجوبته أسئلة.

ويفتتح جوزف حرب «كتاب الشعر» الذي يتصوّره الكتاب الديني للكون بقصيدة تقدّم لنا صورةً عن هذا الشعر ودوره في حياتنا. إنّه الشعر الذي: [الوافر والقافية من المتواتر]

أبى ما يَرْتضيهِ الدّينُ منكُم أسـلطانًا يُسـمَّى أو جوابا

لهُ أُفْـقٌ، ولكنْ لا عروشٌ بِهِ، أو تـاج ملكٍ أو حِرابا

كأنَّ الملـحَ طينتُـهُ فلمّـا رأى أنَّ السـؤالَ الماءُ ذابا

ألا زُرْني، يقولُ الشِّعرُ إنّي كَمَنْ سَكَنَ العشيَّةَ والضَّبابا

وما الأشياءُ؟ تلحقُ بي ترابٌ؟ يكونُ معـي جناحًا لا ترابا

وتغدو قارئًا ريحُ الأماسي ويغدو الغيمُ في يدِها كتابا

أُجمِّلُ ذا الوجودَ كأنَّ بيني وبيـنَ دواةِ خالقـه عتابا[1]

إنّ الشعر يأبى أن يكون شاهد زورٍ على ما يقترفه رجال الدين من تحريفٍ وتوظيفٍ للدين لفرض وصايتهم على الناس فيصادرون عقول البسطاء ويبيعونهم الوهـم مقابل الذهب وهذا ما قامت به الكنيسـة فـي الغرب عندما أخذت تبيع الناس صكوك الغفران، وما قامت به المنظّمات الإرهابيّة من قتل للبشر والحجر باسم الدين.

إنّ هذا الشعر برق يشقّ الغيب، ويدخل إلى كنهه، وأسراره ولا يأبه بمغريات السلطة وما فيها من مكاسب وجاه. إنّه عصارة إنسانيّة شفّافة، تتذوّقها الأرواح، وتنتشـي بطعمها وتذوب فيها، كما يذوب الملح في الماء لتصبح كيمياء كونيّة، قادرةً على اختراق الحجب التي تمنع الرؤيا عن العقول والنفوس.

إنّ الشاعر المبدع في كتاب الشعر يقرأ لغة الطبيعة ويفهم أحاديث عناصرها وكائناتها ويتسـاءل أمام الله ويعاتبه لأنّه يسمح للطواغيت استعباد البشر وسفك دمائهم دون ذنب، ولا يعاقب الأغنياء والتجّار والمرابين على جشعهم في الدنيا

حتّى يكشف الضرّ عن البائسين.

ويتابع جوزف حرب قصيدته قائلًا: [الوافر والقافية من المتواتر]

أضافَ إلى الحقولِ الكَرْمَ، لكنْ　　أضفْتُ أنا إلى الكرمِ الشَّرابا

غموضي؟ الشمسُ غابَتْ! ليس موتًا　　إذا في البحرِ قرصُ الشَّمسِ غابا

فشمسي داخلي لكنْ عليها　　جعَلْتُ سوادَ ليلتِها ثيابا

ويرتكبُ الخطايا الدّينُ حتَّى　　إذا ما الدينُ عادَ إليَّ تابا

لقدْ عشْنا أنا والسِّرُّ حسبي　　يدًا. والسرُّ؟ حَسْبُ السِّرِّ بابا

فأفتَحُهُ وأدخلُ، ثمَّ أمضي　　كأنَّا لا سألْتُ، ولا أجابا

وبي نغمٌ، كأنَّ رعاةَ أُفْقٍ　　بِعيدِ الماءِ، أهدوني السَّحابا[2]

الشاعر المبدع لا يكتفي بمحاكاة الطبيعة، بل يكتشفها ثمّ يضيف إليها، الغموض في الشعر لا يعود إلى سوء الرؤية، ولكنه صفة من صفات النفس، التي يصدر منها والتي تخزّن في لا وعيها دوافعه، ولغته ورموزه، فالشاعر ينظر إلى محيطه بعينه الداخليّة، وليس بعينه البصريّة. الشعر لا تخدعه تعاويذ رجال الدين، وخرافاتهم لأنّه وجد، ليدخل إلى لبّ الأشياء، وليس الإكتفاء بمظهرها الخارجي. إنّه من هواة الجوهر لا المظهر وهذا ما جعله قادرًا على اختراق الحجب، ويرى الأشياء بحسّه الشفّاف، وأسلوبه المندّى برذاذ الأناقة والجمال.

الشاعر في كتاب الشعر من يصف لنا الغد الآتي بنبوءته، واستشرافه من يقوّم اعوجاج القوس، من تكون جراحه حرّة كالنور، من ينام فوق عشب الأرض، أو

في كوخ بين الأشــجار، أو تحت برقٍ لغيم الليل يكون أجمل من ســرير القصر، والديباج والذهب المشعّ، وحيث يكون القرب منه كقرب السوسنة من الينبوع، وكان البرق في خياله بيت شعرٍ، والدين في عقيدته بيت فقيرٍ أو كما يصفه جوزف حرب: [الوافر والقافية من المتواتر]

وما الشــعراءُ؟ لا كُهَّــانَ فيهم ... مضوا للكونِ ذاتَ مسًا وضاعوا

رأيْــتُ مرورَهُمْ فــي أيِّ أرضٍ ... كمــا مــنْ غيمــةٍ مَرَّ الشُّــعاعُ

أيا شــعرُ القميــصُ عليكَ مِلْحٌ ... وهَبُّ الريحِ حلْمُكَ والشِّــراعُ

رأيْــتُ الدينَ قربَكَ حيثُ أبهى ... لقــاءٍ كان بينكُمــا الــوداعُ[3]

القاموس وعاء فيه الكلمات عظام بلا شــحم ولحمٍ يأتي الشــاعر المبدع فيصــبّ عليها مــاء خياله فتصحو من رقادها وتصبح أغصانًــا تغرّد عليها اللغة عصافير، وفراشات، وغيمًا ومطرًا، وريحًا، وشمسًا تطرد العتمة وتتوضّأ بالنور:

لا دورَ للشعراء إلّا
أنّهمْ
قدْ أشعلوا الفانوسْ
كي يُخرجوا الكلماتِ
نحو شموسِها
من عتمةِ القاموسْ[4]

ورأى جــوزف حــرب أنّه لا يمكن فــي هذا الوجود، للكاتــب والمثقّف والشــاعر، أن يكون صادقًا ونافعًا إلّا بعيش كلّ منهم لعطاءاته فعل مراقبةٍ لكل

ما هو سلطة، سياسيّة كانت أو إجتماعيّة أو دينيّة، وفعل متابعةٍ لأعمالها، ومحاسبة لها على هذه الأعمال ونتائجها.

أمّا الشعر عنده، فهو جماليّة كلّ هذا وروعته الفنيّة. ومن هنا يتكوّن الشعر، ضمــن هــذه الرؤيا، فعل عيــشٍ جماليّ، وفنّي ملتزم بالحيــاة وأمورها وجميع شجونها، مع إضافة خاصة تميّز بها جوزف حرب، هي الأناقة المحبّبة والمذهلة، المترفة بما فيها ولكن غير المتكلّفة.

عــاش جوزف حرب اللغــة العربيّة، بفصيحها ومحكيّها، مســؤوليّة وعيٍ جماليّ حضاريّ، فكانت العربيّة تنبع من قلم شاعريّته مكسوّة بآيات سموّ الرؤيا، معطرةً بعبق بخور الجمال، متوّجةً بآفاق الإبداع والدخول إلى عوالم سحره.

لم يتعامل جوزف حرب مع اللغة إلّا ضمن هذا الإحترام، ومن خلال تلك الرؤية المسؤولة التي اختطّها لفاعليّة الكاتب والمثقّف. فكان في شعره، إضافة نوعيّة إلى العطاءات الكبرى التي قدّمها للعربيّة كبار مبدعيها وعظماء فنّانيها.

كان الشــعر لجوزف حرب روح الحياة التي يعيشها، وجوهر الوجود الذي يطلّ منه على الدنيا بتاريخها وناسها وأزمانها.

الشعر هو قدس أقداسه، سخّر له كل ما لديه من قدرة وبراعة وثقافة وكيان. الشعر هو السرّ المحيي، وهو كأس قربان الرسالة التي ندب نفسه لها، ونذر حياته ليسقي العطاش ارتواءً منها لوجودهم.

وظــلّ جوزف يصدر الديــوان تلو الديوان، مالئًا محبــرة الحياة من روعة فيوضات الروح، وغنى الدم المعطاء. وجوزف من الشــعراء القلائل ممّن تفرّغ للشــعر والقصيــدة ليفرغ بهما في محبرة الحياة كل مــا يمكنه مما اختزنته ذاته،

وحملته رؤاه، وأبدعته فنيّته الشـــعريّة من جواهر في المضمون وزخارف شـــفّافة في الشكل.

وأبى جوزف حرب قبل رحيله إلّا أن يثبت لنا بأنّه مسيح الشعر الذي ارتفع بقيامة القصيدة إلى أســـمى ما في رحاب الســـموات من عطاء وجمال، ووعي وصدق، خلاصًا للإنسان الذي آمن بوجوده إيمان حقٍ والتزام(5).

وكان لا بدّ لهذا الشـــاعر الكبير الذي ألزم نفسه بتقديس الإنسانيّة بوجودها وكرامتها، من أن يعمل على وصول الأمانة بأروع ما يمكن للأمانة أن تصل بها. وهكذا صار جوزف حرب هو الشعر بعينه، وهو القصيدة بذاتها. وهو الذي ترك لنا إرثًا أدبيًا رفيعًا تلتمع فيه الأصالة، ويزخر بالعناوين الإنسانيّة والفنيّة. قصائده شغلت الناس ولفتَهُم ما فيها من إبداع، وسحرهم ما ركّبت فيه من قوالب الأناقة والدقة، وما تتضمّنه من الجواهر الفكريّة التي طالت كل المساحات الإنسانيّة.

فهو يقول عندما يهجره الشعر:

عندما تُطفأُ في قلبي قناديلُ المطرْ
ورياحُ الورقِ البيضاءُ تُلقي نايَها
فوق حصى العينين في جدول دمعي
والشجرْ
يرتدي قمصان نومٍ، ثمّ يغفو، بعد أن يتركني
في آخر الليل وحيدًا، ليس في بيتي إن أحببْتُ
أن أسهرَ نارٌ أو قمرْ[6] (فاعلاتن)

إنّ الشعر الذي يدخل في كتاب الكون، عند جوزف حرب، هو الذي يدعو إلى

السلام، والعدل، ويرفض الظلم والطغيان، ويقدّس حريّة الإنسان، ويحترم الأرض التي تحتضن جميع البشــر، مهما اختلفت أجناســهم وألوانهم لأنّ الأرض أمٌ لا تفرّق بين أبنائها ولا تقبل أن يكون عليها سيّدٌ وعبدٌ وقوي وضعيف وغني وفقير:

يئسَتْ في الأرضِ
من نشرِ جناحيها الطيورُ
وتمنّت لو يجفّ الماءُ
في وديانها الزرق البحورُ
وعلى عكّازِها تمشي الشهورُ
وحروبٌ ومجاعاتٌ وصلبانٌ ونيرُ
وحِرابٌ فوق تفتُّحِ الجراحاتِ تسيرُ
رغم أيدي الرسلِ البيضِ وثوارِ العصافيرِ
وما قدْ أطلَعَتْ من قبَضَاتٍ تحملُ الشَّمسَ العصورُ
لم يزلْ يكثرُ فينا العبدُ والقرصانُ، واللصُّ
وتاريخُ المآسي والفقيرُ
فلماذا الأرضُ ما زالت تدورُ[7] (فاعلاتن)

إنّ الأرض من طبيعتها العطاء، وكل ما يحيط بها من الكون، مسخّر لخدمتها، حتّى توفّر لســكانها المأكل، والمشــرب، والجمال، ولكنّ الإنسان عبر تاريخه الطويل، لم يقدّر ولم يفهم لغة الأرض بل خانها واســتعبد أخاه الإنسان وسرق قمحه وخبزه وتركه فريسة للجوع والمرض والفاقة.

وهذا ما استفزّ جوزف حرب، وقال: «فلماذا الأرض ما زالت تدور؟ إنّ هذا السؤال يحمل في طيّاته خيبةً وعتبًا. الخيبة من الكائن البشري الذي ملأ الأرض

طغيانًا والعتب على الله الذي لم يزلزل هذا الكون حتّى ينهي هذه المأساة.

ويمضي جوزف حرب وصفه للشعر الذي يستحقّ أن يدوّن في كتاب الكون. إنّه الشعر الذي يصدر من نفس ٍنقيّةٍ، وفيه الخيال البعيد المشع بألوان الشفق، والكلام المغطّى بستائر من الضباب، إنّ الورق الأبيض تراب ينبت فيه القول معطرًا بالعبق، ومذوّبًا بحبر القلق:

مَهيبٌ بياضُ الورقْ
إذا ما رغِبْتَ إلى الخطِّ فيه، تهيَّبْتَ لون البياض
كأنّ البياض شريك الكتابة، أو قارئٌ ناقدٌ
يستحقّ التفكّر فيه لتأتي الكتابةُ...
أجملَ... أعمقَ
يا للورقْ
أفكّر فيه كأنّي أكتب شعري له. أو كأنّي به
ليس يرضى سوى الصورِ الرائعاتِ وغيرَ
الخيالِ المشعِّ بلونِ الشّفقْ.
ويعجبه في الكلام غموض الغَسَقْ.
ترابٌ إذا أنبت القول أجرى عليه العَبَقْ
ويا للورقْ
تذوب عليه دواةُ القلَقْ[8] (فعولن)

والقصيدة في كتاب الكون، قامةٌ يجلّها، ويهابها القارئ لما فيها من القوّة والجلال، وعظمة القول والمعنى، وما توحي به من الظلال والأطياف:

وقصيدتي هي قامةٌ مَلِكٌ

عليها أرجوانُ وشاحِ
ومطرّزٌ ببنفسجٍ وأقاحِ[9] (متفاعلن)

إنّ الشـــعر الذي يريده جوزف حرب دينًا للكون هو الذي يتحدّر من شــجرٍ شرس، وصخور غامقة، وينابيع كمهرٍ بريّ. الشاعر في هذا الشعر من كان ضباب الوديان بخوره، وندى العشـــب دموعه، وأصابع زيتون الليل شـــموعه، وعصاه الخريف، والبجع الراحل عند غروب الشّمس قطيعه.

وهذا الشـــاعر يستمد جماله من عناصر الطبيعة، ومن قسوة الغموض الذي يغطّي معظم الكائنات:

أتحدّر من نَصْلَةِ برقٍ، وحِرابِ عواصفَ شُكَّتْ في خاصرةِ
البحرِ. لماذا تسكنني الوردةُ والسنبلةُ الملأى بدنانيرِ
الصيفِ إذنْ؟
ولأيّ ملاكٍ ترجع منجيرةُ هذا العصفورِ بروحي؟
ومتى احتَضَنَ المطرُ العازفُ قلبيَ عودًا للماءِ
المتساقط من أيلول ضلوعي؟
ولا شيءَ جميل في الأرض وليس ضعيفًا.
وهل خيط النور الداخل في إبرة هذا الظلّ
تحدّر إلّا من كَبَّة هذا اللهب الكونيّ؟
أليس شتاءٌ يشبه مُهْرًا بريًّا خلف
تفتُّحِ زرّ بنفسجةٍ؟!
إنّي أُصغي لنحاسِ الرَّعْدِ، وألمحُ وَمْضَ
رماح البرق الدامي، وأنا أتأمّل عشبَ ربيعي[10]

وهذا الدين الذي يدعو إليه جوزف حرب ما هو إلّا الدين الإلهي الحقيقي قبل أن يحرفه رجال الدين حتّى يتكيّف مع مصالحهم.

وشعراء هذا الدين يردّدون:

نامي، مآسي الأرض

نامي في فراشي واحلمي

أنْ لا جراحَ، ولا دموعَ

ولا خرابَ، ولا مجاعةَ

أو مجازرَ فيكِ، بل سفرٌ

بمركبةٍ يقودُ جِيادَها

البيضَ السلامْ[11] (متفاعلن)

وهـذا الدين ينادي الأمم والشّـعوب بإنزال الأرض عن صليب الحروب، وتضميد جراحها من أسنة الرماح بعطر الأقحوان وماء الورد والياسمين:

مدِّدوا الأرض لي على أقحوانِ

أسْعِفوها بسُكَّرٍ من سلامٍ

وانْضَحوا وجهها بإبريقِ قمحٍ

جسدُ الأرض فوقه أرجوانٌ

من دمٍ

وكم نصلٍ من الغيب؟

كم نصلٍ من التاجِ؟

من برابرة الروح؟

ومن زارعي المجاعاتِ.

قومي: (الخفيف)

خَصْـــرُكِ الهفُّ زنَّرَتْـــهُ الأقاحُ　　　وســـقى نهدَكِ البياضَ الصباحُ

وبمشـــطٍ مـــن الســـنونو رخيٍّ　　　سرَّحَتْ شـــعرَكِ الطويلَ الرِّياحُ

وبرجْليـــكَ ليسَ خُـــفٌّ حريرٍ　　　طرَّزَتْـــهُ يدُ المســـا، بـــل جناحُ

والمجاعاتُ صِرْنَ فيكِ عذارى　　　سُـــنْبُلاتٍ بكفِّهـــنَّ الرِّمـــاحُ

فانهضي. صِرْتِ قامةً من غصونٍ　　　فتَّحَ الـــوردُ فوقَها لا الجراحُ(12)

هكذا يكون الشعر الحلال في الكتاب الديني للكون. إنّه الشعر الذي يدعو إلى إقامة العدل، وتحرّر الإنسان من قيود الإذلال، وسيطرة القوي على الضعيف، ويكون الشـــاعر فيه رائيًا، تلتمع الرؤى في مخيّلته، ثاقبةً كل الحجب، مستشرفة الغد الجميل مهما كان الحاضر معتمًا، وكلّ ذلك، في انسياب فنّي أنيق، تنجذب الروح إليه، وهي غارقة في أمواجٍ من السحر.

الشعر الخالد هو الذي يصبح من صفحات التاريخ، تردّده الأجيال لما فيه مـــن الروائح، ومـــن النكهة التي تزداد تذوّقًا في خوابي الزمن. وهذا الشـــعر لا تخدعه كثرة القراء في حياة صاحبه، يكفيه قليل من القرّاء في كل زمنٍ: [الكامل والقافية من المتراكب]

لا قيمـــةٌ للشـــعر باقيـــةٌ　　　إن كان غيمًـــا مـــا بِهِ مطرُ

فـــإذا أتيْـــتَ دواةَ روعتِـــهِ　　　إنْ بالنبيذِ الشـــعرُ يُختصرُ

صورٌ كأجنحةِ الطيورِ على　　　ورقٍ كهذي الريحِ تنتشـــرُ

لكأنّما الأشـــياءُ قدْ وقَعَتْ　　　وأتَتْ لتُرجِعَ شكلَها الصورُ(13)

الشعراء في الكتاب الديني للكون يؤمنون بأنّ الحريّة مفقودة على الأرض. ليس من حرٍّ في الأرض. في الأرض قيود وعبيد:

عندما حطَّمْتُ قيدي ما رميتُهْ
من دمٍ غير دمي عدت سقيتُهْ
لست أدري كيف ناداني من الأعماق طاغٍ،
لم يكن إلّا أنا
لَمَّتْ يداي قيديَ المكسورَ كي أجعلَهُ قيدَ سوايا
ليس من حرٍّ ومن حريّة في الأرض.
في الأرض قيودٌ وعبيدُ[14] **(فاعلاتن)**

لا حاكم في الأرض عادل. كلّ الحكّام قديمًا وحديثًا مارسوا شهواتهم ولذاتهم بشفرة السّيف. كلّهم سفكوا الدماء وبنوا قصورهم من عظام شعوبهم:

لا حاكمٌ مارس عدلًا.
إنّما مارس في سيفٍ له
لذائذَهْ
فقد أضاء ليله من ذبح شعبٍ
دمه كفضة القمرْ
لا حاكمٌ إلّا بنى مقبرةً لشعبه
إذ وضع الحجرْ
حيث تكون النافذهْ[15] **(مستفعلن)**

2 - رسالة الشعراء سدّ النقصان في الخلق:

لا تولد الكائنات عبثًا، إنّها تضجّ بمعانٍ غير مرئيّة، ولا تدرك بالحواس. فإن أرادت أن تكشــف عن معانيها تبدّدت، وذابت في دواة الشــعراء الذين يتلمّسون روحها، ويتفاعلون مع جوهرها، ويكشــفون لنا كنهها، وبذلك يسدّون النقصان في الخلق:

لا تولد الأشياء إلّا وهْي ملأى
بمعانٍ لا تُرى
كأنّها قد ولدت في صفحةٍ بيضاءْ
لا تولد الأشياء إلّا وهْي لا صوت لها
فإنّها خرساءْ
فإن أرادت كشف ما بروحها
تبدَّدَتْ
ثمّ استقرَّتْ في دواةِ الشعراءْ[16] (مستفعلن)

الرؤيا الشــعريّة تنقل الشــاعر من المحدوديّة إلــى الكونيّة. وهذا الانتقال يجعله ينظر إلى الأشــياء بحدســه لا بحواســه، وهذا الحدس يقرّبه منها، حتّى يدخل إلى مبرّر وجودها، ويتعامل معها كأنّها كائنات آدميّة، تفرح وتحزن، تبكي وتضحك، تصمت وتصرخ... وهنا يرتكب الشاعر الخيانة العظمى بحق المعاني التقليديّة المحدودة.

عندما تنقل وردهْ
من دواوين البراري

للقصيدةْ

تصبحُ الوردةُ عمَّا أصبحَتْ في النَّصِّ

لا ظلَّ لها ولا أثرٌ

تغدو وحيدهْ، وبعيدهْ

فالأمانة تقتضي في الشِّعرِ

أن يرتكبَ النَّصُّ

الخيانهْ[17] **(فاعلاتن)**

ويذهب جوزف حرب في شعره الكوني بعيدًا فيرى الشعر الصوفي ذا أفق مغلق لأنّ الشاعر الصوفي يبقى سجين عبارته التي تقيّده بمعنىً واحدٍ بينما الشعر الكوني حرّ طليق غير مقيّد:

تبني يدُ الصوفيِّ في الروح العبارةَ

ثمّ يسكنُها.

عبارتُهُ منازلُهُ الأخيرهْ

لا منزل للشعراء قد يدعى أخيرًا.

كلّ شيء فيه حُبْلى

لا نهاية للتوالدِ.

وما الصوفيّ إلّا ساكنٌ في منزلِ قدْ صار سجنًا

ليس يخرجُ منه

إلّا ساكنٌ شجرًا بلا أغصنْ

لكنّما الشعراء بنّاءٌ، ولكن روحه

تبني ولا تسكنْ[18] **(متفاعلن)**

إنّ الفارق بين الشــاعر الكونيّ والصوفيّ روحيٌّ شــعريّ. لا تخرج روح الصوفي الرائي عن دائرة المعبود والعابدْ، أمّا الشاعر فيملك للمعنى الواحد في مجراه رموزًا، لا تحصى. والصورة في الصوفي إشــارةٌ واحدةٌ، وعبارةٌ واحدةٌ، لكــن الصورة عند الشــاعر خِصْبٌ في صُوَرٍ أرقى. الصوفــي يملك قيدًا، لكن الشاعر يملك أُفْقا. الشاعر متمرِّدُ كونٍ، أمّا الصوفيُّ فيملك سجنًا يُدعى الشوقَ ومسجونًا يُدعى العشقَ.

الشاعر الرائي في وهج رؤياه يشعر بأنّ وحيًا قد هبط إليه من السماء، وعندها يتساءل: ما الكون؟ وما هو هذا الذي لا نراه؟

ويخاطب جوزف حرب الشــعراء طالبًا إليهم أن يطردوا أحزانهم ويهجروا أمراضهم ليعبروا بالناس نحو الزمن اللآتي المليء بأجراس الفرح:

يا شعراء الأرض،
لو تُلْقونَ ما اسودّ عليكم من مسوحٍ
واهجروا أمراضكم كي لا تموتوا
واعبروا بالناسِ نحو الزمنِ الآتي
وأجراسِ الفرحْ
فوحدكم في هذه الأرض، أناشيدُ غدٍ. أشعاركم
وجسدكم قوس قزحْ[19] **(مستفعلن)**

وحبر الشعراء عند جوزف حرب، هو رماد الحق الذي أحرقه الباطل، وقلم الشاعر الأبيض، وحده، الذي يعيد الحق للمهمّشين في الأرض، وما أكثرهم!

قتل الباطل في الليل الحقَّ

وأحرقه حتّى صار

رمادْ

جاء القلم الأبيض، حوّلَ

كلَّ رمادِ الحقِّ

مِدادْ

فإذا ما فتّش أهل الأرض عن

الحقِّ، فلن يجدوه طوالَ الدَّهرْ

إلّا في الحبرْ(20)

إنّ الشاعر المبدع يلاحق لصوص الأرض الذين يمتصّون رحيق الجياع والمظلومين، ويلملم خطى المهمّشين ويسقيهم من كأس معرفته ووعيه ليخرجوا من ظلام الجهل إلى النور ولا يبقي في خابيته إلّا الألم الذي يكوي مجامره لما يراه من بطش الطغاة في الأرض: [الوافر والقافية من المتواتر]

أُلَمْلِمُ في الطريقِ لكم خطاكُمْ ... وأجعلُ زادَ راحلِكُمْ جناحي

وأشربُ ليلَكُمْ منكمْ ولكنْ ... لكيْ أسقي سكاراكُمْ صباحي

وهلْ لشراعِكُمْ في الأُفْقِ خَفْقٌ ... إذا لمْ تسْتقرَّ بِهِ رياحي

وهبْتُ الأرضَ راياتي وتاجي ... وما أبقيْتُ لي إلّا جراحي

رسمْتُ لها الشّفاهَ منَ الخُزامى ... وكُحْلَ المقلتينِ منَ الأقاحِ

وبي مَلِكٌ له في التاج رمحٌ ومحبرةٌ يلاحق في

الليالي لصوصَ الأرضِ، مغتصبي يديها. ومن لم يفهموا

بلسانِ حبرٍ،

فقد فهموا

بألسنةِ الرِّماحِ[21]

وفي «نص السماء» من ديوانه «أجمل ما في الأرض أن أبقى عليها» يخاطب جوزف حرب الله سبحانه وتعالى: لقد آمنْتُ بك يا ربّ، وصدَّقْتُ كلَّ الأنبياء، الذين أرسلتهم لكي نهتدي، ولكن أين الخلاص، الذي جاء من أجله الأنبياء؟ المذابح أكثر! بطون الكنائس والجوامع والمعابد صارت قاعاتٍ واسعة، وحولها يطوف الجائعون!

أمرَعَتْ هذه الأرضُ قتلى

ولمّا وُلِدْتُ بنيْتُ ضريحًا

ولم أبنِ بيتًا

ثكالى هي السنبلاتُ

وما الزرع إلّا جراح، ولا شيء

يصعد منها سوى الروح. يا

أيّها الله أرسلت ألف رسولٍ إلينا

لماذا؟

وكلّ رسولٍ هدانا إلى الحبّ. أين هو الحب فينا؟

وكي لا نناقش يا ربّ قلت لنا العقل فيكم كي تهتدوا.

إنّما المرء حرّ. وتحمل فيه الإرادة خيرًا وشرًّا

وإنّ الحياة اختيار.

لماذا إذن جئت بالمرسلين إلينا؟

لماذا إذن نحن نحيا ولا شيء في أرضنا غيرُ لصٍّ
وطاغٍ، وعبدٌ جبان؟
لماذا إذن جئت بالمرسلين إلينا؟
لماذا إذن نحن نحيا ولا شيء في أرضنا
غيرُ لصٍّ وطاغٍ وعبدٍ جبانٍ؟[22] **(فعولن)**

إنّ قامــةً فكريّــة بوزن جــوزف حرب، تطرح هذه الأســئلة، على الله جلّ جلاله، لا نعتقد أنّ جوزف حرب يريد الإجابة عليها من الله، لأنّه يعلم مســبقًا، بــأنّ الله يراقــب ويدوّن فــي الألواح أعمال كل كائن بشــري على هذه الأرض وما الحياة الدنيا المحدودة لهذا الكائن، ســوى اختبار له، قبل الإنتقال من دار الفناء، إلى دار البقاء. لذلك نعتقد بل نجزم بأنّ هذه الأســئلة هي بمثابة أدعية، يرفعها جوزف حرب إلى الخالق العظيم، ليخلّص البشريّة من الطغاة والمجرمين والمســتبدّين، ورجال الدين الذين اتخذوا من الله وسيلة، شرعية لخداع البسطاء الذين يشكّلون السواد الأعظم من البشر، في كلّ زمان ولكن جوزف حرب بعد كلّ هذه الأســئلة، التي راودته في ذروة شــكواه، يعود ويعترف بأنّ مصدر الخير والشر ينبع من الإنسان. فهو بعقله وحكمته ومعرفته وخبرته ونتيجة التفاعل مع الطبيعة، والأرض، والناس يصل إلى المقدرة الوجوديّة، على فرز الخير والشر. في كلّ منّا كاهن وطاغٍ، في كلّ منّا رســول وشــيطان، قاضٍ ومجرم، عبد وسيّد، جريء وجبان.

وما بين أني طاغيةٌ وجبانٌ
تحوّل جبني عبدًا، وطاغيتي
قاتلًا فصلبْتُ الجميعَ قتلْتُ الجميعَ

جبانٌ أنا طاغيةْ

ولسْتُ براضٍ بروحي

ولا هي بي راضيةْ[23] (فعولن)

يا ربّ، سرقك الملوك والطغاة والكهّان والتجّار والحكّام والإقطاع وحاشية الذباب التي تطنّ حولهم. وكلّهم موجودون في داخلي أنا من يوقظهم إذا أردت شهوة الملك والقتل والخداع والجشع والسلطة والإستغلال والفتات.

ونِمْتُ قليلًا،

تحرَّكَ بي نائمٌ قد أفاقَ

فأدركْتُ أنّ الذي قد أفاقَ

هو اللصُّ بي، فأضفْتُ إلى ما أنا،

مَلِكًا فوق عرشٍ

وكاهنَ دِينٍ

دخلْتُ عليكَ ولصّي فيَّ،

وجدتُكَ تنعمُ في غفوةٍ

ما أفقْتُكْ

مدَدْتُ يدي وسرقْتُكْ[24] (فعولن)

غريبٌ هذا الكائن البشـــري في ســـلوكه، وتصرّفاتـــه، وأحلامه يذهب إلى الســـراب، وهو متيقنٌ أنّه سراب. يكدّس الذهب والفضّة، ويعلم أنّه سيزول عن وجه الأرض حتمًا، ويضع التاج على رأسه، ويعرف أنّه بعد حين سيصبح طعامًا للديدان، وحفنة من التراب. يتعمّم بجبةٍ بيضاء أو سوداء، ويرخي لحيته، ويطرّز مواعظه بآيات الله، وينهى عن الفحشاء والمنكر وهو أوّل من يرتكبهما:

وخِفْتُ مع الموت أن تنتهي شهوات بقائيَ حيًّا
وضعْتُ سماءً بلا أيّ موتٍ
وضعْتُ جحيمًا يصير إليها الذين سيعصوْنَ أمري
وأمري هو اللصّ فيَّ
لأنّ الذي أمنع الناس عنه أمدُّ يديَّ إليهِ
برغبةِ لصٍّ.
وأكذبُ. أكذبُ
كم مجرمٍ فيَّ؟
أعجز عن عدِّ ضحاياي كي أعرف العددَ اللانهائيَّ
من زحمة المجرمينَ بروحي.
وَوَيْلٌ لَدَيَّ لِمَنْ قال:
لا إنّها السُّنْبُلَهْ
وما قد تبقّى لها مِقصلَهْ[25] **(فعولن)**

إنّ هـذا الخلـق فيه كثير من النقصان، وفيه كثير مـن نكران الجميل، وفيه كثير من الزندقة. الفلّاحون الذين يمشّطون الأرض بأصابعهم، والكادحون الذين يغزلون بحدقات عيونهم الخز والحديد، والمفكرون الراؤون الذين يكتشفون النواقص في الخلق، ويحـدّدون مواضعها... إنّ كل هؤلاء محرومون من ثمار عرقهم، وعطر فكرهم، ويقودهم حصانٌ وتاج، وجبة وسمسار!

أَتَوْا
حاملينَ البنفسجَ، والسنبلاتِ. عليهم وشاحٌ
من المِغْزَلِ المشرقيِّ الذي لا تُحاكُ على نَوْلِهِ

غيرُ أوشحةٍ بأكفّ السكينةِ
لا فمَ فيهِمْ
ولكنْ صلاةٌ
وليس لديهم أكفٌّ
ولكن حمائمُ بيضٌ.
وفي وجههم مسحةٌ من مساءِ الحكيمِ.
إذا ما جلسْتَ إليهم شمَمْتَ روائحَ
أعمقَ من سوسنات الطحينِ
وفَوْحًا غريبًا عن الأرض قد لا يكونُ
سوى بعضِ طيبِ خزامى السماءِ[26] (فعولن)

إنّ هؤلاء قد آلمتهم الأرض كثيرًا، وهم الذين أحبوها، وحضنوها بأرواحهم، وغسّــلوها بدموعهم، ودافعوا عنها بدمائهم، وحفروا تاريخها بقبضات إيمانهم، ووفائهم، وزهدهم، فما غرّهم ذهبٌ ولا تاجٌ:

فما غرّهم ذهبٌ.
أو رأَوْا أنّ تاجًا
أحبُّ إليهم من الظلِّ
لا شيءَ أطيبُ من كَسْرَةِ الخبزِ بين الجميعِ
وأنّ الشّفاهَ توحِّدُها قطرةُ الماءِ
والطيرُ ليست بأجنحةٍ بل بأيدٍ
وهذا الغروب لِلَمْسةِ حبّات ذي السُّبَحَاتِ
وليس لمسح جبين الدنانيرِ.[27]

ولم يغْرِهِمْ جسد أو بريقٌ.
وقد غسلوا الأرضَ بالدّمعِ
ثمّ أسَلْنا دماهم عليها!!![28]

إنّها المأساة على هذه الأرض، فمن عمّرها ووهبها فردوسها لم يستحق منها إلّا القبور. ولم يتمتّع بهذا الفردوس إلّا الكهّان الذين بنوا دولتهم على الأرض، بسـواعد المتعبين، وإذا اشـتكى هؤلاء المتعبون، يقول لهم الكهّان: اذهبوا إلى السماء ونحن لنا الأرض!!!

ويسأل جوزف حرب: أين تلك السماء على الأرض. لقد أقام الكهّان على الأرض دولة فطوّفت النار في كل ما كتب الأنبياء.

وعادت إلى الأرض أصنامها:
لقد سحرَتْ هذه الأرض كهّانَ كلِّ النبيينَ.
قاموا بممحاتهم ومحَوْا نصّ فردوسها.
ثمّ خطّوا لها دولةً هي نصٌّ لذي حجرٍ
شُكَّ فيه جناحٌ
أيا آدم الأرض، حوّاؤك الأرضُ
أغوَتْكَ في أكلِ تفّاحةِ المُلْكِ.
أنت افتتَحْتَ خطيئةَ هذا التناسلِ
بين العروشِ[29] **(فعولن)**

ويغلق جوزف حرب ستار نصه بالتخلّي عن الفردوس الموعود بعد الموت، وعن الكهّان الذين يبشرون الناس بالجنّة إذا قدّموا لهم الطاعة العمياء:

سأحذف جسر عبوري، ودينونتي، وفردوسَ

ما بعد موتي، وكاهنَ ديني

وأُبقي على صفحة الأرض

نَصَّ السماءْ[30]

لقد عاث الإنسان في الأرض خرابًا، وفسادًا، وزنابها، ولم يعترف بخطيئته، ولم يعترف بالجنين، بعد اغتصابه لها. ولم يكتف الإنسان بذلك، فتابع تغوّله، فأذلّ الأرض بسيفه، وخان عطاءها... خان تينها، وزيتونها، وخمرتها، وعطور وردها، وحشا جوفها بالضحايا وتوّجها بالنار، وهذا ما يؤلم جوزف حرب، ويدعونا إلى التوبة، والإعتذار لها عمّا اقترفناه بحقّها من آثام، علّنا بذلك، نكفّر بعض ذنوبنا، نسدّ هذا النقصان.

أركض نحو الأرض

خلفي تركض الأشجارْ

أركض نحو الأرض

خلفي تركض الغابات

والأنهارْ

لا أحدٌ مثلي يحبّ الأرضَ

لا الغيمةُ، ولا العصفورُ

لا الشّمسُ ولا

البحارْ

لكنّني رغم بهاءِ الأمِّ والمرأةِ فيها، لم أكن فارسَها. أذْلَلْتُها بالسّيفِ، خُنْتُ الوردَ والزيتونَ في بيتِ يَدَيْها.

حَمَّلَتْها ريحُ راياتي ضريحًا ودمًا
توَّجْتها بالنار
لن تكفياني ركبتايَ للركوعِ،
أو يدايَ للصلاةِ. ليتني كنْتُ
بنهرٍ موجةً أو
حجرًا في دارْ
وليتني لمّا دخلت الخمرَ
كي أزورها طردَني
الخمَّارْ[31] **(مستفعلن)**

ويمضي جوزف حرب في تصويره للأرض التي يتمناها:

أمّه الملكة، والسنبلة تاجها، وتويجات الحبق صولجانها والنّسيم عسكرها، الذي يحرسها، وطيارة الورق علمها الذي يحلّق دائمًا إلى الأعلى، وتكون حبة العرق في اصبعها أغلى من بريق ألماس. [البسيط والقافية من المتراكب]

حزني إذا مُتُّ، أنّ الأرضَ
ما جلسَتْ أمي على عرشها
والتاجُ سنبلةٌ
والصولجانُ تويجاتٌ من الحَبَقِ.
ولم يكن عسكرًا هذا النسيمُ لها
ولم تكن علمًا طيّارةُ الورقِ
وأنَّ حبّةَ ألماسٍ مشعشعةً
أغلى بإصبعِها من حبَّةِ العرقِ[32]

جــوزف حــرب يحمل همّ الأرض ومن عليها، ويحــاول أن يطرح رؤيته، التي تدعو إلى وقف الحروب، بين شعوبها، لأنّ السلام العالمي يقرّب الشعوب إلى بعضها ويوفّر لها الأمان والإزدهار لذلك نجده يســهب في توصيف الواقع المريــر الزاخر بالدّمار والخراب عبر كل الأزمنة وهدفه ســدّ هذا النقص الذي يدمّر الأرض ومن عليها.

لم أجد إلّا دمًا يجري بكل الأزمنهْ
لم أجد إلّا دمًا غطّى جميع الأمكنهْ
ما الذي سال بهذي الأرض أكثرْ؟
دمنا؟ أم أنّه الغيم الذي في الأرض أمطرْ؟
لم أجد ثانيةً من أي شهر أو سنهْ
ثانيةً ما كان فيها مذبحهْ
أرضنا ملأى دمًا
آه يا شعري
متى الأرضُ لنا؟![33] **(فاعلاتن)**

لا تصبــح هذه الأرض لنــا إلّا حين نعمل معًا لخلق نظام عالمي حضاري تتبادل فيه الشعوب خبراتها وخيراتها حتّى يسود الرفاه ويزول الفقر الذي زرعه طغيان الملوك مكان السنبلة.

ويرى جوزف حرب بأنّنا أحياء موتى على هذه الأرض لأنّنا لم نبنِ فيها إلّا بؤســنا – غير عمرٍ موحش ما عندنا. غير يابس ما عندنا، ولقد أقمنا بين أجراس المراثي بيوتنا، وخبزنا قد غمسناه في دمنا.

ما الذي جئنا لكي نفعله في الأرض؟

حاولنا بناء الأرض إلّا أننا لم نبنِ

إلّا بؤسنا

إننا أحياءُ موتى

إننا بشرٌ في قبضِ ريحٍ[34] (فاعلاتن)

كلّ الحروب التي خاضها الملوك والطغاة لم تصب رماحها إلّا الفقراء والكادحين المهمّشين الذين لا يريدون شيئًا سوى قوت يومهم.

كلُّ حِرابِ الأرضِ لمَّا أُطلِقَتْ

لم تصِبْ إلّا أنا

وأنا كل الضحايا

وأنا كل المراثي

وأنا كل مقتولٍ لأجل الأبيض المسلوب

في أرواحنا

فهو أنا[35] (فاعلاتن)

ولم ينس جوزف حرب الإشارة إلى النقصان الفاضح والرهيب لدى شعبه في فهمهم للوطن حتّى يبقى سيّدًا حرًّا، مستقلًّا. إنّ اللبنانيين لم يبنوا وطنًا لأنّهم لم ينتقلوا من قبائل الطوائف والمذاهب إلى الإنتماء الواحد للأرض وللدولة العلمانيّة التي لا تنظر إلى المواطنين إلّا بعين الكفاءة والجدارة بعيدًا عن التصنيف القطيعي:

وهذا الوطن يقتله سماسرة الدين ويحييه الأدباء والشّعراء والمفكّرون برؤاهم النيّرة.

بلادٌ على البحر
سيّدة، حرّة، وجميلهْ
لها مَلِكٌ عادلٌ
ورماح طويلهْ
ولا قبرَ فيها
ولا خائن أو قضاة
ولكنها في يد الغرباءْ
من الشعراءْ
طغاةٌ عليها العناوينُ
والكلمات غزاةُ[36]

وهكذا لا أحد يسدّ النقصان في الخلق غير الشعراء. شعرهم مساحيق سحريّة تذوب في المجامر ويتصاعد فيها خيوط ملوّنة ومعطّرة ترسم لنا حياةً نقيّة بيضاء. ولكنّ أمراء الطوائف يطردون هؤلاء الشعراء لأنهم غرباء عن مزارعهم الفاسدة المليئة بالطفيليّات.

ويعود جوزف حرب إلى أصل البلاء في الخليقة، والمتمثّل برجال الدين الذين محوا ما كتبه الله، واستبدلوه بكتاباتهم اللاهوتيّة، التي تكرّس سطوتهم على الخلق، لأنّهم يزعمون أن من يطيعهم، فقد أطاع الله، ومن خرج عليهم، فهو خارج عن دين الله، ويستحق العقاب في الدنيا والآخرة.

ويتصدّى جوزف حرب لرجال الدين، ويفضحهم، ويصوّر خداعهم وأساليبهم الخبيثة، في حقن أتباعهم بالكره والحقد تجاه الأديان الأخرى. كلّ كاهن أصبح زعيم حزبٍ ديني، يفرض على أتباعه الطاعة، ويؤطرّهم في دائرة

مقفلة، منعزلة عن غيرهم في المجتمع الواحد، وقد أساؤوا بذلك إلى الأرض والسماء، وهنا يأتي دور الشاعر صاحب الرسالة الإنسانيّة الكبرى، الذي عليه أن يعيد الأمور إلى نصابها، ويكشف الحقيقة، كما أرادها الله، لا كما أرادها رجال الدين، وبذلك يؤدّي دوره، في سدّ النقصان في الخلق.

إنّ المنهج الذي يتبّعه رجال الدين واحد، لدى الجميع فيهم يثبتون أن النص الديني قد نصّه الله، وهم مكلّفون بتطبيقه، لما فيه من الطاعة لله، ومن الخير للناس، ولكن عندما يختلف أصحاب المذهب الواحد، في تفسير النص، وقراءة أبعاده يلجؤون إلى مقولة الإجتهاد أو إلى تبحّر هذا العالم أكثر من غيره. من هنا بدأ الدين يفرّق الناس، ويفرزهم قطعانًا بشريّة، لكل راعيه ومرعاه. بهذه المقولة قطع رجال الدين عنق السماء.

قرأ الجميعُ النصَّ،
واتفقوا على رأيٍ بأنك كاتبُهْ
هو منك، فيك
وفائضٌ عن راحتيكَ
وصاحبُهْ
وتعمّقوا في بُعْدِ معناهُ
وفي تصويرِهِ
وتقاربوا، وتداخلوا، وتذاوبوا
لكأنّ كلًّا منهم إشتركَتْ دواةُ
يديه في تحبيرِهِ.
لا كاهنٌ، إلّا وصار لدينه أحزابُهُ، ومذاهبُهْ

لا دين إلّا صار كاهنُهُ يكفّر كلَّ دينٍ آخرٍ
ويحاربُهْ
كُهَّانُ أديانٍ، متى أدركْتَ كيف سيوفُهم
مرّت على عنقِ السماءْ
تعرفْ لماذا الأرضُ
ملأى بالدّماءْ[37] (متفاعلن)

وفـــي نـــصّ «أرجونا»[38] يغوص جوزف حرب إلى أعمـــاق الملوك الطغاة ويتقمّص أحدهم ويعود إلينا محمّلًا بملحمةٍ تروي لنا ما يجول في نفوس هؤلاء الطغاة عندما يكلّمون أنفسهم بمرآتهم الداخليّة. إنّها لعبة فنّية فذّة حاكها جوزف ليقول لهم ولنا: من يبني لنفســه العظمة الظالمة بالسّيف وبالغش والخداع يأكله الندم لأنّه يشــمئز من ذاته ويشــعر بأنّه أتفه البشــر!!! وهنا يجسّد جوزف حرب رسالة الشاعر الكبير الذي يحمل الرسالة الإنسانيّة ويسدّ بها نواقص هذا الخلق البشري.

أبعدوا التاج الذي يغدو على رأسي جمرًا.
رصّعوا تاجي بدمعٍ ودمٍ.
لو ذهَبٌ هذا، ولو حبّاتُ ياقوتٍ
لكان المُلْكُ ظلًّا زائلًا.
لكنّه بالدم والدمع شعور أنّني السّفاح.
هلّا تبعدون التاج عن رأسي.
فإنّي كلّما التاج استوى فوق جبيني
أمطرَتْ أعينُهُنَّ الملحَ في روحي

وصار الدم أشباحًا لقتلى وزّعوا أشلاءهم حول سريري
أيّ مُلْكٍ سوف يغدو أبيضًا، والعرش
والسّيف به لونُهما أسودُ؟
يا هذا السواد المرّ في ثوب الثكالى، ورغيف الخبز،
والقاضي، أرحني منك في أن أترك المُلْكَ وأمضي
هائمًا في الأرض لكي أستغفر الريح التي ذابت بها
رائحة القتلى، وكي أستغفر الأبواب في أنّي جعلْتُ
البيت يغدو خلفها مقبرة[39] (فاعلاتن)

المَلِكُ الذي يعتذر من شعبه، ويعترف بخطاياه، ويعلن التوبة يستحق المُلْكَ، لكن ليس على شعبه، بل على نفسه، لأنّه كان صادقًا معها، وانتقل بها من الجحيم إلى النعيم، وأعادها إلى أصولها الشعبيّة، بعد أن غسّلها بدموع الندم، ولكن هل عرفت البشريّة ملكًا من هذا المعدن؟!

إنّ جـوزف حـرب يوقظ هؤلاء الملوك، من نرجسـيّتهم التي تحوّلت إلى سـادية، تشتهي رائحة القتلى، وتقتل البشر والحجر والزرع، وكل مظاهر الحياة الآدميّة، التي يرضاها الملوك، ولا يرضاها الله.

رأسي مليء بصراخٍ وأنين، وبأصوات جياعٍ
كيف لم أدخل بيومٍ قلب مَنْ عُذِّبَ في سجنٍ؟
ورِجْلَيْ مَنْ مشى للذبح؟ أو دمع الذي قد جاع؟
أو وجه المسوق العنق للحرب لكي يقضي بها من أجل تاجي؟
ليحسّ القلب في ما قد أحسّوا.
وأرى كم أنّني لا أستحق الأمّ كي أولد، والقبر لكي أدفنَ

والأيّام كي تلعنني الأرض التي لولا وجودي فوقها،
ما عُرِفَتْ فيها الخطايا[40] **(فاعلاتن)**

النقصـــان بحاجة إلى من يملأه بالأفضل والأكمل وهذا ما قد فعله جوزف حــرب بكل تصميم وجرأة فلولا الملوك مــا عرفت الأرض الخطايا ولا تنتهي الخطايا إلّا إذا انقرض نسل الملوك عن الخليقة.

3 – الشاعر المبدع يعمل على اكتمال فكرة الله:

إنّ نص «الرائعة» في ديوان جوزف حرب «المحبرة» هو رؤيا شعريّة رائعة يتصوّر فيها الشاعر كيف خلق الله الكون وكيف جعل فيه أشياء واضحة وأخرى غامضة، ليمتحن الإنسان المخلوق في كشفه للغامض من وحي الواضح.

وتبدأ الرؤيا بأنّ خادمه السنونو تقدّم منه وقال له: الملاك أمام الباب فقال الشاعر: فليدخل الملاك. وعندما دخل قدّم له مخطوطة من ست غيمات، ومكتوبًا بمنديل وقال: الكون حمّلنيهما سرًّا إليك. وعندما سلم الشاعر ما أحضره الملاك هفّ الملاك نحو الباب ولوّح للسنونو بالجناحين اللذين مرى بياضهما وطارا.

عندما فتح الشاعر المكتوب وجد فيه مجموعة شعريّة للكون يطلب منه أن ينقحها له وهي عبارة عن ست غيمات خُطَّ عليها ست قصائد جُمِعْنَ بديوانٍ يُسمّى «الخَلْق».

في هذا النص يرتقي الوعي الشعري عند جوزف حرب، إذ يصبح الشعر عنده رسالة، لا يكتمل تحقّقها إلّا من قبل شاعرٍ راءٍ، وازنٍ يتبوّأ كرسي مملكة الشعر الكوني، ليتمّ بالشعر نقص الخلق الإلهي – الكوني. بذلك ينمو الشعر، محوّلًا «أنا» الشاعر في «المكتوب الحلمي»، ليتفاعل مع الكون إلى حد التطابق، متوسّعًا، ومنتشرًا من الكائن الإنساني المحدود، ليصبح كيانًا كونيًا، قادرًا على فهم ما يبطنه هذا الكون من أسرار. وتاليًا ينمو شعره نموًا إشعاعيًا، أفقيًّا، وعموديًّا، محوّلًا عناصر الكون نفسها إلى أدواتٍ لشعره.

يدي ريحٌ
وطاولتي سوادُ الليلِ

والأوراق غيمٌ عن يميني، قربها أقلام صندلةٍ،
ومحبرةٌ تقطَّرَ حبرُها الكحليُّ
من ماء البنفسج[41] (مفاعلتن)

ومن ثمّة يصوّر نفسه في شراكة مع الكون، الذي يراه الخالق الأعظم، وبوصفه شاعرًا كذلك. ومن ثمّة يرسم «أنا» الشاعر الإبداعي دورًا أعلى له، يتمثّل بتأدية وظيفة إستكمال الخلق وإتمامه:

تقدّم مرّةً مني السنونو، خادمي
قالَ: الملاكُ
قلْتُ: فلْيدخلْ
فأقبل لابسًا فوق الصباح، أخفّ من نوم الخزامى،
غامضًا كالزّرقة الملأى مساءً، حاملًا مخطوطةً
من ستّ غيماتٍ، ومكتوبًا بمنديل، وقال:
الكون حمَّلَنِيهِما سرًّا إليكَ
وخفّ نحوي، طافرًا بهما...
فتحت شريطة المنديل، وهو موشّحٌ بجناح عصفورٍ
تحيط به فواصل للدلالة أنّه لا شيء في ذا الكون
منتهيًا له نقطٌ.
يقول الكون في مكتوبه:
مجموعةٌ فيها قصائدي التي أرجو قراءتها، وتنقية
الذي ما ليس بعد مُنَخَّلَ الرؤيا بها، أو قد يكون بغيرما
لغةٍ مرصّعةِ العبارةِ بالبهاءِ الشاعريِّ، وغير عمقٍ

كامل التلوين، مفتوحٍ على ما لا يشيخُ، ولا يزولُ.
أَحْذِفْ،
أضِفْ للنَّصِّ
صحِّحْ
وعلِّقْ، وانتقدْ
وأَزِلْ، ونَقِّحْ.
أدِرْ في النَّصِّ حبرَكْ. هل له
ما للغمامة من دواة البحر؟
هل هو صالح للنشر؟
الكون[42] (مفاعلتن)

وبذلك ينمو الشــعر، وينتشر، ويتوسّــع، ويرتقي، ويتعالى، ليصبح الخالق الأعلى في الوجود، بعد الخلق الأوّل. الكون من منظور جوزف حرب ليس خلقًا إلهيًا جليًا وكاملًا، إنّما هو شاعر أول وخالق في آنٍ، ولكن يعتري خلقه نقصان وغموض، ويحتاج إلى من يكشف عن المسكوت عنه في فواصله وطيّاته، وإلى من يفضّ أســراره، ومن يتمّم رســالة خلقه التكويني، وقد أوكل هذا الأمر إلى الشعراء الرائين والمبدعين.

وبذلــك يكون الوعي الشــعري عند حرب، قد ارتقى من الوعي الحسّــي الأدنى الذي لا يفارقه، إلى الوعي الكوني الذي يجعله من أصحاب الرســالات الكبرى[43].

وهكذا فقد اســتخدم جوزف حرب النموذج الحدثي «للشاعر» أو سيناريو «الكتابة الشــعريّة»، وجعل الخلق الشــعري مراتب، والشعر خلقًا. الخالق الأوّل

هو الكون، وكل أدوات الخلق الشـعري مكوّنة من عناصره المائيّة. والكون هو مصدر الخلق الأول لا الله.

وهذا يعني أنّ الشـاعر بدا كأنّه عارف بما لم يتمكّن الكون من معرفته، أو هو الرائي الثاني المكمّل للرؤيا الكونيّة، وظيفته إتمام الرسـالة الشعريّة، لكأنّما الشعر هو الكتاب الديني للكون، والشعراء هم أنبياؤه أو رسله، والكون هو ربّه، ورسالته سدّ النقصان، وبلورة الوعد والمأمول من الوجود الإنساني في وجوده الترابي الدائري.

من هنا فقد أرسـل الكون مجموعته الشعريّة المكوّنة من ست قصائد. كلّ قصيـدة خُطَّتْ على غيمة وجُمِعَتْ بديوان سـماه الكون. وبهذا حدث التوافق بين خلق الله الكون بسـتّة أيّام، وخلـق الكون صيرورة الكائنات وتحوّلاتها في مخطوط على ست غيمات تطوي أسرار ذلك الخلق. ولكن السؤال الذي يطرح نفسـه في هذا السـياق: ما الذي طلبه الكون من الشاعر لإتمامه في ديوان الخلق الذي بقي ناقصًا عند الخلق الشعري الأوّل؟

إنّ المطلوب من الشاعر إتمامه، وبلورته، يتركّز بالدرجة الأولى على بلورة «الرؤيـا» وإتمـام ما يعتريها من النقصان، وهذا الأمر لا يمكن الوصول إليه عند حرب، إلّا بقراءة الأرض، والله، والمياه، والظلام، والنور على الأرض:

مجموعةٌ شعريّةٌ للكونِ أرسلَها إليّ لكيْ أنقِّحَها لَهُ.

هي ستُّ غيماتٍ عليها خُطَّ ستّ قصائدٍ

جُمِعَتْ بديوانٍ يُسمَّى «الخَلْقَ»

وهذا بعض ما في نصّها:

هي الأرض خاليةٌ، خاويةٌ

كعصرةٍ ليس من عاتقِ الخمرِ فيها

سوى خابيهْ

تنام بفَخَّارها

عند الزاويهْ

ظلامٌ، وغمرٌ عليه من الله روحٌ يرفُّ

كأنّ بياضًا، وحبرًا، ورؤيا، ولكن بلا ذوبانٍ.

هو الله

رؤيا ولكنّها لم تَصِرْ بَعْدُ حبرًا

وإذا الحبر ما صار بعدُ كلامًا.

وأوّل فعل الكتابة نورٌ

لأنّ السكونَ ظلامٌ

ظلامٌ بغير كتابهْ

ظلامٌ يُصيبُ يدَ الله ذات الرؤى

بالكآبهْ[44] **(متفاعلن)**

إذًا لا تكتمــــل الرؤيــا إلّا بتوافر هذه القــراءات، وإلّا بفضّ الكلمة – النور، والكلمة – الكتابة، والكلمة – القراءة. وســرّ هذه الكلمات في الإنصهار التام، والترقية الشاملة. وبذلك تنمو وظيفة «الأنا» الشعريّة المبدعة، وتجد جنّتها الكونيّة في كيان الشعر الذي يمنح الإكتمال، ويسدّ كل نقصان، ويحقق المأمول.

وبذلك يرتقي الشــعر ليتجاوز خالقه الشــاعر، وليبدع هو كائنًا أعظم، كان رؤيا غير متبلورة، هو الله، رؤيا غير ممكن تجسّــدها، واكتمالها من الشــعري في

الشعر، وبذلك يكون اكتمال فكرة الله في رسالة الشاعر الرائي.

يتجسّد هذا الخلق الإلهي – الشعري – بوساطة الكلمة – الكتابة – والكلمة – النــور... وبالكتابــة تمّ الخلق الأكمــل، لاكتمال الله من جهة، كما أنّه من رؤى الشــعراء، ولاكتمال الكون من جهة ثانية. وإذ بدت الثنائيّة مقلقة، احتاج مكتوب الخلــق الأوّل إلــى قارئ الله، والخلــق الثاني إلى قراءة التــراب الخالق، وترقّى الخلقــان بخلق الروح التي ترى ما لا يُرى بالعين. وإذا الشــاعر الرائي يقرأ روح التراب، وروح النهار، والرياح، والكواكب، والمياه، ويقرأ في نص المياه إيقاعاته، وأوزانه: وزن البحر، ووزن ســاقية ومطر ونبع. وتتداخل هذه الأوزان مع أوزان الرعد والمطر والريح والبرق، فضلًا عن إيقاعات روح الماء، عبر وزن الغيم ووزن البحر، ووزن النبع، والتّفعيلة الخضراء، ووزن النهر والسواقي، والتّفعيلة الشجريّة.

وبذلك تكون قد اكتملت مقولة الخلق الشعري الذي تجاوز الخلق الإلهي – الكوني، وحضر بجميع مكوّناته الشــعريّة – الكونيّة ولا ســيّما المائيّة. فكان الخصب الفكري، وكانت الرؤيا، وكان الإيقاع، وكانت الرؤيا بالقلب لا بالعين، وكان الســمو، والنمو المتوسّع، والمنتشر في كل الإتجاهات. وكان التشابه هو سرّ تقريب المتباعدات وتطابقها، وسدّ الترقيّة، ووحدة الكون.

حينئذٍ أَذِنِ الشــاعر للكون نشــر ديوانه. فلا وجود لمبدعٍ إلهيًا كان أم إنسانًا شاعرًا، إلّا من كان رائيًا، ومنطلقًا من الكون الطبيعي نحو شفافيّةٍ ورؤيا، ومتكاملًا معه[45].

لذلك كلّه، نجد جوزف حرب يحمّل الشعراء رسالة ثوريّة، فيوظّف الشعر ضد الطغاة، وأصحاب التيجان والملوك، وقضاة الأرض، ورجال الدين والتجّار. أمّا الشعر بالنسبة له فهو يعدّل الحياة، فإذا خلت الحياة من الشعر تصبح قبرًا!!!

إنّ الشــعراء هم الذين يعطون للأشــياء قيمةً لأنّهم لا ينظرون إليها كعناصر كونيّة عاديّة. في كل عنصرٍ جوهر، وتفاصيل لا يدركها إلّا الشــعراء المبدعون الذين يحوّلون خاماتها إلى أشــياء أخرى عبر رؤاهم. فلولا محبرة الشعراء لبقي الماء ماءً والهواء هواءً، والبحر بحرًا...

كان الماءُ ماءً
وترابُ الأرض ترابًا، كانت هذي
الصحراءْ
صحراءَ، وكان المدعو هواءً، محض هواءٍ
كان الأزرق بحرًا، والزرقة فوق البحر
سماءْ.
كانت كلّ الأشياءْ
أشياءَ بكونٍ، لا أكثر
لولا محبرة الشعراءْ[46] (فاعلن)

ويمضي جوزف حرب في رؤياه: عندما رأت ريشة الله نور الكلام بهيًا رأى الله أن يفصــل النــور عن الظلام فكان النهــار والليل. ولكن هذا البياض أخرس بــدون كلام، وبدون دواة للكتابة، فســوّت يــد الله البياض ليكون صالحًا للحبر حتّى يصير كلامًا، وعندها يصير البياض بياضين، بياض النور وبياض الرؤيا أي بياض مادي، وبياض روحي.

وقد عرف الله أنّ الكتابة فيها وضوحٌ
وفيها غموضٌ.
فخلّى البياضين فوقَ، وتحتَ.

وخلّى البياض الذي هو تحتُ
بياضين: قسمًا غموضُ بياضِ المياهِ
وقسمًا وضوحُ بياضِ اليباسِ.
وخلّى بياض اليباس لحبر الكلام هو النَّبْتَ من شجراتٍ
وعشبٍ، يَكُنَّ أجنّةَ بزرٍ بأرحام هذا التراب، ويخرجْنَ
أحمرَ، أبيضَ، أصفرَ
وفكّر أنّ الظلام دجيٌّ. وأن الزمان بغير حساب.
فضوّأ بالقمر الليل والنيّرات. وشكّ مسارج
تدعى: الكواكب
أمّا النهار فعلّق فيه الشّمس.
فبات البياض الذي فوقُ مثل البياض الذي تحتُ
من أبيضين: بياضٍ هو الليل في دَوَياتٍ هي النيّراتُ،
بياضٍ تضوّئه الشّمس، وهي دواةُ بياضِ النهارِ[47] (فعولن)

وبعــد أن أكمــل الله نصّه تمّت الكتابة، وهــذه الكتابة بحاجة إلى قارئٍ فيه شيء من صورة الله، فمدّ الله يده للتراب، وكوّن طينًا، وأرسل فيه الحياة، فأصبح خلقًا سويًا.

إنّ جوزف حرب قد راجع هذا النص ولم يقرأه بعينيه بل بروحه.

أحببْتُ كلَّ النصِّ
عدْتُ إليهِ مرّاتٍ
بروحي لا بعيني.
إنّما ما قد تراه الروحُ

عينك لا تراهْ
كالزّهر تقرأ لا تفتُّحَ زرِّهِ
لكنْ شذاهْ[48] (متفاعلن)

يلتقــي جوزف حرب في قراءته للنص الإلهي مع الدعوة الإلهيّة للإنســان للتفكّــر مليًّا بهــذا الكون وعظمته، والعمل على فهمه وفك رموزه، واكتشــاف أســراره. إذا عمل الإنسان بهذه الدعوة، ســوف تصبح الأرض جنّته، بعد طول دمار وخراب.

وكلّمــا تقدّم الإنســان في معرفته الكونيّة اقترب مــن الله وتأكّد من إبداعه اللامتناهي، وهذا يعيد الرســالات الســماويّة إلى جوهرها الإلهي، وتخرج من قبضة رجال الدين الذين حرّفوها حتّى أصبحت الأديان على الأرض سببًا رئيسيًا من أسباب الفتن والحروب والإرهاب.

إنّ جوزف حرب عندما يســأله عقله عن غامض الأشــياء لا تعنيه «إلى أين» و«ما بعد» و«كيف» و»ماذا» لا يعنيه سوى «من أين جاء».

كم بعيد أنت!
كم أنت خفيٌّ
هذه الشّمس لكثرة ما أنت عني بعيدٌ،
جارتي
والقمر الفضّيّ
يحيا ببيتي
كلّما فكرت في بعدكَ، أحمل زادي، ثمّ أمضي
راجلًا كي أبحث عنك.

لامسًا في عمق أعماقيَ
ما ليس ألمس في يديّْ.
أمضي وأمضي
لكأنّي أمشي على سطح دائرةٍ،
واصلًا في آخر الأمر
إليّْ. (فاعلاتن)
ربِّ الذي أبدعت لي يديّْ
أوكلت إليّْ
حتّى الحجارهْ
أن أفكّر عنها،
أن أسمّيها إشارهْ،
أن أظنّها في نصّك العالي
عبارهْ[49] (مستفعلن)

ولذّة جوزف حرب ليست في مقدرته على تحمّل عذابات الطريق، ولا لذّة الوصــول لما يصبو إليه لأنّ أهدافه بعيــدة وعميقة وطريقها لا نهاية لها وحياته ومضة لا تسمح له بتحقيق ما يدور في عقله وروحه:

لا لذّتي في أنني احتملْتْ
عذاب هذه الطريق واشتعلْتْ
بالألم الصاعد بي حتّى وصلْتْ
فلذَّةُ الواصلِ للشطآنِ
مثلُ لذَّةِ الغريقْ.

ولذّتي أن أكمّل الطريقْ

وأسمع أفقي في شراع مراكبي

وألمح عشبي في بياض غمامي

وأشعل عقلي

كي تُنقّى غرائزي

وأكثر نوري

كي يقلّ ظلامي

وأغمس إزميلي

بحبر رخامي[50] (مستفعلن)

لم يقبل جوزف حرب أن يكون مؤمنًا بالوراثة، بل حزم أمره وجمع حقائبه الفكريّة، وسافر في الكون، يتأمّله ويتفحّصه في كل تفاصيله، لذلك نجده في نصوص شعره ملحاحًا في الأسئلة، التي يريد عليها أجوبةً، وأحيانًا كثيرة تكون أسئلة بحدّ ذاتها أجوبة. نعتقد أنّ جوزف حرب في مسلكه الفكري، اقترب كثيرًا من الله، وهذا الاقتراب الصادق، والنقي جعله يتجرّأ، فيعاتب الله، ويلومه ويطلب إليه أن يعدّل من قوانينه، وألّا يكتفي بالجزاء والثواب عند قيام السّاعة، لأنّ الطغيان على الأرض تجاوز كل الحدود، ولا مجال للخلاص إلّا أن يمدّ الله يده إلى الخليقة، فيقضي على مصّاصي الدماء، من القواد، والملوك، والتجّار، اللصوص، الذين يشربون رحيق الفقراء، بجشعهم وسواد ضمائرهم.

وقد وجد جوزف حرب، بأنّ البلاء على الأرض، مصدره الأوّل رجال الدين الذين صادروا الناس وأرزاقهم باسم الدين، وبنوا لهم دولة على الأرض تتقاسم مع الحكّام نعيم الدنيا ويخدعون أتباعهم بالمباخر والصلوات وهم وحدهم يأكلون الثمر.

ألا

صلِّ لي أيّها الكاهنُ الحقلُ عندي

ترابٌ قديم، وشوكٌ محا وجهَهُ

وحَجَرْ

ولا نبت عندي. وقد فرعَتْ كفُّ

فأسِ العواصفِ

كلَّ الشجرْ

فحقلي لا ثوبَ زرعٍ عليه. كعينٍ

ولكن

بغير بصرْ.

- تذكّرْ، عليَّ الصلاة، ولكنْ

عليكَ الثمرْ.

غدًا سيجيء الشتاء، وأطلبُ أن

ينسجَ الحقلَ في إبرةٍ من رياح المسا،

وخيوط المطرْ[51] (فعولن)

وما يريد قوله جوزف حرب: أيّها الفلّاح المسكين، لا تصغ إلى الكاهن في تراتيله، وتلوين صوته، لأنّ الخير عند الله، وليس عنده، وماء زرعك تكفّل به من تعبده، وليس من يتاجر به، وينتظر هناك حتّى يسرقه.

إنّ الله، سبحانه وتعالى، لا يريد للإنسان إلّا الخير وحسن الختام، من أجل ذلك بعث الرسل والأنبياء، وأوحى إليهم بكتب إلهيّة، كلّها تدعو إلى العدل والسلام، واحترام الإنسان.

وجوزف حرب ليس ضدّ الدين الإلهي، بل يؤكّده في أطروحاته الشـعريّة، وينادي بتطبيق مبادئ هذا الدين، والتقيّد بتعاليمه، بصدق وإخلاص، وعدم اتخاذه وسـيلة للسـيطرة والإستغلال. وما دفعه إلى هذه الدعوة ما شاهده على الأرض من تحريف رجال الدين للرسـالات السـماويّة، وما يمارسونه من دجلٍ ونفاق، وأسـاليب ملتوية ليصبح هذا الدين وسـيلة طيّعة في أيديهم لتحقيق مصالحهم ومآربهم الدنيويّة التي تتنافى مع جوهر الدين وروحه.

وبـرأي جـوزف حرب، فـإنّ وجود الإنسـان لا يكون بولادته، وبعيشـه الفيزيولوجـي على الأرض، بل بالكيفيّـة التي يكون عليها وجوده. لذلك فعلى الإنسـان أن يسـأل نفسـه دائمًا: ما الغاية من وجودي؟ وما الكيفيّة التي عليّ أن أرسمها لنفسي، حتّى يكون هذا الوجود مجديًا لي ولغيري؟:

سأمحو سؤالي:
لو لم أجئْ؟
ها أنا الآنَ حيٌّ، وما ينفعُ
القول: لو لم أجئ؟
فذا النبعُ قدْ ولَدَتْهُ الغيومُ
جنينًا لها، وانتهى الأمرُ
أعرف أنّي لو لم أجئْ
لم يكن أيُّ شيءٍ
سؤالي:
فلتنظر الروح فيَّ إلى ما أضأْتُ
وما لم أُضئْ

لأعرف أيّهما كان أجدى،
مجيئي أو ليتني لم أجئ؟[52] **(فعولن)**

وأحبّ شيء، وأجمل شيءٍ، عند جوزف حرب على الأرض أن يبقى عليها، وأن لا تكون سنة الحياة: ولادة أولى ثمّ موت ثمّ بعث من جديد.

ولكنّه كونه جاء، وكونه يعرف بأنّه سيموت، لا بدّ له من أن يحيا إنسانًا حرًّا، في عالم لا عبد فيه ولا جائع حتّى ولو كان عمره محدودًا وقصيرًا.

وجئتُ
ولكنّني سأموت أخيرًا. فأيّهما كان أجدى،
مجيءٌ يرافقه موته؟ أم مجيءٌ بغير
ضريحٍ؟
ولكنّني
لسْتُ غيرَ مجيءٍ بموتٍ
لأُبْعِدْ قليلًا مجيئي من غير موتٍ،
وأقرأ عميقًا مجيئي الذي
كالنّهار المضاءْ
فإنّكَ إنْ أنتَ عانَقْتَهُ
في الصباحِ
شمَمْتَ المساءْ[53] **(فعولن)**

إنّ الطغاة بنوا أمجادهم المزيّفة، بسفك دماء الفقراء والكادحين، فهم يعيشون في قصورٍ متوهّجة بالضوء، والفقراء الذين وهبوا دماءهم، لا شمعة تضيء عتمهم.

دمي

سال أكثر مما بهذي المحيطاتِ

من أجل شمسي.

ولكنّي لست أملك شمعَهْ

ومن حقّ موتي ضدَّ المجاعات،

ألّا أرى فوق خدّ على الأرض

دمعَهْ

هو الظلم أقوى.

وذا الجوع أوسعُ

هل ما فعلْتُ إلى الآن يوحي

بأنّي تلمَّسْتُ

نورَ الصباحِ

وفي خوذتي، ذات يومٍ

زرعْتُ أقاحي؟

ومارسْتُ في الريح

خَفْقَ جناحي

وفتَّحَ زرٌّ من الورد فوق

دمي

يا رماحي؟

من البدء للآن

لا شيء إلّا جراحي!(54)

وجوزف حرب في شعره، ناطق باسم الإنسانيّة المعذّبة، التي تصنع الحياة

بعرقهـا، ودمهـا، ولا تلقى إلّا الظلم والحرمان، مرّة من تجّار الهيكل، ومرّةً من الحكّام الظالمين وهذا ما حفره التاريخ في الذاكرة الفرديّة والجمعيّة.

عصورٌ

عصورٌ

عصورٌ مضَتْ

وعصورٌ تمرّ هي الآنَ

أو مقبلهْ

عصورٌ

وما سقطت

فوق عنقي

سوى المِقصلهْ

عصورٌ

وهذا الجبينُ

سوى ورقِ الملحِ

ما كلَّلَهْ

عصورٌ

عبَرْتُ بها يا دمائي

الصحارى،

البحارَ

الليالي

وكان أرقّ بلادي المنافي،

وكانت أقلَّ عذاباتي

الجُلْجُلَهْ

عصورٌ

ولمّا أصلْ بَعْدُ

للسنبلَهْ[55] **(فعولن)**

وكلّ هذه المآســي التي مرّت بها البشــريّة، ولمّا تزل، لا ترضي الله، ولا ترضي جوزف حرب الذي يسأل الله، عن هذا السكوت، على هذه المآسي، وهل سيوعاقب من أوجدها في الدنيا؟

4 - تمثّل الجوهر الشعري بمشاهد حسيّة:

يقول جوزف حرب: «لا دور للشـــعراء إلّا أنّهم قد أشــعلوا الفانوس، كي يخرجوا الكلمات، نحو شموسها من عتمة القاموس».

وهذا يعني أنّ المتشـــابهات، والمتطابقات، التي يلتقطها الخيال العلائقي، عند حرب، ليست وحدها مكوّن شعريّته، وعناصر عالمه، إنما هي مظهر حسّي لجواهــر ذلــك العالم الشــعري. وعلى هذا إذا كان الإيقاع جوهرًا، فإنّه ســموٌّ من مشــاهد حسّــيّة: حركة الغيوم، الأشجار المياه، وحركة الحصّادين المتناغمة والمتواتــرة، والبنّائيــن وهم يرصفون الجدران حجرًا حجــرًا، وتنظيم العناصر الكونيّة، موازنات الفلّاح بين الشّمس والماء... وإذا كان الإبداع جوهرًا، فليست ريشة الشاعر وحدها أداة تصويره، إنّما كما الريشة والأقلام عند الشاعر، كذلك هــي المحاريــث والمعاول، يكتب بها الفلّاح فــي الأرض قصائده... وإذا كان الطرب جوهرًا، فإنّ الشاعر يقطفه من مشهد الطحن، حيث تتناغم جوقة الطبيعة المؤتلفة، من عوّادي المياه، وتدوير الرّحى، وقصب السواقي.

إنّ الشــعري عنــد جوزف حرب، يكمن في رحلــة من المعتم الكثيف إلى المضاء الشــفيف. وفي ذلك جوهر الشــعر الذي هو فعل ارتقاء. وهذه الرحلة التشفّفيّة الإرتقائيّة، هي ما نرافقه فيها، لنتمكّن من مجاراته، في تفتّح وعيه، ونموّه الصاعد.

في نصّه «الأرض» في ديوانه «المحبرة» مثال ساطع على ما قلناه:

ولمّا رتَّبَتْ بين البحار بيوتَها

الأرضُ استعانت بالغمائم والرياح

فألبست أشجارها قمصانَها الخضراءَ
حوَّلَتِ الحقولَ إلى مقاعدَ
من ركاياها الظلالُ، ومن مساندها
الحفافي.
مدَّتِ السّجادةَ الفيحاءَ فوق السهلِ
أندلسيّةَ الألوان.
والوديانُ صارَتْ في بيوتِ الأرضِ
معصرةً.
وصارت ذي الشواهقُ من جبال البَرِّ
جدرانًا تقوّس فوقها سقفٌ سماويٌّ
تدلّى منه بِلَّوْرٌ تقطّر فيه زيتٌ
برتقاليٌ له لون المسارج
علَّقَتْ قمرًا لهذا الليل
شمسًا للنهارْ.
ومدّت قرب أَرْحِيَةِ الطواحينِ
القصاعَ، وحوّلت كلَّ الينابيعِ
العتاقِ إلى جرارْ(56) (مفاعلتن)

في هذا النص يصف جوزف حرب الأرض، بكل تضاريســها، وأشجارها، في النهار والليل، فهو يفصّل، ويصنِّف، ويصوِّر صورًا حسيّةً، كأنّه يحمل جهاز تصويــر، ولكن هذه الصور التي التقطها رتّبها بلياقة وأناقة، وجعلها متناغمة في سياق شعري ينساب انسيابًا جذابًا.

ويمضـــي جوزف حرب في قطف مشـــاهده من جوقـــة الطبيعة المتناغمة والمتقاربة في مظهرها وحركتها وتكاملها في الصورة المشهديّة:

ووسَّعَتِ المراعي كالموائد، والصّحارى
كالصيام المنتهي في واحة الإفطار،
والغابات كالأعراس أو عيد البحارْ
ولم تترك، مع الأيام، كائنةً وما
أجرت عليها الرزق، أو سمحت لها
ببناءِ دارْ
كنسوة قريةٍ يجْلِسْنَ عند النهر يغْسِلْنَ
الثياب. الأرض تغسل كلّ ثوبٍ
في خزانتها، وتعرى في المياه وتستحمُّ
وقد تحوَّلَتِ المياه إلى رجالٍ تُوِّجوا
ببروقِهِمْ
والأرض ترقص، تجعل الصفصاف
قامتها وريح الصبح عاشقها
وترقص وهي في شبقٍ وتفتيحٍ[57] **(مفاعلتن)**

هذا النص يكاد ينتصب أمامنا بانوراما وكأنّنا نشـــاهدها على شاشة عملاقة صورةً وصوتًا وموســـيقا. فهي لوحة حيّة تتحرّك عناصرها المرسومة في ذاكرتنا البصريّة والمستمدّة من عناصر الحياة القرويّة في بلادنا وخصوصًا مشهد النسوة وهن يغسلن الثياب في مياه النهر.

وفي المقطع التالي مشهديّة نادرة للشمس «عربة النار»:

عَرَبَهْ

هي

قرصُ الشمس، وقد طُلِيَتْ بالذهبِ

الأحمرِ. سائقها فرسٌ من ريحٍ

والعجلاتْ

صفراءُ، مدوّرةٌ

تُدعى: الساعاتْ

تركبها امرأةٌ عاريةٌ تُدعى: النارَ

وقد غطّى قامتَها شَعْرٌ

جُلْنَارِيُّ الخصلاتْ

كي تلتقي القمرَ العاشقَ

في

قصرِ الظلماتْ[58] **(فاعلن)**

الشّـمس مشهد حسّي، وهي مستديرة، وساطعة وبها نعرف موعد الشروق والغـروب، والهاجرة، والظهر، والعصر، فهي سـاعتنا في النهار، ولكن جوزف حرب، صهر كل هذه التفاصيل في سـبيكة شـعريّة رائعة، تلتمع شعرًا وإبداعًا. وهي لا تغيب ولكنّها تريد أن تقابل حبيبها القمر سرًّا.

وفي نص «جمرة الليل» يتنفّس جوزف حرب شعرًا ألوانه من حمرة النساء عندما يبلغن شهوتهنّ، فهو يفتح لنا جهاز خياله على مشهد من مسرحيّةٍ تجسّد أزليّـة الجنـس الذي لا يبلغ منتهـاه، ولا يكتمل إلّا عندما تتلاشـى المرأة في المضاجعة، وتصبح في قوّة لين السّحاب بكفّ الهواء.

إذا بدأت في الربيع احتفالاتهم بالطوافِ
تزيّا الرجال بجلد تيوسٍ، وأذناب خيلٍ،
وطافوا الحقول وهم يرفعون بأكتافهم
نُصُبًا للقضيب له طول أشجارهم في البراري،
وقد دهنوه دمًا أحمرًا، طازجًا
ثمّ يأتون ساحاتهم في المدينة،
تستقبل النسوة القادمين بنارٍ ورقصِ سيوفٍ
على وجههن قناعٌ وأجسادهن يحركنها في هياجٍ وعهرٍ
ويغرقن في جُمَلٍ حُمِّلَتْ فحشهنّ ومدَّ صراخٍ
كمن قد بلَغْنَ انتشاء المضاجع.
يشتُمْنَ
يشتُمْنَ
يشتُمْنَ
ثمّ يَعُدْنَ وينْشِدْنَ للعضو:
يا جمرةَ الليلِ[59] (فعولن)

حتّى الآن نحن نشاهد مقدّمة المشهد الأوّل وهو مشهد التحضير لالتحام الأجساد. وسوف نشاهد احتفال الأجساد والآدميّة في موعد احتفال الأجساد الطبيعيّة في الربيع. فلولا تلاقح الذكور والإناث من الأزهار والورود ما شاهدنا ألوانًا متوهّجة.

وإذا كان مناخ الطبيعة في الربيع هو موعد المضاجعة لعناصرها، فهو أيضًا موعدٌ لمضاجعة الأجساد البشريّة التي يُلْهِبُها الجمال الطبيعي، ويحرِّك فيها دوافع الشهوة.

يا جمرةَ الليلِ

ضيفي الشّهيَّ، حبيبَ المراهق،

شعلةَ خِصْبي المقدّسةَ الدَّفْقِ

برقَ غمامةِ خصري،

عصيرَ ثمارِ السريرِ،

ألا فاخترقْني

اخترقْني

اخترقْني

إلى أن أتلاشى، وأصبح في قوّةِ لينِ السَّحابِ

في كفّ الهواءِ

وأغدو كالزّعفران شحوبًا، فيعرف كلُّ النساء

بأنّي كنت إلى أن أطلّ الصباحْ

شجيرة حورٍ على النهرِ

تعصفُ فيها الرياحْ[60] (فعولن)

وخاتمة هذا المشهد فيها الحكمة التي يريد أن ينطق بها جوزف حرب وهي أنّ الشهوة لا تفرّق بين عاهرة وشريفة.

وتُقْبِلُ من بين كلّ النساءِ الشريفاتِ

أشرفُهُنَّ مقامًا

وتعْرى بظلِّ القضيبِ

وترقص كالعاهراتِ

وتفتحُ قوسي يديها إليهِ وتذهبُ

في الضمِّ
حتّى
العناقْ
فتُطْعَنُ حتّى تموت، لكي لا يظلَّ
مكانٌ بأيّامها للفراقْ[61] **(فعولن)**

ما يهمّنا في هذا النص ما يوجد وراء سطوره من دوافع إنسانيّة راقية جدًا كانت تشعل عقل جوزف حرب ووعيه المتوقّد تجاه ما يعانيه مجتمعنا الشرقي من عقدٍ مزمنة وأهمّها مسألة الجنس وانعكاس هذه المسألة على معظم سلوكنا وقيمنا وتحديدًا النظر إلى المرأة كوعاء لحفظ الجنين، والإنجاب دون الأخذ بالحسبان حقها الإنساني والشرعي بالتمتع بلذّتها الجنسيّة مع زوجها، لذلك نعتقد بأنّ هذا النص هو رسالة إلى المجتمع لحثّه على تغيير نظرته تجاه هذه المسألة والنظر إلى المرأة كإنسان لها ما له كل إنسان من حقوق وواجبات.

من المحزن، بل من المبكي، أن يتصوّر القوم مجموعة من الدجّالين، والمنافقين، وتصبح هذه المجموعة، هي الرأي العام المطاع في المجتمع، وجوزف حرب بحكم وعيه، يعرف هؤلاء جيّدًا، ويفهم خداعهم فلا يغرّه كلامهم المعسول الذي يخفي وراءه المكر والخبث:

لو تفتحون النافذهْ
ولو تنظّفون هذه المقاعدْ
وتحملون النار للقنديلْ
منذ قليلٍ زارني وفدٌ من القيمْ
وفدٌ يضمّ العدل والسّلام والقلمْ

والحقّ والوطنْ

فانتشرت في بيتنا رائحة العفنْ

وفوق كل مقعد تناثر الصدأْ

وكي يظلّ الكلّ في عتمتِهِ

قنديلي انطفأْ[62] **(مستفعلن)**

لقد جسّد جوزف حرب سخريّته في قالب حسّي عندما أطفأ القنديل حتّى لا يشاهد منهم أحدًا.

وفي النص التالي البِرْكة في الغابة تصبح ساعةً لمعرفة الوقت:

هي بِرْكَةٌ في معصمِ الغابهْ

وعلى المياه ظلال أجنحة الطيورْ

كعقارب فيها تدورْ

فإذا سألت الغابة الخضراءَ:

كم يا غابةُ الساعهْ

نظرت إلى البِرْكهْ(63) (متفاعلن)

ما أروع الشاعر، عندما يرسم من الأشياء البسيطة، قصرًا عظيمًا يتوهّج بالإبداع. جوزف حرب من ياسمينة بيته، ومنهدة جارته، الزرقاء وحريرتها الصغيرة، التي تغطّي فانوس فخذيها يطرّز لنا صورة شعريّة في منتهى الذكاء:

عند سياج بيتي ياسمينهْ

أقطف زهرها الزّبدي

لنَهْدَيْ جارتي ونبيذها الأسودْ

يا جارتي،
ياسمينتي مريضةْ
اغسلي مطبّات ثيابكْ
وانشري عليها،
مِنْهَدَتكِ الزرقاءْ
وحريرتك الصغيرةْ(64)

الياســمينة التي تلتمع أزهارها، وهي شــفاء للنفوس من الحزن، والكآبة، جعلها جوزف حرب مريضة، وشــفاؤها بل وشــفاؤه، بمنهدة الجارة وشريطها الحريري في واديها!!!

ويصــبّ جوزف حرب شــعره فــي قوالب رخاميّة يتوهّــج بريقها في كل الإتجاهات، ولكثرة مراقبته للطبيعة يرى أنّ الشــجر إذا خاف أن يشيخ يهيّئ في الصيف من كلّ غصنٍ عصا حتّى إذا جاء الخريف يكون مستعدًا للثبات:

لكثرة خوف الشجرْ، إذا شاخ أن يتهاوى،
وتذهب منه استقامةُ خيطِ المطرْ
يهيّئ في صيفه للخريف، وفي كل دروب الخريفِ
حصى
يهيّئ من كلّ غصنٍ
عصا.
البحر يصبح صحن فيروزٍ إذا جاء الغروبُ،
وعليه قرصُ الشَّمسِ شعلةُ شمعةٍ حمراءُ
في مَهَلٍ تغيبُ

الغيمُ تحتَ لهيبِها الورديِّ شمعٌ أبيضُ
في زُرقةِ الصحنِ يذوبُ[65] **(فعولن)**

في كلّ ما تقدّم تظهر براعة جوزف حرب في نسيج إيقاعات مدهشة، بعضها يصدر من نغم الروح، ويوظّف لها مختلف العناصر من موسيقيّة التنسيقات، والهندسات، والمتوازنات والمتوازيات، والبؤر والأمواج، وسحر تقفيات الجمل والفقرات... إلى الالتزام بالأوزان من تفعيلات مفردة أو مركّبة، أو متساوقة حتّى امتلاء البحور التي أسعفته حينًا إلى حدّ الإدهاش.

وتظهر براعته أيضًا في إبداع مشهديّات، ولوحات متقاطرة، صادرة من خيال دينامي، حتّى لتظنّ أنّك أمام كونٍ طبيعي تحوّلت فيه أشياء أرضه إلى أرواحٍ حيّة، فحكمت شعره أسلوبيّة خاصة به، لكأنّك تشهد ما تقرأ، وتشارك في عمليّة خلقه الشعري المكمّل للخلق الإلهيّ والكونيّ.

هوامش

الفصل الثاني:

1 - جوزف حرب: المحبرة: 192 – 193.
2 - نفسه: 193 – 194.
3 - نفسه: 204.
4 - جوزف حرب: الخصر والمذمار: 25.
5 - د. وجيه فانوس: جوزف حرب إلى لقاء – الحركة الثقافيّة في لبنان 2014 ص: 10 – 11 – 12.
6 - جوزف حرب: الخصر والمزمار: 265.
7 - جوزف حرب: قلم واحد في ثلاث أصابع – رياض الريّس للكتب والنشر بيروت – 2012 ص: 38 – 39.
8 - جوزف حرب: دواة المسك: 74 – 75 – 76.
9 - نفسه: 85 – 86.
10 - جوزف حرب: أجمل ما في الأرض أن أبقى عليها: 14 – 15.
11 - نفسه: 22 – 23.
12 - نفسه: 58 – 59.
13 - نفسه: 332 – 333.
14 - جوزف حرب: كلك عندي إلّا أنتِ – رياض الريّس – بيروت 2008 ص: 196 – 197.
15 - نفسه: 204 – 205.
16 - جوزف حرب: المحبرة: 1341 – 1342.
17 - نفسه: 1343 – 1344.
18 - نفسه: 1345 – 1346.

19 – جوزف حرب: كلك عندي إلّا أنتِ: 67.
20 – نفسه: 103.
21 – جوزف حرب: أجمل ما في الأرض أن أبقى عليها: 96 – 97.
22 – نفسه: 155 – 156.
23 – نفسه: 155.
24 – نفسه: 158 – 159.
25 – نفسه: 159.
26 – نفسه: 161 – 162.
27 – نفسه: 163.
28 – نفسه: 164.
29 – نفسه: 164 – 165.
30 – نفسه: 169.
31 – جوزف حرب: الخصر والمزمار: 76 – 77.
32 – نفسه: 134.
33 – جوزف حرب: دواة المسك: 190 – 191 – 192 – 193.
34 – نفسه: 195.
35 – نفسه: 195 – 196.
36 – جوزف حرب: الخصر والمزمار: 220 – 221.
37 – جوزف حرب: المحبرة: 391 – 392 – 393.
38 – «أرجونا»: تلميذ كرشنا في إحدى الديانات الهندية القديمة: المحبرة: 377.
39 – جوزف حرب: المحبرة: 379 – 380.
40 – نفسه: 380 – 381.
41 – جوزف حرب: المحبرة: 11.
42 – نفسه: 12 – 13 – 14.
43 – د. نبيل أيوب – رئيس الجامعة اللبنانيّة – جوزف حرب إلى لقاء. من منشورات الحركة الثقافيّة في لبنان: 37 – 38.

44 - جوزف حرب: المحبرة: 16 – 17.
45 - د. نبيل أيوب: المرجع نفسه: 40 – 41 – 42.
46 - جوزف حرب: المحبرة: 46 – 47.
47 - نفسه: 19 – 20.
48 - نفسه: 21.
49 - نفسه: 296 – 297 – 298.
50 - نفسه: 304 – 305.
51 - نفسه: 389 – 390.
52 - نفسه: 1116 – 1117.
53 - نفسه: 1118.
54 - نفسه: 1119 – 1120.
55 - نفسه: 1121 – 1122 – 1123.
56 - نفسه: 87 – 88.
57 - نفسه: 89 – 90.
58 - نفسه: 126 – 127.
59 - نفسه: 491 – 492.
60 - نفسه: 492 – 493.
61 - نفسه: 493 – 494.
62 - نفسه: 1079 – 1080 – 1081.
63 - جوزف حرب: قلم واحد في ثلاث أصابع: 26 – 27.
64 - جوزف حرب: كم قديم غدًا: 8 – 9.
65 - جوزف حرب: الخصر والمزمار: 36 – 37.

الفصل الثالث

بين الشعر والطبيعة

1 - توحيد العلاقة بين الشاعر والفلّاح

2 - الطبيعة ديوان شعري

الفصل الثّالث

بين الشعر والطبيعة

1 - توحيد العلاقة بين الشاعر والفلّاح:

إنّ النــص الشــعري عند جوزف حرب، يوحّد حقيقــة المزارع، مع حقيقة الشاعر. وإذا المزارع الشاعر الرائي الشفيف، إنّ هذا التطابق الرؤيوي، بين الشاعر والمزارع، في النص الشــعري، ترك أثره فــي إثراء حقل الرؤيا، تعبر بالآني من عتمته، وكثافته إلى المضاء الشفيف. ومن معجم الرؤيا في النص، نذكر: «يلمح، رأى، يــرى، كاشــف، لمّاح، راءٍ كما الرائين...» وذلــك لإثبات فرضيّة التطابق الرؤيوي، حيث يلمح المزارع شجرة اللوز: زهورها متفتّحةٌ، وأغصانها مخضّرةٌ، منذ أن يغرســها. ويرى عنقود العنب كثرية الذهب، قبل مجيء فصل الصيف، وهو يتعمّق بالعريش، ويتذوّق نبيذه، قبل أن يعصر العناقيد، ويرى السنبلة ذهبًا، منذ بذرها في الحقل في باطن التراب، ويبصر عمل المقص، تشــذيبًا، وتقليمًا، كما سيرى الشجرة في المستقبل...

وهكذا، فيما ينجز المزارع الفعل، في كثافة التراب، وفي عتمته، يتراءى له الثمر مضيئًا، ملتمعًا، ناضجًا، تحت أشــعة الشمس ومن هنا يصبح المزارع عند جوزف حرب شاعر رؤيوي.

ولذلك نجد عند جوزف حرب، الدمج بين معجم الفلاح، ومعجم الشاعر في شبكه معجمية تهيمن على القصيدة كلّها. وإذا استعان الخيال المادي بتشكّل

نموذج «الشاعر» وتشكل «المزارع»، وصوَّر الخيال الحركي المزارع الرائي، فإنّ الخيال العلائقي هو الذي يتقدّم إلى الضوء، يرسم حضور كيان جديد، في كون الشاعر الخيالي، وهو الكيان المركّب للمزارع مدركًا بوصفه شاعرًا منذ ما وجد، غير أن وعي الشـاعر هذا به، لم ينكشـف في الضوء إلّا بعد وعي الشاعر لكيانه الشـعري. وعلى هذا، تتعذّر القراءة الأفقيّة الخالصة للشـاعر أو للمزارع، ومن ثمة يتراجع الخيال، المادي والحركي إلى الخلفيّة، ليشتعل الخيال العلائقي، ما يقضي بقراءة النص قراءة أفقيّة – عموديّة، حيث تتوالد، الإسـتعارات وتتقاطر، فتسـتبدل المفـردات الخاصة بفعـل الفلّاح وخاصيّته، بمفردات فعل الشـاعر ورؤياه، ما يعكس التطابق الحميمي بين الشاعر والفلّاح، ويسمح بالكشف عن خصوصيّة الأنا الخاص بجوزف حرب، وهي شـغفة برؤية المرغوب فيهم، في عالمـه الخيالي، في وضع مصالحة وتطابق ووحدة، ما يمكنهم من إجراء أفعال التبادل، وما يكشـف بالتالي عن شـعريّة جوزف حرب التـي تعنى كثيرًا برؤية المتشـابهات والمتطابقات، في عالمه الخيالـي، وهو العالم الذي يرغبه، حيث يجد سلامه البسيط، وعدله غير المركّب، وسموّه النقي. وهكذا، تتقاطع عناصر تشكّل المزارع مع عناصر تشكّل الشاعر، متجاوزين معًا الممارسة إلى الحلم.

وهكـذا: فالتـراب ورق، والقلم سـطر، والمحـراث ريشـه، والمعاول والمحاريـث، وقضبان الرمان أقلام، والوزن والإيقـاع والتّفاعيل موازنات في حـركات الحصاد، كما بين الحرّ والمياه، والغيم والشـمس. أمّا أجمل حفلات الشعر الطربيّة فتجري عند نظم السنابل، وإدارة الجوقة الموسيقيّة من قبل المياه القادمة إلى الطواحين لتدويرها، ومشاركة الطحين بمزماره، والرحى بدفّه. وأجمل البحور الراقصة عند الفلّاح ما كانت تفعيلاته من الحجارة المنظومة، وذلك عندما يبني الفلّاح – الشاعر جدران بيته وحفافي بساتينه حجرًا حجرًا. أمّا قصائد الفلّاح

فهي زرعه، وشـــجره، وحقول السنابل، والكروم، وبســـاتين التفّاح، إنّها أجمل نصوصه. أوراق ديوانه الإبداعي مركّبة من غمام وشـــمس وقمر. وديوان الفلّاح هـــذا لا يكتمل إلّا إذا أســـهم المطر في صياغته، وأمدتـــه ثقافة الفلّاح بالمعرفة الكونيّـــة: معرفة الجهات الأربع والوقت، ومعرفة أنواع الغيم، وســـيرة الشـــجر والمياه والينابيع، وعلوم الأعشاب والحجارة، ونوع التربة، وأنواع الظلال[1]...

ومـــن وحي هذا العنوان «توحيد العلاقة بين الشـــاعر والفلّاح» ندرك وعي الذات الشـــاعرة عند جوزف حرب، بنوعي الشـــعر: المـــوزون، والحديث غير الموزون ومنه قصيدة النثر، وهذا الوعي عنده انعكس إدراكًا حســـيًا تجسّـــد في قصيـــدة النثر الطبيعيّة؛ إذ نلمـــح تكافؤًا بين الأغصان والريح، من جهة، وأبيات الشـــعر، ووزنها من جهة ثانية ما يجسّـــد الشـــعر الموزون. لكن الخريف أرسل رياحه ليهزّ الشجر، فتتساقط أوراقه مؤلّفة قصيدة النثر، ما يجعل من هذه العملية الحسّـــية ميزانًا يكشـــف عن حكم «أنا» الشـــاعر لمصلحة الشعر الموزون، ضد قصيدة النثر، كما لو أنّها من فصول الشـــعر خريفه، ومن أوراق الشـــجر ما اصفرّ منه، ومن ألوان الهواء رياحها، وكما لو أنّ الإبداعي المنتظم بالوزن، من الشعر الحديث هو «الفوق» في ســـموّه الشـــفيف، أمّا غير المنتظم بالوزن، المتناثر هو «التحت» في ثقله الكثيف، وكلاهما له ما يعدله في الطبيعة:

كانت الأغصان أبياتًا من الشعر جميلهْ

وزنها من وزن بحر الريح خضراء طويلهْ

جاء الخريف متوّجًا بالريحْ

هزّ الصنوبر، والبتولا، هزّ حور السهلِ

هزّ الشيحْ

فتساقطت أبياتها فوق الثرى، فوق الحصى

في النهرْ

صارَتْ

قصيدة نثرْ[2] (فاعلاتن)

وهكذا عندما تحتشد عناصر المرغوب فيه، في عالم الشاعر الخيالي تتبادل الصفات والأفعال والماهية، فيصبح الفلّاح شاعرًا والشاعر فلّاحًا، وكذلك يصبح شاعرًا البحر، والشمس، والقمر. وبذلك تمتلئ الطبيعة بالقصائد وأبيات الشعر، وينمو الشعر فيها نموًا شبكيًا إشعاعيًا.

المعـــاول هي أقلام الفلّاحيـــن، والأرض محبرتهم، وعندما يخفّ اللمعان في رمحة المعول يعرفون أنّ الحبر قد نفذ، فيخرجون من الغيمة مفتاح المســـاء ويعودون إلى منازلهم وقد تركوا قصائدهم مكتوبةً على الأثلام.

ولمّا قلَّ في سِنِّ المعاول ذلك اللمعان، أدرك كلُّ

فلّاحي تراب الأرض أنّ الشمس قد بدأت تغيب. فأغلقوا

أقلامهم كي لا يضيع الملح منها. أطبقوا كل الحقول. وأخرجوا

من جيب غيمتهم مفاتيح المساء، وسكّروا فيها

محابرهم[3] (مفاعلتن)

الفلّاحون يكتبون الشـــعر في كلّ الفصول وأجمل أشـــعارهم ما نقرؤها في إسلات السنابل الباقية في الأرض بعد الحصاد:

بعد الحصادْ

تصبح في قريتنا كلّ الحقول صفحةً بيضاءْ

ويصبح القشُّ عليها أسطرًا،
ونقطًا ظلّ اليمامْ
والماعزُ الأسودُ،
والراعي، كلامْ[4] **(مستفعلن)**

بين الفلّاح والأشـــجار علاقة حميمة وتبـــادل بالعواطف والحركات، ولا تنتشي الأشجار وتطرب إلّا عندما يقترب منها الفلّاح ويداعب خصلها المتدليّة. وعند الفلّاح لكلّ شجرة تحيّة وكل الشجر ينحني له احترامًا ما عدا الزيتونة، فهو الذي ينحني لها لأنّها عنده شجرة مقدّسة:

تتذكّرونْ؟
في قريتي شجرٌ إذا الفلّاح مرّ به
انحنَتْ أغصانُهُ:
التينُ، العريشُ
اللّوزُ، واللّيمونْ
لكنْ
إذا ما مرّ بالزيتون قدّيس الملائكة
انحنى الفلّاحُ
للزيتونْ[5] **(متفاعلن)**

والفلّاح عند جوزف حرب ليس شـــاعرًا فحســـب، فهو قدّيس، أينما وضع يديه ينبت الخير، وتنمو البركة:

ويرفع الفلّاحْ
فلّاحُنا العصيُّ والعنيفْ

عن فمِهِ الإبريقْ

يرفعُهُ عن فمِهِ، أعلى فأعلى

يصبح الإبريقُ

غيمَهْ

تغدو يدُ الفلّاحِ ريحْ

ويفتح الفلّاح في الحقلِ

فَمَهْ

كأنّ فيه العشب، والصخورَ

والشجرْ

وينزلُ المطرْ[6] (مستفعلن)

من خصائص الشاعر الرائي استشراف الآتي وتصويره بالرؤيا وتذوّق الآتي وكأنّه اليوم. وهذا ما يفعله الفلّاح في حقوله، فهو يتذوّق النسغ في الأشجار ليعرف طعمها عندما تنضج، وهو الذي يختار التراب المناسب لكلّ نوعٍ من الأشجار، وهو الذي يعرف المناخ والطقس من رؤيته للأفق، ورؤيته لشكل الغيوم ولونها، وكل هذه الرؤى كانت تشغل تفكيره وهو يحدّث الموقد في سهراته.

كان يناديه ترابٌ غامضُ النبرةِ

لمّا كان يسهرْ

كان يذوق النسغ في الأشجار

كي يعرف طعم الثمر الآتي

فإن سال كنسغ الغصن في دفلى براري الأرضِ

صمْغِيًا ومرًّا

كان سكَّرْ

وكان يختار التراب أسودًا للبرتقال، أبيضًا

للتين والزيتون، إذ يأتي المذاق في الثمار طيبًا

واللون في الأوراقِ

أخضرْ

كان يصحِّحْ، وينقِّحْ

كان – مساءً – بغمامات العشايا

يتبحّرْ

يعرف أنّ الريحَ عند الصبح قد تمطرُ

إن كان غمامُ الأفْقِ

أحمرْ

كان يرى عنقود آبٍ وهو في تشرينَ

أو يلمح لوزات الحفافي وهي ما زالَتْ

بعيدهْ

ما كان يومًا كاتبًا للشعر. لكنْ،

هكذا علّمني جدّي

أسرار القصيدهْ[7] (مستفعلن)

2 – الطبيعة ديوانٌ شعريٌّ:

في شـــعر جوزف حرب تشـــابك، وتفاعل، وتطابق إلى حدٍ كبير بين الشعر والطبيعة. يرى جوزف حرب بأنّ مشـــهد الحقـــول بعد الحصاد هو قصيدة. في الحقل المحصود، وجه التراب المغطّى ببقايا أسلات القمح يبدو صفحة بيضاء، والقش أســـطرًا، وظلال العصافير والطيور التي تحوم فوق الحقل لتلتقط الحب نقطًا أو علامات وقف، والماعز الأسود وهو يرعى قلم حبرٍ وكتابةً والراعي كلام القصيـــدة. كلّ حقلٍ في القرية يصبح قصيدة بعد الحصاد: «بعد الحصاد، تصبح في قريتنا كل الحقول، صفحة بيضاء، ويصبح القشّ عليها أســـطرًا / ونقطًا ظلّ اليمام / والماعز الأسود / والراعي كلام»[8].

وفي نصّه «بيت شـــعر» مشهد الساقية بيت شـــعرٍ قافيته العشب الذي ينبت على حافتيها:

ساقيهْ
بيتُ شعرٍ
غيمةٌ ذائبةٌ، والأقحوان الهفّ، أو دِفْلى
خيام الماء، أو عشب الحفافي
قافيهْ[9] **(فاعلاتن)**

وفي «موج» يرى في كلّ موجة بيتًا من الشعر لأنّه يوازن بوعيه الشعري بين حركـــة الموج مراقبًا عودويّته المتكررة من جهة، وأبيات القصائد من جهة ثانية، فيلمح تطابقًا بين الطرفين.

الماء في البحرِ

كلامْ

أزرقُ

والشاطئ قارئْ

ضوّأْ

سراجَهُ كي يفتحَ البحرَ

ويقرأْ

في كلّ موجةٍ

تخطُّها يدُ البحرِ

بيتًا من الشعر[10] (فاعلاتن)

وفي النص التالي يبصر جوزف حرب في البحر شاعرًا يعاني، تؤرقه الولادة الشـــعريّة، فيستحضر خياله المادي مشـــهده في مرحلة المخاض بوصفه شاعرًا يجهد لإخراج معاناته، ويســـعى إلى الإظهار الشعري، لكن بقلق، وقد تراءى له أنّه يبصر هذا المشهد في وضعيّة البحر:

والبحر يُمضي الليلَ

يكتب ثمّ يمحو

لا رؤى تأتي

ولا لغةٌ بها ذهبٌ بأيدي صاغية

والمفردات يظنّها جمرًا

ويخشى وهو يُشعلها من العود

القليل الوهج فيها والرمادْ

صعبٌ على البحرِ الوصول.

وكم تغوص بروحه الحمراء عاصفة
الكآبةْ
لمّا تعذِّبُهُ
الكتابةْ
ولكن البحر يلد قصيدته بعد مخاض:
إقرأْ
ثمّ تصعد على يد البحر
السحابَةْ[11] (متفاعلن)

وهكذا الأنا الشـعري عند جوزف حرب يسـتكمل المشهد الحسّي لعمليّة الإظهار والانتشـار، باسـتحضار تشكّل نموذج الطبع والنشر، عبر نموّ، أو توالدٍ خطيٍّ، فيصدر البحر الشـاعر ديوان المطر، عن دار نشر الأفق الذي أصدر، قبل ديوان البحر، ديوانًا للشمس، وآخر للقمر:

عن دار نشر الأفق
حيث الشمس أصدرت الغروب
وحيث لون الرسوم الزرق
ديوان القمرْ
صدرت مزيّنة الغلاف
بغيمة ومسافرين الطبعة الأولى
لديوان المطرْ.

ثمّ يستكمل حرب المشهد بتشكّل نموذج «القارئ» وإذا هو «التراب»:

قرأ الترابُ قصائدَ البحرِ الجديدةَ

والترابُ بلا قميصٍ كان
أصبح يملكُ القمحَ المذهَّبَ
والبنفسج والشجرْ
أعطى جداولَ للرعاة
وتاج عشبٍ
للحجرْ[12] (متفاعلن)

ولم يترك جوزف حرب ظاهرة في الطبيعة إلّا وقرأها واكتشف قصائدها:

ورجعْتُ أقرأ في النهار، وفي
الرياح، وفي الكواكب والترابِ
رجعْتُ أقرأ في المياهْ.

لقد وجد جوزف حرب بأنّ نص المياه قصيدة متعدّدة الأوزان والإيقاعات المتداخلة في بعضها وكلها من ملحمة البحر:

نصُّ المياه قصيدة تتعدّد الأوزان فيها
وزن بحرٍ، وزن غيمٍ. وزن ساقيةٍ
ووزنا جملتَيْ مطرٍ ونبع. كلّ وزنٍ داخلٌ في آخرٍ
حتّى غدا الإيقاع أكثر دقّةً وتنوّعًا. فالرعد
والمطرُ الغريفُ، وزمهريرُ الريح، والبرقُ البهيُّ الوَمْضِ
إيقاعات حالاتٍ بروح الماء، قد ظهرت بوزن الغيمِ
وزنُ البحر تلقى منه إيقاعًا لهمهمةٍ بوزن النبع
والتّفعيلة الخضراء في وزن السواقي استُعْمِلَتْ
في بعض وزن النهر ذي التفعيلةِ الشجريّةِ الإيقاعِ.

لا إيقاعَ

لم يدخلْ سواهُ[13] **(متفاعلن)**

يعتقد جوزف حرب أن البحر هو أصل الخليقة، وهو أصل المياه ومصدرها: يتبخّر غيمًا والغيم يتساقط مطرًا والمطر يتجمّع في باطن الأرض ثمّ يتفجّر أنهارًا وينابيع وســواقي وعيونًا. وكل اخضرار الطبيعة وثمارها وحبوبها من المطر أي من البحر:

وُلِدَ الجميعُ من المياهِ.

وعندما يعلو السحاب، يُحَمِّلُ البحرُ

العظيمُ سحابَهُ صورَ الجميعِ

يقولُ للريحِ:

ارسمي صور الخليقة كلّها في ذا السحابِ

لا شيء إلّا وارسميهِ بذا السحابِ

من القلاع إلى المآتمِ. من مسا الراعي

إلى نايٍ على

شفة الحجرْ

وخذي المماحي بعدها،

وامحي الصّورْ

ثمّ استعدي

للسفرْ

عَبْرَ السماءِ. وحوّلي كلَّ

السحابِ

إلى مطرْ[14]   (متفاعلن)

ويتابع جوزف حرب رؤياه، فإذا البحر ينادي الشمس ويدعوها لكي تزوّج نورها لمياهه فيعمّ الخير على جميع المخلوقات وخصوصًا الفقراء والضعفاء:

البحرُ نادى الشمس
ذات مسًا
«تعالي زوّجي مائي لنورِكِ،
ينجبا غيمًا سأرسله إلى وادٍ عميقِ»
زوَّجا ماءً ونورًا
أنجبا غيمًا
فقال البحرُ للريحِ:
احمليهِ لأرض وادٍ
فيه أمّ قد توفّاها اليباسُ، وقربَها طفلٌ
رضيعٌ، وجهُهُ يعلوه نيليُّ النعاسِ
فأسرعَتْ بالغيمِ ريحُ البحر حتّى
أوصلتْهُ لذلك الوادي، فأمطر فوق وجه الطفلِ
حتّى اخضرّ.   (متفاعلن)

وهكذا فالكائنات في الطبيعة هي أرواح تتحادث، وتتزاوج، والأهم من هذا كلّه، تنظر إلى البعيد الآتي، إلى القضاء على اليباس، لتحيا الطبيعة، ويحيا الناس بالمطر. وهنا يتطابق دور الطبيعة الرائية، مع دور الشـعر الرائي، الذي يستشرف الآتي، بمطر رؤياه، وسنابل حكمته.

وفي نصّ «الشـمس» تصبح الطبيعة عند شـروق الشمس قصيدةً متوهجةً

بالنــور. ظــلال الغيوم على الأرض كلامٌ، ومنظر الشــجر الذي تتراقص حبّات الماس على أوراقه، وخرير الســواقي، والأنهار، وآهات السنونو، جُمَلٌ شاعريّةٌ في نصِّ الطبيعة.

يطلُّ النهارْ
كعصفور جَمْرٍ
وطارْ
فلا ليلَ بعدُ، وما الشمس إلّا
القراءةُ
ما الغيمُ
إلّا الكلامُ بخطٍّ من الظلِّ
ما إن ترى صفحة الصبح حتّى
تشاهدَ أوّلَ نصِّ الوجودِ المؤلَّفِ من جُمَلِ الشّجرِ
الشاعريِّ
ونهر البراريْ
ومدَّاتِ كلِّ الحقولِ بآهِ السنونو، وزرقةِ
تلك السمواتِ حيث تظنُّ المياه مرايا لها ألّفَتْ
زُرقةَ قمصانِ رقصِ البحارْ
وتبدو ليَ الأرضُ
لوحةَ رسّامِ نارْ[15] **(فعولن)**

إنّ هذا المشــهد يســكر جوزف حرب، فيخرج فكره من جدار الواقع، ويحلّق برؤياه إلى البعيد، البعيد، باحثًا عن مصدر هذه الأسرار، التي يخبّئها الكون في كائناته.

وذا الأفْقُ يبدو جدارْ
تُعلِّقُها فوقه الريحُ حتّى
يغيبَ النهارْ
تُرى
كيف يصعدُ هذا النبت؟ هل
في الصخور أمومةُ هذي الينابيعِ؟
كيف يَتِمُّ لعصفورةٍ أن تطيرَ؟
وكيف تظنُّ الشُّعاعَ على الماءِ
شال خرزْ
وكيف تدورُ
بين أكفِّ الورقْ
يواقيتُ هذا الكرزْ[16] **(فعولن)**

ويمضي شاعرنا في رؤياه في شبكةٍ من التساؤلات الكونيّة علّه يهتدي إلى مصادر هذه الحركة في الطبيعة التي تجعل من القشّ بيتًا من الشعر، ومن الحجر رؤيا لا يستحقها في الحياة إلّا الشعراء:

تُرى
أيُّ سرٍّ بذا النَّصِّ يجعل حتّى
من القشِّ بيتًا من الشعر؟ والحجر الغامق الفتِّ
في مَتْرِكِ الوعر رؤيا
عجيبٌ هو الكونُ
حتّى إلى حدّ أنّك لا تستحقُّ الحياةَ إذا لم تكن

شاعرًا[17] (فعولن)

والشّـــمس كالشـــعر، نورها ســـبب في غموض عميق، وهذا الغموض هو الحافز الذي يدفع الشـــعراء الرائين للبحث عن أســـراره ولا يجدون إلّا الحدس لأنّ الحواس غير قادرة على رؤية ما لا يرى.

وما الشمس؟
ليست تنير إذا لم يكن نورها سببًا في غموض عميق،
يعيد الوضوح لكحليّهِ، يحفر النوم، يجعل للسرِّ
بابًا، وينسى من الباب مفتاحَهُ
وزَّعَتْ شمسُ هذا النهار أباريق ألوانها.
شربَ الكلُّ. طافت على الكلّ في ريحها، رقص الكلُّ
والكلُّ أنشد حتّى علا الموجُ، وانتشرَتْ أجنُحُ الطيرِ،
والورقُ الشجريُّ تحَفّفَ
يا للنشيد العظيم!!![18] (فعولن)

وهكـــذا فالطبيعـــة قصيدة متناســـقة. العناصر فيها متداخلـــة، ومتكاملة في انسجامها، وجمالها، ولا يشعر بذلك إلّا الشاعر لأنّه وحده من يعي هذه القصيدة لأنّه من روحها:

وكنت أنا أوّل المنشدين، وقد حلَّ
فيَّ الجميعُ ليخرج منّي امتدادًا لروحي
وإلّا
فلا شيء يَعْقِلُ، يدركُ، يوحى إليه،
سوايَ.

فكي لا أحِسَّ
بغربةِ أنّي وحيدٌ
توهَّمْتُ أنّي سقيْتُ العناصر إكسير روحي
فصارَتْ
وقد ذبْتُ فيها[19] (فعولن)

الطبيعة في شعر جوزف حرب ملاحم، تروي لنا حكاية الأرض، والشمس، والقمر والريح، والمطر والغيم والشجر...

وكل هذه الكائنات تتبادل فيما بينها أدوار الأخذ والعطاء حتى تبلغ مرحلة التجانس والتكامل. فالشمس ملكٌ والشجر عسكره الذي يحيط به ويحرسه:

شمسُ الفَلَكْ
مَلَكْ
وبحرُهُ المحاطْ
بالبرّ من عسكر شيحٍ
كالنقاطْ بلاطْ[20] (مستفعلن)

وفي شـــهر أيلول من كل عام، تستعد الطبيعة للاحتفال بعيد المطر، فاليمام هو الجوقة الموسيقيّة، والغمام يزيّن الأفق بلونه الأبيض وفي المساء يطلق البرق الألعاب الناريّة في الفضاء، وعاد البجع من جديد، ليشارك في الإحتفال، والشجر أشعل الشمع على أغصانه، والليل أشعل القمر مصباحًا فضيًا.

كلَّ عامْ
يرتدي ناياتِهِ

في شهرِ أيلولَ اليمامْ

وعلى الآفاق تبدو زينةً بيضاءَ

أقواسُ الغمامْ

والمساءْ

يكتسي من برقِهِ

ألعابَهُ الناريّةَ الحمراءَ والصفراءَ والزرقاءْ

والبجعْ لابسًا لونَ البحيراتِ رَجَعْ

والشجرْ

أشعلَ الشَّمْعَ على عيدانِهِ

واشتمَّ عطرَ البردِ في الريحِ الحجرْ

إنّه

واللَّيلُ قد ضوّأ قِنديلَ القمرْ

عيدُ ميلادِ المطرْ[21] **(فاعلن)**

فالطبيعــة في عيد ميلاد المطر تســتحضر كل عناصرها لتحتفل بالمطر في هذا الجو الشاعري الجميل. هذه الغيوم المعلّقة في السماء بلونها الرمادي الذي يرســمه الشــتاء هي معرضٌ حافل باللوحات التي تجذبنا إليها لما فيها من فنٍ وإبداع:

هذي الغيومْ

معلقاتٌ فوق جدران السماءْ

لوحاتِ رسمٍ من رمادٍ فاتحٍ

صاحبها الشتاءْ.

وها أنا في الأُفْقِ أحضرُ افتتاح

معرض الغيوم، حيث الريحُ في

مقصٍّ ماءْ

تقصّ عند المدخلِ

الشريطةَ البيضاءْ

في قاعةِ المساءْ[22] **(مستفعلن)**

وفي أيلول تحضر الكائنات وتصعد إلى المســرح حاملةً آلاتها الموســقيّة ويبدأ العزف: يعزفون لحن ماءٍ ألّفته الريح:

وتصعد الأشياءْ

مسرحَ أيلولْ

حاملةً آلاتها.

يصعد عازف المياهِ النهرُ

تصعد الطيورُ

يصعد الشجرْ

وتصعد الحقول والغيومْ

وتصبح الأشياء عازفينْ

يقودهم عند المساءِ

في عصاه الشيخْ

ويعزفون لحنَ ماءٍ

أَلَّفَتْهُ الريحْ[23] **(مستفعلن)**

وهكــذا تصبح الطبيعة مصدر الإبداع الكوني شــعرًا ونثرًا ورســمًا وعزفًا

وغناءً وليســت ديوان شــعرٍ فحســب ولا يدرك هذه الحقيقة إلّا شاعر مبدع من وزن جوزف حرب.

وفي نصّ «العاقل»[24] يتوحّد الشــاعر فــي إبداعه، مع الطبيعة، في روعتها الوجوديّــة، التــي تخلب الألباب. وهذه الروعة تســحر جوزف حرب، وتدفعه لمخاطبة هذا الوجود، متســائلًا عن أســراره، في تحوّلاته، وفي انتظامه، بدورة حياته، ليلًا ونهارًا، وصيفًا وشتاءً، وشمسًا في النهار، وقمرًا ونجومًا في الليل... هذا الخلق رؤياه من محبرته، ولكن هذه الرؤيا ليست على صورته، فهذا الخلق لا يحب السكون، فهو ينهد دائمًا إلى غدٍ يكون فيه أعظم وأجمل.

أيا مَنْ دواتُكَ حبرُ رياحِكَ
والقلمُ المصطفى
ريشُ عصفورتِكْ
نصوصُكَ ليست على
صورتِكْ[25] (فعولن)

إذًا هــذا الكون هو شــاعر راءٍ يحلــم دائمًا بالتجدّد والتغيّر. أليســت هذه المواصفــات هــي ذاتها التي ينبغي أن تكون في الشــاعر الآدمي الرائي؟ إذًا من يخاطب جوزف حرب؟ الكون أم الشاعر؟

فما أنت إلّا الذي في غماماتكَ
الستّ. لم يبقَ شيءٌ يسمّونه أنت خارج هذي
القصائد.
إنّكَ ملحٌ
وذابَتْ بريشةِ مائِكَ[26] (فعولن)

إنّ هذا التوحّد العميق، بين الطبيعة والشـاعر، وحّد المصطلحات اللغويّة بينهما، ووحّد رؤيتهما في التعامل مع النص. بالنسـبة للقارئ، يكون النصّ هو الشاعر من خلال قصائده، وليس من خلال شخصه، وروعة الخلق تبدو لنا من خلال جمال عناصره، لا من خلال مصدر وجوده.

لا يومَ كي تستريح لكي يغتدي
سابعًا، إنّه خللٌ في البدايات. فامحُ المغنّينَ
والراقصاتِ، ورُدَّ لتلك الجرارِ
المعتَّقَ من خمرتِكْ[27] **(فعولن)**

إنّ المفكّر الذي يتمعّن في هذا الوجود عليه أن يكون رصينًا وجدّيًا ومثابرًا ومبدعًا في رؤاه التي تكون خمرتها من الخوابي المعتّقة.

نصوصك ليست على
صورتِكْ
ولكنْ نصوصُكَ
أنت، بمحبرتِكْ
لقد كنْتَ كرمًا، وقد صرت يا كرمُ
هذا النبيذَ
بمعصرتِكْ
فليسَتْ نصوصُكَ إلّاكَ
ليسَتْ على صورتِكْ[28] **(فعولن)**

أيّها الوجود، إنّ صورتك التي نراها اليوم، ليست صورتك الأصليّة، ولكنّها أنــت حيــن انفجارك وتحوّلك، وتناثرك في هذا الفلك. وأنت أيّها الشــاعر، إنّ

نصوصــك تختلف باختلاف مزاجك، ونســبة توترك وقلقك، وانفجارك، ولكن يبقى في رماد هذه النصوص آثار معدنك.

وقد جاء هذا الوجود. فلو أُرْجِعَتْ كلُّ أشيائه
من أماكنها في الزمان إلى أصلها في
محارِكْ
لَتَمَّ لديّ اكتشافُكَ من أنت.
أو كيف قد كنت قبل الوجود الذي ليس
صورته أنت، ولكنّه أنت
إثرَ انفجارِكْ[29] (فعولن)

أيّها الكون، ما زلت أقرأ روائح قصائدك الموقّعة على أوزان بحورك الأثيريّة، والمائيّة، والشجريّة، والعشبيّة....

روائع هذا الذي قد قرأتُ
روائعُ من كاهنِ العشبِ حتى
غروبِ نهارِكْ[30] (فعولن)

أيّها الكون، الشمس في صحنك جمرة، تبعث رمادها غيومًا، تتزاوج في السماء، فتنجب المطر، والرياحين على الأرض، مجامر يتسامى بخورها، ويضوع في الأجواء.

وقد أصبح الغيم فيه رمادًا
ترى فوقه الشمس كالقرص
في جمرتِكْ[31] (فعولن)

كــم هو رائع هذا الوجود! من أيــن نبدأ من روائعه؟ هل نبدأ بالنحل الذي

يقبّل الأزهار، فيعود محمّلًا بالشهد، أو من عشبة الحقل التي تغفو فوق التراب، كالطفل الذي ينام على ذراعي أمه، ثمّ نصعد إلى الكواكب والنجوم حتّى نسكر من خمرة هذه الملحمة، الكونيّة!

بمن سوف أبدأ
بالنحلِ؟ أو عشبةِ الحقلِ
كي أتصاعد من بعد نحو الكواكب، حتّى أقولَ:
لكم هو عالي التناسق هذا الوجود، فمن أيِّ
شيءٍ بدأتُ، أُصِبْتُ بروعةِ ما هو فيه
من الحسنِ، والسرِّ، والسبكِ
والدقّةِ الأبديّةِ في صنعِ ما لا يُعدُّ
ولا يُحصى[32] (فعولن)

وشـــعر الطبيعة، كلّ خصائص الشـــعر الفنّية، من خيالٍ، وحدسٍ، وتشابيه، واســـتعارات، وكنايات، وكل أنواع المجاز، ليست موجودة فيه، لأنّه مصدر كل هذه الخصائص، التي يلجأ إليها الشعراء، في محاكاة هذه الصور الطبيعيّة الخلّاقة.

وأروعُ ما قدْ وجدْتُ بنصِّكَ
أنَّ بِهِ البِدْعَ فوق جميع البدائع، بالرغم من أنّه
لا استعارة فيه، ولا حدس،
ولا صورةٌ ولا خيالٌ
ولم يتوكّأ على أيّ تشبيه معنى.
وأنْ لا مجازَ، ولا وحيَ،
لا صفةٌ، أو كنايات[33] (فعولن)

وجوزف حرب كعادته، لا شيء في هذا الوجود الساحر، له قيمة إلّا بوجود الإنسان الذي وحده، يعطيه هذه القيمة، فهو من يكتشفها ويقدّرها، ويتجمّل بها، ويستوحي منها، ثمّ يضيف إليها من بنات أفكاره، ما ليس فيها.

لكنْ
يُلِحُّ عليَّ سؤالٌ
هل البِدْعُ تدريه فيه؟ ويدريه في نفسه؟
أم لأنّي أعْقِلُ أدريه وحدي؟
وأدري بأنّي أُخلّيه أبهى، لأنّي الوحيد الذي
يستعيرُ، يكنِّي، يشبِّهُ
يعرفُ ما ليس فيه، يُضيفُ، يولِّدُ، يكشفُ
يغدو الوجودْ
إذا لم أكن فيهِ
غيرَ الوجودْ[34] **(فعولن)**

مهما كان الشيء جميلًا وساحرًا، فإنّه يبقى عدمًا، كأنّه غير موجود، إذا لم يخرج إلى الرؤية، ولم يجد من ينبهر به، ويشعر بروعته، وهذه الروعة هي التي تبعث بالمبدعين الطاقة الفنّية الرائية، فتأخذ من هذه الروعة ما فيها، ولكنّها لا تكتفي بها، بل تضيف إليها، وتتجاوزها إلى الأروع، لأنّ رسالة الإنسان، في هذا الوجود هي فهم هذا الكون، واكتشاف قوانينه للسيطرة عليه، وتكييفه تبعًا لمصالحه الحياتيّة الفضلى.

فوحدي أنمو، ووحدي أرقى
ووحدي أموت وأحيا

لأنّي أعرف وحدي
لأنّي أعْقِلُ أختار
وحدي حرٌّ.
ووحدي أجيب وأسألُ
وحدي أسير مع الأبد المقبل
إلى الأزل الأوّلِ
بهذا المدى
فاتحًا كلّ بابٍ به مقفلِ[35]

ويعترف جوزف حرب بعظمة هذا الكون ولكنّه يؤكّد بأنّ دور الإنسان لا قيمة له في هذا الوجود إلّا بقدر ما يكتشف من أسرار هذا الكون، وتفكيك رموزه. ويعترف أيضًا بأنّ الطريق طريق ضعيفٍ ليقوى، وأعمى ليبصر ويدرك، وأدنى ليرتفع، وعبدٍ ليصبح حرًّا وخطّاءٍ لينقى:

بأنَّ طريقي طريقُ ضعيفٍ ليقوى،
وأعمى ليدري، وأدنى ليسمو
وعبدٍ ليغدو حرًّا، وبيتٍ مليءٍ خطايا
ليصبح بيتًا نقيْ
وما حُلُمي غير أنّي أرقى
عليَّ، وأمضي مشوقًا
إلى المطلق لكي نلتقي[36] **(فعولن)**

القمر في الليل هو شاعر الطبيعة الأوّل، الذي يضيء بنوره عتمتها، ويرخي أشعّته الفضيّة، على كائناتها، لتصبح قصيدة في منتهى الجمال والكمال.

كما في افتتاحيّة البرقِ
أو في اختباء الحمامْ
دليلٌ على أنّه سوف يمطرُ
هذا الغمامْ[37] (فعولن)

إنّ الليل بعتمته لا يمحو الأشياء، ولكن في جعبته كلام كثير، وخير الكلام ما جاء بياضه، في وقت سوادنا. وهذا الليل لا يخيف كائنات الطبيعة، ولا يخيف من البشر إلّا من ألبس الشيء أشباحه.

أطلَّ الظلامْ
فلم يمحُ شيئًا. فما الليلُ
ليلُ المماحي. ولكنّها العينُ أُخفيَ
عنها الكلامْ
هو النورُ، لكنّه في الغياب. ولونُ انتظارك
للنور أسودُ، كالجفنِ لامسَ جفنًا، وما لاحَ
طيفٌ عليه
ولا هو نامْ
هو الليل
ليس يخيف النبات، ولا الطير، والوحش،
ليس يُخيفُ المياهَ
يُخيفُ الذي يُلْبِسُ الشيءَ أشباحَهُ[38]

وفي الليل تُشْعِرُ الطبيعة قصائد سمعيّة، إيقاعاتها حفيف الشجر، وخرير المياه، ودندنة الريح الخفيفة، ونقيق الضفادع... ويضفي السكون سحره على

المكان، وكل شيء يكاد ينبئنا بأنّ أمرًا سيحدث بعد قليل.

وذاتَ مساءْ
ولا شيء إلّا السواد، سمعت كمن هو يخطو
على ورق الغصن، أو هو ينسجُ غيمَ
قميصِ الهواءْ
ويقطر نقطة صحوٍ
بعين الشتاءْ
ويَهْدِلُ إنْ هو حَفَّ، ويُؤنِسُ إنْ هو طافَ.
وإنْ كان ريحًا تهَفْهَفَ، غصنًا
تميَّدَ، وانهلَّ إنْ كان ماءْ[39] (فعولن)

الأرض وكل كائنات الطبيعة تستعد لاستقبال أمير الليل... سيطلّ بقرصه الفضي من خلف الجبل الشرقي، وسيتلو علينا قصيدة نور الشمس المخيم على صفحته. إنّه القمر يطلّ بموكبه المهيب وخلفه حاشيته من الغمام:

أطلَّ مهيبًا، كأنَّ الغمامَ تلاميذُهُ
خلفه، يرتدون هفافًا طويلًا، ويمشون
إثَرِ نبيٍّ
من الأنبياءْ
وإذ بنشيدٍ من الأرض يعلو
ترافقُهُ فِضَّةٌ لوّنَتْ كلَّ هذا السوادِ
ومملكةٌ فتَّحَتْ كجناحِ ملاكٍ تذوَّبَ
فابيضَّ منهُ الهواءْ

ومن سُدَّةٍ، فوقُ، بين سحاب السماءْ

بهيًّا.

له هالةٌ من لُجَيْنٍ كشمسٍ على القمح

بعد المطرْ

وتدويرةٌ كمرايا البحيرة ماجت عليها

ظلالُ الشجرْ

أطلَّ

القمرْ![40] (فعولن)

وهذا الجو الشاعري خيّم على البشر والشجر والحجر وتلوَّتْ بشهوتها شجرات الحقول، وغطّ فم الريح فوق نهود الينابيع وامتصّها وبدا كلّ شيءٍ ناعمًا، ناعسًا، راقصًا وهكذا أنقذ القمر الأرواح من عتمتها.

أُوَيْهَاتُ أنثى. ووحيٌّ بأجنحةٍ. وملائكُ

يجلِسْنَ عند سواقي النعاسِ

فيا حاكم الليل،

يا منقذَ الروحِ من عتمِها

فضة كان حبرُ الديانات.

لوح شرائعك السِّحْرُ

أولى القصائد كانت بضوئك

قاضيك كان الرُّقى، والتعاويذَ.

لا طقسَ للعشق إلّا وكاهنُهُ أنت

لا حدسَ، لا صورةَ، أو رؤًى

لا شمعدانَ على عتمةِ الروحِ إلّا لأنّك
حوَّلْتَ هذا السوادَ إلى غامضٍ شاعريٍّ[41] (فعولن)

ويبدع جوزف حرب في الحديث إلى القمر، ويفيض حبره بجرعاتٍ حميمة منتزعة من روحه الشاعريّة الشفّافة:

تفيض الأمومة منك. يداك كأخصر
أنثى الخصوبة. أُبحرُ فيكَ
لأعماق نفسي.
وفي الشمس أُبحر في حقل زرعي إلى جسدي.
والذي خبَّأتَهُ بصندوقك الشمس، وزَّعَتْهُ
فضةً من سلامٍ على الكائناتِ
ونومًا لطيفًا
طمأنينةً من سعاة السواد
أساطيرَ، جنًّا، شعائرَ
من صاغ هذا؟
أنا؟ أم يداكَ؟[42] (فعولن)

ولكن شاعريّة الطبيعة لا قيمة لها، ولا مبرر لوجودها، لولا الإنسان الذي، وحده يدركها ويسحب عليها ما يسحبه على نفسه من العواطف والمشاعر والتصوير الشاعري. ولهذا يعود ليطلب من هذا القمر شاعر الليل أن يقوم عن السدّة الملكيّة الأبديّة وأن يضع تاج الخليقة على رأس الشاعر الإنسان.

يا أيّها القمرُ الملكيُّ، ونحن بموكبنا صاعدون إليكَ
ورائي الجميعُ، البحارُ، الجبالُ، الطيورُ

الضواري، النباتُ، الزواحفُ
أبعادُ هذي السماء العميقهْ
ولكنَّ وحدي الذي يُدركُ السِّرَّ
يدري الحقيقهْ
فقُمْ أيّها القمرُ الملكيُّ عن السُّدَّةِ الأبديّة
بعد الغروبِ، وضَعْ فوق رأسي
تاجَ الخليقهْ[43] **(فعولن)**

وهكذا في كلّ شـــيءٍ في الطبيعة تســـكن الأرواح، فالغصن رقصٌ، والمياه مســـافرون، وسنديان الســـهل راعٍ، والرياح على ضريحٍ راقدٍ فيه الخريف نواح، وكل الأصـــوات، والحفيف، والهمســـات والصفير، قصائـــد من فصول ملحمة الطبيعـــة. في هـــذه الملحمة، كل عنصرٍ يؤدّي دوره بصدق، وإتقان، وفي الزمان والمكان المحدّدين.

وبين الإنسان والطبيعة، حوار دائم، بدأ منذ الأزل، وما زال يتطوّر، ويتهذّب، ويكتشف سرًا من الأسرار.

الطبيعة هي شاعر حكيم يعلّمنا دروسًا في الحكمة، يهذّب أخلاقنا، يسمو بنا إلى المثل العليا، يزرع في نفوسنا الرحمة والمغفرة، والتّسامح، والصبر، والزهد، والعطاء قبل شهوة الأخذ:

في كلّ شيءٍ تسكن الأرواحْ
في النبت. في هذا الثرى، في كلّ ما قد دبّ فوق
الأرض. أو في كلِّ نارٍ، كلّ من هو عاقل، في كلِّ عتمٍ
غامرٍ

وجناحْ
لا تذهبْ إلى حربٍ. وإنَّ الدودةَ اللا ظلَّ فيها
مثلها عندي كمثل النور
في المصباحْ
سِرْ واكْنُسِ الدربَ التي تمشي عليها.
جُعْ إلى حدِّ انتحارِكَ جائعًا
فالموت من جوعٍ أشدُّ قداسةً ممَّا يُسمّى الموت.
لا تأبه لأيّ لذّةٍ في الأرضِ أو ألمٍ
وآمنْ أنَّ لا أشياء لا تُصغي لروحِ الكون[44] (مستفعلن)

وبــرأي جــوزف حرب: إنّنا ما زلنا في علاقتنا مع الطبيعة في مرحلة التأمّل ولم نصل إلى الكلام بعدُ.

عِشْ جائعًا، واصمتْ
فإنّ الصمت للمتأمّلين. ولم يجد أحدٌ حقيقة
أيّ شيءٍ. إنّ أفكاري تعاني حيرة الأمواجِ
أو قَلَقَ الغمامْ
فاصمتْ معًا. لم نستطعْ بعدُ الوصول
إلى الكلامْ[45] (مستفعلن)

والشاعر الكبير هو من يأخذ حبره من أزهار الطبيعة حتّى يأتي شعره أريجًا للمتعبين:

الشاعر الأجملُ في الدنيا
فلا الكلام نُسَّاكٌ، ولا الأوراق للحبر

حصيرْ
له سطورٌ، كغصونِ اللوزِ في الحقلِ
يغطُّ الحبرُ عصفورًا عليها
ويطيرْ[46] **(مستفعلن)**

وتبقى الطبيعة عند جوزف حرب هي الشـــاعر الأوّل الذي ينشــر قصائده ويذوّبهـــا فـــي عناصر الكـــون. وكلّ عامٍ يمزّق قصائده ويعـــود لكتابتها مجددًا: [الكامل والقافية من المتراكب]

هذي البراري الغيمُ صاحبُها	**ودواتُـــهُ، فيهـــا يذوِّبُهـــا**
يمضي شـــهورًا فـــي كتابتِها	**وَكَوَشْـــيِ شـــيراز يرتِّبُهـــا**
كزمـــرّدٍ يجـــري بأخضرِهـــا	**ولخمرِ ديرِ النَّـايِ يسكبُها**
والـــوردُ يعصرُ فيـــه حمرتَهُ	**شمسًـــا عليهـــا ذابَ مغرِبُهـــا**
يمحو، ويحذِفُ أو يُنَقِّح كيْ	**يبقـى بهـا فـي الريـحِ أطيبُهـا**
إذا مضـــى عـــامٌ يمزِّقُهـــا	**برياحِـــهِ، ويعـــودُ يكتُبُهـــا**[47]

وفي شعر جوزف حرب محطّات رومنطيقيّة حميمة حين يعكس حزنه على كائنات الطبيعة لتشاركه هذا الحزن، وتشعر بألمه.

كلُّ شيءٍ فيَّ
هذا الأفْقُ أعطاني جبينَهْ
ولأنّي غارقٌ بالحزنِ، تعلو هذه
الأشجارُ في السَّهلِ حزينَهْ

فتَّحَتْ فيَّ الكواكبْ
وبأعماقي ملّاحٌ
وبحرٌ، ومراكبْ.
ويدي كالورقِ الصيفيِّ في الكرمِ. ووجهي كغروبٍ
وَكَبَرٍّ غامضٍ أطلق في الزرقةِ
طيرَهْ
خَفْقُ أشعاري ونومي كبحيرهْ[48] (فاعلاتن)

وتبقى الطبيعة مصدر الإلهام لدى الشعراء والفنانين والمفكرين، لأنّ مظاهرها المتنوّعة تخلب الألباب، وتجعلنا نشعر بضعفنا تجاه عظمتها. والعقل الراجح فينا، لا بدّ أن يؤمن بأنّ من أوجد هذه العظمة، هو خالقٌ عظيم، لا حدود لإبداعه، وعظمته بادية لنا في هذا الكون، الذي نشاهد أشياء قليلة منه.

لجوزف حرب صولات وجولات في محاولته لسبر أعماق هذا الكون، ولن ندخل الآن فيها، ولكنّنا سنكتفي بما يغني موضوعنا الذي نعالجه وهو «الطبيعة ديوان شعري».

كما نعلم، لقد تغيّرت وظيفة الشعر في عصرنا، ولم يعد محصورًا بالأغراض والأنواع القديمة، ولم يعد الشاعر البوق الإعلامي للقبيلة، أو الملك، أو الأمير. لقد أصبح الشاعر اليوم مفكرًا رائيًا، يقرأ الحاضر، ويرسم المستقبل، ويطرح الأسئلة، الكبرى والجريئة حول الله، والكون، والإنسان، والموت والحياة، والدين...

ولكن عليه في كل ذلك، أن يبقى مثالًا راقيًا، وأنيقًا، في لغته وتصويره، وخصائصه الفنّية الرفيعة، بحيث يكتفي بالومض دون الغوص في التفسير والتفصيل.

وفــي نــص «يا أيّتها العتمة» نجد وقفات شــاعريّة رائعة لجوزف حرب في تصويره لعناصر الطبيعة، وهو يحاول أن يصل إلى كنه هذه العتمة والغاية منها، وفي هذه المحطات ستبدو لنا الطبيعة معرضًا جماليًا بل ملحمة شعريّة متكاملة.

تغرُبُ هذه الشمسُ،
ولكنْ مَنْ يجعلُ هذي السحب الشفّافة،
والمرميّة في أعلى الأفْقِ كأنْ بجعٌ من ذهبٍ
رمّانيٍّ يسبحُ في هجرتِهِ، فوق بحيراتِ
غمامٍ نيليٍّ؟
قال الفلّاحُ:
«ستمطر عند الصبح، لأنّ مساءً أحمر يصعدُ
سلَّمَ آخرِ هذا البحر».
وتُمطرُ، تُمطرُ، لكن من أين لهذا الفلّاح الأخضر
أن يعلم أنّ الحمرة ليست إلّا قطراتٍ من ماءٍ تحملها
الريحُ على الكتفينِ معبّاةً في أكياسِ سحابٍ أبيض؟[49] (فاعلن)

ويمضــي جوزف حرب في تصويره للطبيعة عنــد الغروب، فإذا نحن أمام بانوراما من الألوان والأشكال والإنعكاسات الضوئيّة الخلّابة:

أوضحُ بالألوانِ هو الصبحُ
ولكنَّ الشفقَ الغاربَ أغنى.
يا بستانَ الرمّانِ الشفقيَّ، توشّح آنًا بالأخضر
آنًا بالأزرق، ولتدخُلْ بوّابتَكَ الريحُ، فقد بلغ
السُّكَرُ في الرمّانِ

مساهْ
ولْتَحْمِلْهُ على أطباق الغيمِ
إلى مائدةِ اللهْ[50]

وينادي شـــاعرنا الأفق طالبًا منه أن يفتح معرضه الطبيعي الرائع وأن يعلّق على جدرانه لوحاته التي سيرى جوزف حرب روحه فيها.

يا سيّد رسّامي هذي الأرض افتح
معرضك الساحر في قاعة هذا الأفق البحريِّ
وعلِّقْ لوحاتِكَ كي ألمحَ روحي فيها[51] (فاعلن)

وهذا الأفق كلّ يوم يبتدع رسومًا جديدة، لا تشبه عما قبلها، ويسكب ألوانًا أخّاذة. ويتمنّى الشاعر أن تخرج أشعاره رائعة، كما تخرج هذه الروائع من ريشة الغروب:

يوميًّا، يوميًّا
منذ البدء، ولا معرضَ كالآخرِ
لا لوحةَ كالأخرى
يا ساحرُ
لا ضربةَ ريشةِ لونٍ ليسَتْ ببهاء أروعَ
سرٍّ أعمقَ، رؤيا أبعدَ.
يا مَنْ تدعوه الأيام غروبًا، لو مثلَ
خروج اللوحةِ عندَكَ
تخرج من أعماق دواتي

كلماتي[52] (فاعلن)

وكما يلوّن الشـــاعر قصيدته بالصور البلاغيّة، ويرخي المدى لخياله، حتّى يذهـــب إلى البعيد البعيـــد، ثمّ يرجع هذا الخيال، محمّلًا بروائع الإبداع، كذلك تفعل الطبيعة، في لوحاتها، ولكن بدون خيال، لأنّها ليست بحاجةٍ إليه، وهي كنز الأخيلة، التي نلجأ إليها نحن البشر.

أذهب في الأزرق، ما هذي القُبَّةُ؟
زرقاءُ وزرقاءُ وزرقاءُ
ولا أزرقَ يُشبهُ أزرقَ آخر.
لا أزرق هذي اللّفتةِ
أزرقُ هذي الأخرى
أزرقُ لا يُضْجِرُ، لم يعتقْ يومًا
أصبح هذا الأزرقْ
موّاجًا كتواشيحْ
مرسومَ اللوحاتِ الزُّرقِ
بزَيْتِ الريحْ[53] (فاعلن)

إنّهـــا الطبيعـــة الغارقة في الجمال، الســـاحرة في ألوانهـــا وأدوار عناصرها المحترفة في علم التناسق والتجانس والتكامل. إنّها شاعرة في لوحاتها وإشاراتها ورموزها الحبلى بالأسرار!!!

ومن الصور الرائعة عند جوزف حرب صورة تتويج القمر من قبل الكائنات:

في قاعة تتويج القمر الملكيّة

مرَّتْ سحبٌ، تدعى
أشجار الغارْ
أشجار من ورقٍ مائيٍّ ذي قطراتٍ
حين يمرُّ النورُ عليها تصبح أوراقًا
من نارْ
يتداخل فيها الأزرقُ والأبيضُ والبنّيُّ
وتوشيحُ الأخضرْ
والأحمرْ
تضْفُرُها الريحُ كتدويرِ المنديلِ
تجعلُها فوقَ جبينِ القمرِ الملكيِّ
الجالسِ فضيًا
وجميلْ
إكليلْ[54] **(فاعلن)**

وأجمل قصائد الطبيعة قصيدة الحصاد حيث نشـاهد الحصّادين منهمكين في حصد السـنابل وترتيبها غمرًا غمرًا ويرتسـم أمام عيونهم هذا القمح أرغفةً من الخبز الطازج.

كنّا عشرة حصّادينَ ملامحُهُم من
صيفٍ وطحينْ
نمشي في حقلٍ أخضرْ
كان العشبُ نديًا يشربُ شيئًا
من لونٍ أصفرْ

والشمس وراء الظَّهرِ تصوّرُ للكلِّ
ظلالًا يظهر منها هالاتٌ عند الرأس،
كهالاتٍ للقدّيسينْ[55] (فاعلن)

وخلاصـــة القـــول في هذا الفصل وجود متشـــابهات كثيـــرة بين الغموض الســـحري في كائنات الطبيعة، وبين الغموض السحري في الشعر، وهذه العلاقة جعلت من الطبيعة ديوانًا شـــعريًا بل ملحمة تروي حكاية الكون الذي تدور فيه الأرض، وحكاية الإنسان الذي يسعى للوصول إلى أسراره.

وغايته وهذا ما أراد أن يقوله لنا جوزف حرب في شعره، وهو القائل:

جميلٌ هذا الكونُ!
جميلٌ وجميلٌ حتّى لا أعرف ماذا أفعلُ
أدرسه؟ أم أبقى في دهشتي البدئيّة؟
يا أيّتها العتمةُ، أرغب في كشف الأسرار،
ولكنْ أرغب بعد الكشفِ بأن أبقى مسحورًا
بالضوء الراقص في نقطة ماءْ
لكأنّي طفلُ الأشياءْ[56] (فاعلن)

هوامش

الفصل الثالث:

1 – د. نبيل أيوب: رئيس الجامعة اللبنانيّة: جوزف حرب إلى لقاء: 33 – 34.

2 – جوزف حرب: الخصر والمزمار: 166 – 167.

3 – نفسه: 111

4 – نفسه: 129.

5 – جوزف حرب: أجمل ما في الأرض أن أبقى عليها: 54 – 55.

6 – جوزف حرب: دواة المسك: 117 – 118 – 119.

7 – جوزف حرب: كلك عندي إلا أنتِ: 21 – 22 – 23.

8 – جوزف حرب: الخصر والمزمار: 129.

9 – نفسه: 216.

10 – نفسه: 218 – 219.

11 – د. نبيل أيوب: جوزف حرب إلى لقاء: 36.

12 – جوزف حرب: شيخ الغيم وعكازه الوزال: 202 – 206.

13 – جوزف حرب: المحبرة: 22.

14 – نفسه: 25 – 26.

15 – نفسه: 61 – 62.

16 – نفسه: 63 – 64.

17 – نفسه: 65.

18 – نفسه: 65 – 66.

19 – نفسه: 68.

20 - جوزف حرب: قلم واحد في ثلاث أصابع: 76.
21 - نفسه: 77 – 78 – 79.
22 - نفسه: 80 – 81.
23 - نفسه: 155 – 156 – 157.
24 - جوزف حرب: المحبرة: 109.
25 - نفسه: 109.
26 - نفسه: 110.
27 - نفسه: 110.
28 - نفسه: 110 – 111.
29 - نفسه: 111.
30 - نفسه: 112.
31 - نفسه: 112.
32 - نفسه: 113.
33 - نفسه: 113.
34 - نفسه: 114.
35 - نفسه: 115.
36 - نفسه: 117 – 118.
37 - نفسه: 75.
38 - نفسه: 79.
39 - نفسه: 79.
40 - نفسه: 81 – 82.
41 - نفسه: 83.
42 - نفسه: 84.
43 - نفسه: 85 – 86.
44 - نفسه: 261 – 262.

45 – نفسه: 262.

46 – نفسه: 273.

47 – نفسه: 1367 – 1368 – 1369.

48 – نفسه: 1384 – 1385.

49 – نفسه: 1437.

50 – نفسه: 1438.

51 – نفسه: 1438.

52 – نفسه: 1439.

53 – نفسه: 1439 – 1440.

54 – نفسه: 1444 – 1445.

55 – نفسه: 1442 – 1443.

56 – نفسه: 1455 – 1456.

الفصل الرابع:

المرأة والغزل في شعره

1 - المرأة الحبيبة

الفصل الرابع

المرأة والغزل في شعره

جوزف حرب شاعر رقيق وشفّاف، والمرأة في شعره حاضرة دائمًا. حاضرة كأم، وحبيبة، وإنسان. ويمكننا القول بأنّه فارس الجسد، وصّف جسد المرأة من شعرها وحتّى أخمص قدميها، وسمّى الأماكن بأسمائها، بجرأة وأناقة، وسياق شعري أخّاذ، ولكنّه لم يهمل الروح، المرأة في نظره بعدٌ إنساني للرجل، وهي بحره ونهره، ونسيمه وحديقته الغنّاء، التي يأوي إليها، ليغسل بها تعب الحياة، ويكتب منها أجمل الأيام، والساعات.

في شعره مقاطع غزليّة جميلة، وعميقة، ولكن معظمها مشفّرٌ برموز شاعريّة، ظاهرها غزل بالطبيعة وكائناتها وباطنها غزل حقيقي بالحبيبة، وبالمرأة، ومفاتنها الماديّة والمعنويّة.

وسوف تجدون في غزله متعة، وروعة، لما فيه من التصوير المثير للشهوة، والإبداع الذي ينقلكم إلى عوالم مرصوفة باللّذة والفرح، ويدخلكم إلى أعماق الجسد الأنثوي الذي يقطّر الشهد في كل عضوٍ من أعضائه:

1 - المرأة الحبيبة:

هو الخمار والحبيبة نبيذٌ معتّقٌ من خوابي الزمن الجميل النقي، والمشرق. أهدي عينيك صلاتي، وشعرك الأسود المرخيّ على رخام كتفيك أقماري، ونهديك منهدةً من لمسة يدي، وخصرك الليّن كلّ آهاتي وتنهّداتي وأهدي قامتك قمح قصائدي. أنا شاعر أملك الكون بخيالي كلّ الأنجم دراهمي، والشمس ديناري الذهبي.

في جسدي دارٌ. تعالي. ليت
كلّ ما بجسمك النقيّ كالضّحى الصيفيِّ
زُوَّاري
أنت نبيذٌ
وأنا بيتٌ لخمّارِ.
أهديْتُ عينيك صلاتي لهما
أهديْتُ هذا الأسودَ المرخيَّ مثل الليلِ
أقماري.
نهداكِ أهديْتُهما مَنْهَدَةً من حَفِّ كفّيَّ
وخصركِ الرخيمِ لَيُّهُ
أهديته منديلَ
مزماري
آه اطلبي أيَّ الهدايا. فأنا أغنى
حبيبٍ ذي السماءُ جَيْبَتيْ. والأنجمُ الصُّفْرُ
دراهمي، والشمسُ

ديناري[1] (مستفعلن)

ويزور بيت الحبيبة، ويدخل بيتها، ولكنّها لم تستقبله كعادتها ولم تشعر بوجوده:

أعود إلى بيتها، كأنّي
القناديلُ عادت إلى زيتها
أفتّش عنّي فيه، فلا شيء منّي،
لا طيفَ، لا صوتَ، لا شيء إلّا كأنّيَ ما كنْتُ
يومًا هنا.
والتفَتُّ إليها، فما لمحتني!
وناديْتُ، ما سمعتْني لأنّي لا صوتَ لي.
ولمسْتُ يديها، فما شعرت أنّ حتّى هواءً خفيفًا
يلامس منها يدها.
أَوَهْمٌ وجودي هنا؟
أم الوهمُ أني أراها؟[2] (فعولن)

وحبيبتــه مكتبة يقرؤها صفحةً صفحةً، وكلمة كلمة بل يهجّيها تهجيّةً حرفًا حرفًا، مع النقط والفواصل في كلّ جسدها:

مكتبةٌ خصرها، نهداها، رخاميُّ فخذيها
شعرها، شفتاها، سقْطُ الندى من يديها،
ديوان صيف البراري في مقلتيها
تواقيعُ ريشَتَيْ قدميها على دفاتر مَنْ
كان معجبًا من سنونو الحقول في قدميها

ذا جسدٌ
هو عندي مكتبةٌ من روائعْ
أقرؤها بفمي ماجَ مرّةً، ولساني،
ومرّةً بالأصابعْ[3] **(فاعلن)**

وهكذا يبدو شاعرنا خبيرًا محلّقًا بقراءة جسد المرأة من الغلاف الأوّل إلى القفل الأخير الذي يضع مفتاحه في إصبعه!

وأجمل قصائده الغزليّة ما كانت مرمّزة ترميزًا مناسـبًا للمعنى الذي يريده: جسـده الريح، الراعي، والسـكّير. لما فيهم من الشهوة والقوّة والعصا الغليظة! وجسد الحبيبة الخمر، والحور، والناي لما فيها من اللذّة والليونة والدلع.

في جسدي: ألسِّكِّيرُ، الريحُ، الراعي.
في جسدِكْ: الخمر، الحور، النايْ
الخمر لأشرب.
الحور لأدخُلَ هذا الجسد البحريّ
وأعصفْ.
والناي لأعزفْ[4] **(فاعلن)**

جوزف حرب في غزله لا يؤمن، ولا يعترف، بالتصنيف المدرسـي للغزل بين عذري وإباحي. الحب عنده مسـألة إنسـانيّة، راقية، ومتكاملة، في اللذتين: الماديّة والروحيّة، والعلاقة بين اللذّتين متلازمة، وجدليّة، فإذا حضرت إحداهما استدعت الثانية.

لذلك نجده متحررًا في غزله، من الأعراف، والقيود السـائدة، والتي تعيب

على الشاعر وغيره، تجاوز هذه الحدود.

جسد الحبيبة حديقة من الورود وكلّما قبّلت وردةً منه تتلوّى الحبيبة من اللذّة، وتصدر من فمها تأوّهًا عميقًا غارقًا في الشهوة، كأنّه الناي المبحوح:

في جسدِكْ
قمرٌ من وردٍ، أحمرَ أسودْ
حين أُقبِّلُهُ ويموجُ تُلَوِّي خصركِ
مثل موشَّحْ
يتفتَّحْ ويفوحْ
ويرافقه من فمِكَ المتأوِّهِ
نايٌ مبحوحْ[5] (فاعلن)

وكلّما قلنا سابقًا، علينا الانتباه مليًا في شعر جوزف حرب إلى رموزه البعيدة، ففي هذا النص ذكر الورد الأسود ولا يوجد سواد في جسد المرأة إلّا في مكانٍ واحد!!!

وفي النصّ التالي، نكاد نشتم رائحة المكان المرغوب في جسد المرأة، لأنّ الشاعر في وصفه لهذا الجسد، لم يترك مكانًا إلّا وأشار إليه: من البطن إلى الخصر، إلى السرّة وما تحتها. وإلى الفخذين وما بينهما:

ذريرُ صبحٍ بطنُها
فَتُّهُ عاجٌ
أذوق الرقصَ من خصرِهِ
يا صحنَ مِسْكِ الصبحِ، يا بطنَها

وفوقه سُرَّةُ طيبٍ كأنْ

قد خطّها النَّرجِسُ من زهرهِ

وليلُ عشبٍ تحته مائجٌ

من جُلَّنارٍ فُتْحتا فجرهِ

مدوّرٌ كأقحوانٍ. نَدٍ كمرمرٍ. صافٍ كماءِ القرى.

وكلّما طافَتْ به قبلةٌ، تمتصُّ آهًا منه أو أنَّةً

وبعد فخذيه مسًا، بينهما قد كُتِبَتْ جملةٌ

أدخَلَها الياقوتُ في حبرِهِ[6] (مستفعلن)

وفي النص التالي يصوّر الشـاعر المرأة الجميلة التي عزلتها نرجسـيّتها عن الآخريـن، لظنّها أنّ جمالها قادر على جعل كلّ الرجال يتوافدون إليها ويطلبون ودّهـا. لقـد مضى العمر بها هباءً وبقيت وحيدة تندب حظّها. إنها لفتة إنسـانيّة حكيمة علّها تصل إلى الحسناوات المتعاليات.

أمضيْتُ عمري في بهائي

نرجسةً على صفو ماءِ

لكن مضى العمر هباءً. ما حَفَّ بِيْ جسدي فمٌ

أو يدٌ مشَتْ فوق مسك خصري، وما تولَّهَ

بي حبيب. ولا عريش هوًى سقاني نبيذه.

أو أسال بِيْ دمعتي وداعٌ

أنا وحسني

أليس من عابرٍ رآني؟

ألم تَهُبَّ وفيك طيبٌ

على صبا فيَّ يا هوائي؟
ها قد مضى العمر، لا رنيني أفاق نهدي
ولا غنائي[7] (فاعلن)

وعلى طريقته الطريفة يمضي شـاعرنا في تقليب صفحات غراميّاته ومنها: لقد أعجبته إحداهنّ واستحثّ المسير للوصول إلى جمرها.

لكنّه سـار وسـار حتّى وصل إلى خصرها، وبقي الجمر متوهجًا ولكن بلا روّاد!!!

جرى ناسمُ طيِّبُ الفوحِ
من عطرها،
فسِرْتُ لأعرف من أين جاء؟ وكان مليئًا برائحةٍ
من رنينٍ ورقص، وتأويه ناي، وليٍّ لغصنٍ
رخيٍّ، ونقرٍ لعودٍ كترخيم ماء، وبُحَّة شبَّابةٍ
من غروب الرعاة، وترجيع نسمة صيفٍ لأنّاتها
حين تمتصُّ حلْمَتَها شفتا
بحرها.
وسِرْتُ كأنّي ليلةُ بردٍ تسير إلى
جمرِها
وسِرْتُ وسرت إلى أنْ وصلْتُ إلى
خصرِها[8] (فعولن)

ومن روعات جوزف حرب الغزليّة المقطوعة التالية وهي قمة في التصوير والإبداع:

جسدي ترابٌ. في أصابعك المياهُ. ألا اروني

واحفُرْ على جسدي دوائر مثل هاءاتٍ. وكي

تتفتَّحَ الأزرارُ فيَّ تشرَّبَتْ أوراقُ وردتِها دَمَكْ

إزرعْ

فَمَكْ.

ويمضي شـــاعرنا كالنحلـــة من زهرة إلى غيرها، ونحن نرافقه في شـــعره، لتتذوّق لذائذه ومنها القصيدة التالية، التي وصل فيه الشبق إلى المكان الكحليّ، وما أدراك ما الكحلي!؟ إنّه الفانوس في الوادي الخصيب.

حبيبتي ونحن في السرير، أشعلَتْ يدَيْ قامتِها

مرّ فمي على يواقيتَ لها ومرمرٍ. من كرز اللؤلؤ

في عاجيِّ رجليها، إلى المرخى الطويل في حرير شعرها

تفتَّحَتْ حبيبتي.

وفاح زرّا حَلَمَتَيها، وتندّى مسك فيروزٍ

خزامى ظهرها

حبيبتي عاريةٌ

وفوق فخذيها جرَتْ رائحةٌ خضراءُ

من حَفِّ رخامٍ. وشذا نايُ أنينٍ ذائبٌ

في ثغرها

وكي أشمَّ عطرَها الشهيَّ في

أوراق زرِّها

غَرِقْتُ بالمبلَّلِ الكُحليِّ

تحتَ خصرِها(9)

أمّا شفة محبوبته فقد غدت مخطوبة لفمه:

شفةٌ لمحبوبتي

ما ذُقْتُها إلّا وقالَ تأوُّهًا:

يا قامتي ذوبي

شفةٌ لمحبوبي غدت من بعد ما ألبسْتُها بالأمس

مَحْبَسَ قبلةٍ

من شهوتي ودمي

شفةٌ لمحبوبي غدَتْ مخطوبةً

لفمي[10] (فاعلن)

وفي نهديها العنب، وفي شفتيه المعصرة، فهي العريش وهو الكرَّام والخمّار:

في حَلَمَتَيْها حبّتانِ من عنبْ

أصابعي في قرية العريشِ

مَعْصَرَهْ

عصرْتُ فيها حَلَمَتَيها، صارتا خمرًا

وكانت مقلتاها ليلَ ديرٍ عتَّقَ الرُّهبانُ في عتمته النبيذ

بالبخورْ

لكي يكون أطيبَ

الخمورْ

أطبقْتُ أجفانَهما. عتَّقْتُ فيهما نبيذ حلمتيها

صار كُحْلًا قانيًا

كحبرِ غزَّارَهْ
حَمَلْتُهُ على فمي. قَرَعْتُ ليلًا شفتيها.
شفتاها لهما رنينُ
أُسوارَهْ
قرعْتُ حتّى فتحَتْ لي فمَها. ما فمُها المسكيُّ؟
خمَّارَهْ
وشربْتُ فيها تحت ضوأين لخديها
نبيذ نهديها[11] (مستفعلن)

وحبيبته هي الصباح حين تقبل، بوجهها الوضّاح، وعندما ترحل يبدأ غروبه، وفي الليل يشعل عتمته، بقنديل وجهها.

طَلَعَ الصباحْ
وجهُكِ حين تدخلينْ
جاء الغروبْ
وجهُكِ حين ترحلينْ
ثمّ يغطّي العتم بيتي. فأُضيء فيه حتّى
أستعيضَ عنه في الليلِ بشِبْهِكْ
قنديلَ وجهِكْ[12] (فاعلن)

بعد هذه الباقة من الغزل، الذي يسمّونه إباحيًا، سنأخذ «فنجان» شعرٍ من الغزل الذي يسمّونه عذريًا.

يلومه الحبيب لأنّه لا يقدّم له الورد في المناسبات الخاصة ولم يجد وردًا يليق به سوى ورد يديه:

كم مرّةٍ فكّرْتُ أن أُهدي وردًا لمحبوبي
ولم أفعلْ
وردًا كأنَّ الليلَ حين أتى
بعدَ العشيَّةِ شمعَهُ أَشْعَلْ
وكم مرَّتْ بخاطرهِ، بأنْ لا وردةٌ أُهديهِ إياها
لأنّي خائنٌ، أو عاشقٌ لسواهُ، لو يدري حبيبي
كم بياضي ناصعٌ في الحبِّ، أبهى من مسًا، أنقى
من القدّيس
لو يدري
ولو يدري بأنّي لم أزيّنْ مرّةً عمري
بغير يديهِ قد شربَتْ دواتي منهما
حِبري
ولو يدري بأنّ غدًا سيعرفُ بعد موتي
أنّ بعيدًا عنه لم ينبُتْ
سوى وردٍ على قبري[13] (فاعلن)

وهكذا الحبيب الوفي هو الذي يهدي حبيبه ورد مجامره، المشتعلة بالأريج العاطفي، ويؤجّل إهداء الورد الطبيعي إلى ما بعد الموت، لأنّ ورد القلب أثمن من ورد التراب.

نحن، الشرقيين، لدينا مشكلة مركبة مع الجسد. كلنا نشتاق إليه، وكل حياتنا تـدور حولــه، ولكننا لا نتعامل معه بطريقة تليق به، نقــرأ الكتب عن الكواكب والنجوم وأنواع الحيوانات والطيور، وأنواع الطعام ونتردّد، بل نخجل من قراءة

الجسد الذي أتينا منه.

إنّ الحب شعور عاطفي، ينبع من الداخل، وهو قد يبدأ بنظرة أو بلمسة، ولكنّه يصبح أجمل، عندما نطوّره بثقافتنا، ووعينا لذلك علينا أن نطرد الخجل، والعيب والإثم، في تعاملنا مع الجسد. وأعتقد أنّ جوزف حرب. هذا ما أراد أن يقوله لنا، في عصفه للجسد، ومفاتنه، وأماكن الشهوة فيه، لأنّ المرأة إنسان له حقه في اللذة، وهي ليست خابية للأجنَّة فحسب.

ومتى عرف الواحد منا هذه الحقيقة، وتعامل معها، بعلمه وثقافته يرفع المرأة من روائح الطعام، والشراب، ومساحيق التنظيف والغسيل، إلى روائح الكرامة الإنسانيّة إلى روائح الجسد.

جوزف حرب ليس مهرّجًا، ولس منظرًا، في الجنس وأنواعه وأشكاله... إنه شاعر كبير يمتلك رؤيا إبداعيّة، تطال الإنسان في حياته ووجوده، ومفاهيمه ويحثّنا على النظر إلى واقعنا، وغربلته، من الموروثات التي قيّدته، واستبدالها بالتطلعات المشرقة، التي تستشرف المستقبل الواعد، لتجاوز الحاضر القاتم والقاتل. لقد بيّنا في الفصول الثلاثة السابقة، المفاصل والإهتمامات الفكريّة في شعر جوزف حرب، خصوصًا ما نادى به، ونذر حياته له، وهو استرداد الأصالة للإنسان المهمّش.

وفي نص «دواة السنونو» من ديوانه «أجمل ما في الأرض أن أبقى عليها» غزلٌ رفيعٌ، شفيفٌ، جريءٌ يذهب بنا إلى مساحات الجسد ورؤى الروح، حيث يبدو الحبّ إنصهارًا بين روحين وجسدين. عينا الحبيبة بحره، وفمها أجمل من ألوان الشفق عند الغروب:

بعدما شاهدْتُ كلَّ البحارْ
إكتشفْتُ أنْ لا بحرَ
أجملُ من عينيكِ.
بعدما تأمَّلْتُ غروبَ الشمسْ
إكتشفْتُ أنْ لا غروبَ شمسٍ
أجملُ من فمِكْ
ورجِعْتُ إليكِ
وعندما عدْتُ إليكِ لم أجدكِ. صِرْتُ وحيدًا وكلُّ ما أراه أمامي ألوانُهُ ليسَتْ أجملَ من ألوانك. فزرقة البحر تنهدُ لتصبح كزرقة عينيك، والياقوت يغار من شفتيكِ وبعدك عني أثارَ في مجامري عاصفة.
وها إني وحيدٌ
على صخرةٍ للبحر أمام الغروبْ
بين الزرقةِ التي ليسَتْ لعينيكِ
واليواقيتِ التي ليسَتْ لفمِكْ.
وجاء الليل، وصوت الموج والمطرْ
فوزَّعْتِ على عينيَّ موجَ البحرْ
وعلى قلبي العاصفهْ
وعلى نسياني لك النومْ
ومن غير أن تدري
حملَتْكِ القطاراتُ إلى حيثُ
تصيرين مثلي[14] (فاعلن)

وقبل أن يفترقا كانا يجذّفان شراع الجسد:

جسدٌ أم نبيذٌ؟!
وأُسقى وأُسقى
وهذا متّكايَ وذي جراري
كؤوسي رياحٌ، وغيمٌ شرابي
وما أنتِ إلّا
بحاري
أَبَحَّارُ هذا الجسدِ النبيذيِّ إسمي؟ والأفقُ
داري
متى بعد رحيلها عنه فإنّه ما زال في دوارٍ من اللذّةِ
وأحيا بين غمسِ المجاذيفِ فيكِ؟
وشوق الصواري
وإنّي وإنّي لم أفِقْ بعدُ
من دُواري[15] (فاعلن)

وهكذا فشراع الجسد لا يتحرّك ولا تبقى صواريه مرفوعة إلّا إذا كان المجدّف بحّارًا يُتقن فنون الإبحار!

وجوزف حرب تعجبه زهرة الياسمين من التطريز الدمشقي فيصف الفتاة الدمشقيّة قائلًا:

ترتدي المِنْهَدَهْ
فوقَ حَلْمَتَيْها تضع الياسمينْ
تحت الخصرْ ترتدي ورقهْ

من عريش الدنتيلْ
وفيها على الشَّعْرِ الأسودْ
تضع الغاردينيا[16] (فاعلن)

ومن لون رجليه تعرف الحبيبة المســـافة الطويلة التي مشّاها للوصول إليها وهو يعرف أنّ هذا السير أوصله إلى امرأة على قدر المشقة:

رجلاكِ بيضاوانْ
تنتهيان بأصابعَ عشرٍ
كجداولَ عشرَهْ
يجلس فوقها عشْرةٌ من أمراء
اللؤلؤْ
حين جلسْنا معًا، ومدَدْنا أرجلنا
شاهد الناسُ قرب رجليكِ البيضاوينِ
كم رجلايَ حمراوانِ داميتانْ
ومن لون رجليَّ الليلكيِّ وجراحهما
تعرفين كم سِرْتُ إليكِ[17] (فاعلن)

وفـــي القصيدة التالية يزخّ جوزف حـــرب الطلقات المتتالية ويعلن أن بيت اللذة هو بيت الولادة:

في دواةِ البنفسجِ حبرٌ لنهديكِ
في النّاي لصٌّ تسلَّلَ في الرقص
إلى خصركِ
والزَّبَدُ الرُّخاميُّ في فخذيكِ يعلوه

تاجٌ لمملكة السِّرِّ أسودُ

يحرسُ نبع بهاء العُهْرِ فيكِ

لا مقدَّسَ قد رافقَتْهُ الآهُ، واللذّةُ

والتلوّي والتنهُّدُ والأنّاتُ

كالعُهْرِ تحت التاج فوق فخذيك اللتين

من بينهما تخرج الشهوةُ، والطفلُ

أعطيكِ يا ربَّةَ العُهْرِ

كُلِّي.

أجلسيني يا ربَّتي مَلِكًا

بين قيثارَتَيْ شهوتي وطفلي![18] **(فاعلن)**

ويمضي جوزف حرب في غزله قاطفًا المعاني والصور من شـــجرة مخيلته التي طافت في فلك الجسد فشاهدت مجرّاته والثقب الأسود:

أطلَّتْ

لها قامةٌ من نهارٍ.

نظرْتُ إلى صدرها، كان صبحًا. نظرت إلى تحتِ

خاصرتيها رأيْتُ

الغَسَقْ

لها جَسَدٌ سِرُّهُ في الرِّماحِ، ورائحةِ النوم في

الياسمين. ولا تلمس الأرض إلّا وتنشر دارُ الترابِ

كتابَ الحَبَقْ

وما من فمٍ علّق القبلاتِ على أُذْنِها

أو تواشيح مِعْصَمِها دِملجًا أو
حَلَقْ
وعذراءُ
لا ابتلَّ بعد بماء الأنوثة فيها الخزامى.
ولا رعشةٌ رافقت ناي أَنَّتِها. أو جناحٌ
لطائر لذّتها
قد خَفَقْ
ولا عرفَتْ أنّ أشهى اللقاء متى
عاجُ فخذٍ عن الآخر الزَّبديّ
افترقْ
أظنُّ إذا ما ارتدَتْ أخضرًا فاح.
أو ما ارتدَتْ أزرقًا سالَ.
أمّا البياضُ فصار بخورًا على جمرةٍ
واحترقْ

وبعد هذا الوصف لهذه الفتاة المراهقة العذراء ينتقل الشـــاعر إلى الحديث عن حاله وعمّا تركه هذا المنظر الشهي في نفسه: وماذا فعل؟

كان مســـتلقيًا على العشـــب ينتظر فريسته كالذئب الذي يكمن للقطيع، وقد فارت فوّهات شهوته ففاز بما كان يرغب.

أنا الآن مُلْقًى قطيعَ ذئابٍ
على سُرَرٍ من حشيش الينابيع.
قاسٍ كنَهْيٍ. جميلٌ كصيفِ أعالي الجبالِ

مذابٌ كقرصٍ من الشهواتِ التي

امتصَّها نحلُ تموزَ من زعتراتِ براري

الشَّبَقْ

تنادَتْ أيائلُ جسمي. وفي قصةِ الغصنِ

أنّ الزهور إذا هي نادَتْ أجاب

الورقْ

وفي العشقِ أجملُ من قولِ: مَدَّ الذراعينِ، قولُ:

امتشقْ

ورغم امتلاكي لها، كان أشهى الذي ذُقْتُهُ من

يدَيْ نظري اللصِّ ما قد

سَرَقْ

تفوحُ مفاتنُها عطرَ مَلْحٍ. هنا هَبَّةٌ من صَبَا

الشفتينِ، هنا عشبةٌ من

عَرَقْ

ولا هي بانٌ، ولا صندلٌ أو ورودٌ، فمن

أين قد جاء هذا

العَبَقْ

هو التختُ، كالشِّعْرِ، في سرِّهِ

كلّما ازدادَ كذبًا

صَدَقْ[19] **(فعولن)**

وبعد هذه الجولة، تبدأ جولة العصف، والضمّ، والعصر، وتسيل مياه الشّبق:

وأعْصِفُ فيها، فتقلقُ بين يديَّ، وإنْ هبَّتِ الريحُ
كان ألذَّ الذي يعتري الغصنَ منها
القَلَقْ
وبتنا إذا ما صحا الفمُ نام
الحَدَقْ
وأمتصُّ في شغفٍ شمسَها، ثمّ يأتي الأنينُ، فيصبح
أجملَ من شمسِ قامتِها، ما يلوحُ بمقلتِها من بقايا
الشَّبَقْ
ولا تنتهي
إن أمات بها الشَّبَقُ امرأةً، عاد وامرأةً
غيرَها
قد خَلَقْ

وبعد انتهاء العاصفة ينجلي الموقف وتبدأ أسئلة الندم ولكن الرجل الشرقيّ لا يعرف التوبة لأنّه يداوي الخطيئة بخطيئة أعظم:

ويأتي الضبابُ، لتغدوَ في العُرْيِ أبهى.
ويُطرقُ أجفانَهُ الشمعُ كي لا أرى في وضوحٍ.
ورغم التفاف ذراعي على خصرها الدَّلِّ تبدو
كأنّ يدي لا تطالُ يديها. وأُنْبِتُ فيها الحقولَ
وأُجري السواقي. وأُشْعِلُ مثلَ الرّعاةِ فوانيسها
كيف هَبَّتْ بي الغيرةُ الآنَ؟
بِتُّ كأنّي أُخرجُ منها الرجالَ وأذبحُهم عاشقًا
عاشقًا.

يا لعشقي كيف تحوَّلَ من شاربٍ نهدها لمنتقمٍ!
كيف أغدو «عُطَيْلًا» وشاعر حمصٍ
ولا أصبحت بعد وردًا ولا ديدمونة.
شكًّا بما أمسِ ظنَّاه صارَ، فكيف أشكُّ بما
بعدُ ليس يصيرُ؟!
تدور ببالي السيوفُ. ويصعدُ في داخلي الليلُ
حتّى لأسمعَ وقعَ حجارة كلِّ السنينِ بقلبي.
لقد هدَّني ألمُ الشكِّ. أصبحت أحسد من
هو وهمٌ. وأرسم شكلًا لمن أراهُ. وألمحها
وهي ترقصُ، أو تتلوّى، وتشهق، عاريةً
بين أيدي عراةٍ، فأغفر، لكن لهم، وتمرُّ
سيوفي فيها وأبكي
وأبكي
لأنّ رجالًا سوايَ على الأرضِ
أفضلُ منّي
لديها
وأبكي عليَّ
وأبكي عليها
وأُغمضُ عينيَّ كالمطمئنِّ. لأني كي لا ترى
بعدُ غيري أطفأتُ في وجهِها مُقلتيها
وكي لا تضمَّ سوايَ
قَطَعْتُ يديها!!![20] **(فعولن)**

في هذه القصيدة، تقمّص جوزف حرب نفسيّة الرجل الشرقي، الذي تأخذه الشهوة، والغريزة، إلى قتل البراءة، ليرضي نزوته، لإثبات فحولته. وعندما يعصره الندم على فعلته، يداوي الجرح بالسكين، والطعنة بالخنجر فأيّ مجتمعٍ ستقوم لــه قائمة، وفيه هذا النهج الحيواني، وفيــه الرجولة، هي الذكوريّة، التي تجتاح الأنثى وترميها ضحيةً.

إنّ جــوزف حــرب، وإن كان في أدبــه وفكره، يدعونا إلى قراءة الجســد وتقديســه، فهو في الوقت نفســه، لا يسمح أبدًا، بالنذالة والخسّة، وقتل البراعم قبل تفتّحها.

وكان وحيــدًا يتأمّل مــا أبدعه الله في كائنات الطبيعــة، وأخذه هذا التأمّل إلى أبعاد هذا الكون، وإلى أســراره وتناسقه، وانتظامه في دورة حافلةٍ بالإبداع، والتنوّع، والحكمة.

وهذا المشهد الطبيعي، وما شاهده فيه من الحركة في الشجر والنهر، والبحر والنبع، والطير والريح، وما أبدعه الله في خلقه، جعله يخرج من وحدته ويختار لنفســه شــيئًا ممّا نصّه الله. اختار امرأةً لأنّه «لا شيء فيه كلّ شيءٍ غيرها». وليس جسدي من قال هذا بل روحي.

أوجــد الله البحيــرات لكي يهتف بي. كن كالبحيــرات نقيًّا. أوجد الغزلان كي أغدو وفيًا. ثمّ أعطى جسدي قوّة صوّانٍ، ولكن كي أضمّ امرأتي حين أراها بذراعٍ من ندىً.

الخيــال، وحده القادر على خلق ما يريده الإنســان في هذا الوجود. وهذا الخيال هو ذهب المبدعين والأدباء والشعراء.

جوزف حرب شاعر أدار خياله ورسم المرأة التي يريدها:

عندما طيَّبْتُ بالصندلِ هذا الجسدَ

الصاعدَ صوانًا وموجًا،

أقبلَتْ مسكونةً في عُرْيها الممتصِّ

ياقوتَ عريسِ الشَّمعِ

كانت تقطفُ الخطوَ على الأعشابِ نحوي

قدماها نَقْلَةٌ مَسْحُ جناحٍ

نَقْلَةٌ حَفُّ نسيمٍ

طالعٌ فوقهما بين مناديلِ ضبابٍ

قامةٌ ذاتُ نهاراتِ صِبَا

مُرْخًى عليها ليلُها، في خصرِها النَّاحلِ أيلولٌ

وتمويجُ غمامٍ من أصيلٍ ذائبٍ في لازَوَرْدِ البحرِ

رِدْفَاها

ونهرٌ ظهرُها، فيه الحصى أيامُ نيسانَ.

ذراعاها، كأنّي جُمْلَةٌ من سُكَّرٍ بين هلالَيْنِ من الماء.

وما في وجهها غير فضاءاتٍ عليها لوحةُ

الخلقِ التي وقَّعها اللهُ.

غناءٌ عنقُها التفَّ على نايٍ.

وصيفانِ بلونِ الصبح نهداها

وقوسا بطنها صنيَّةٌ ملأى خزامى

فوق فخذَيْن ربيعيينِ

قد فَتَّحَ ما بينهما تسعُ تويجاتٍ،

لفانوسٍ إذا أشعلَتْهُ

شاهدْتَ ديرًا من نبيذٍ

ليس من يُمضي به الليلَ يصلّي،

غيرُ رهبانِ عريشٍ[21] (فاعلن)

إنّ هــذه القامة الجميلة ما زالــت في طريقها إليه، وهو ينتظرها وكلّ منابع الشبق في جسده تتوهّج، ويكاد جسده يحترق...

لم يكنْ أجملَ منها الآنَ إلّا أنّها بعد قليلٍ،

سوف يغدو خطوُها أكثرَ قربًا.

يولد الشَّوقُ على البعدِ

لماذا كلّما قد أصبحَتْ أقربَ منّي ازدَدْتُ شوقًا؟!

لسْتُ أدري ما الذي يحدثُ لي، وهي تخفُ الخطو نحوي

لم يعد لي جسدٌ! أصبحْتُ هذا الشّرقَ ملقيًا

على قوسِ غمامٍ،

عضوُهُ الخمريُّ يعلو قُرْصَ شمسٍ، تحته خاصرتاهُ

امتدّتا سهلًا من الصيف لبرقٍ قادمٍ.

إنّي أُصغي لا إلى قلبي، ولكن لطبولٍ في المسا

يقرعُها زَنْجٌ وهم يستحضرون الشبق المالح

كي ينساب في أمواجها، لمّا تصيرُ البحر تحتي.

وبعد قليلٍ سوف تبدأ الموسيقا الناعمة لتضفي على اللقاء

وشاحًا رومنطيقيًا كي يستحضر الجسدان أدوات العزف.

خمسةٌ من عازفي قامتها صارَتْ يدي

صار فمي نهرًا بتموزٍ، إذا ما انغمسَتْ في مائِهِ
ارتعشَتْ.
والنوم نومانِ، وإنّي الآن في نومٍ لرؤيا جسدٍ
مستيقظٍ، سَكْبِ صِبًا، من بعدُ لن يشفى
ولن يعرف نومًا.
وأجمل شيءٍ عنده أن تكون هذه الحسناء امرأته وأن يمتزجا في ليلة عشقٍ:
عندما تلمسُ أطرافُ يدي
أوّل أطرافِ يدِكْ
لكأنّي زائرٌ يقرع كالنسمة
زرًا ليّنًا في جسدِكْ
وله رنَّةُ بلبلْ
تفتحين الجسدَ العاري
وأدخلْ[22] (فاعلن)

والمفاجــأة لــك أيّها القارئ: إنّ هذه المرأة، التي وصفها لنا جوزف حرب ليست من لحمٍ ودم. إنّها الطبيعة التي أبدعها لنا الله. في هذا النص وظّف جوزف حــرب خياله المادي وأخذ منه ما يتناســب مع المــرأة والطبيعة فارتفع الخيال المادي إلى خيالٍ علائقي وهذا الخيال وحّد العلاقات في مشتركات ومتشابهات لا تعــدّ ولا تحصى بيــن المرأة والطبيعة هذا من جهة، ومن جهة ثانية، لقد قدّم لنا الشاعر قصيدة غزليّة، جذّابة ولم نعتقد للحظة، أنّ هذه المرأة، التي تغزّل بها الشــاعر هي الطبيعة. هذا هو جوزف حرب الشــاعر، الفنّان المبدع الذي مزج كائنات الطبيعة، مع أماكن الفتنة والشــهوة، عند الإنسان وبهذه الكيمياء الشعريّة جعلنا نعجب به، ونقدّر شعره الذي أضاء نفوسنا بهذه اللوحات الإبداعيّة الخالدة.

وفي رحلته إلى الجسد الحقيقي، يســأل ما يشــاهده في الطريق، من ورد وقهوة عن الذهب، الذي يلتمع في شعر الحبيبة، وعن النبيذ المعتّق، في نهديها، والرقص في خصريها...

وأسأل في الطريق الورد والقهوَهْ
عن الذهب الذي ذوَّبَتْهُ الشمسُ في شعركْ
وعن خمّارة صدركْ
وناي الرقص في خصركْ
وياقوت المساء وفضّة الكوكبْ
ونهر الريح والمركبْ
عن الصيفين في فمكِ
المسوَّرِ بالعريش
وعن نسيمِ يدكْ
لكي أذهبْ
إلى جسدكْ[23] (مفاعلتن)

ويذهب بنا جوزف حرب إلى اللص الظريف الذي يسرق بضاعته المخبّأة في جسد حبيبته:

حبيبي سارقٌ.
يأتي إذا نام الغروب إليّ
غفوْتُ على سريري، مثلما تغفو غصونٌ
في سرير الميّ
تسلَّلَ عبر سور حديقتي، ومضى بعيدًا

سارقًا عينيّ

وزِرّ الورد في شفتيّ

حبيبي سارقٌ

يأتي إذا نام الغروبُ إليّ

وقد خبَّأت في تفاحةٍ جسدي

كما العصفور خبّأ ظلّه في الفيّ

فجاء وفتّش البستان. ثمّ مضى بعيدًا

سارقًا لي مِعْصمي وجدائلي ويديّ

وشمعةَ فِضَّةٍ ذابت على كَتِفيّ

حبيبي سارقٌ

يأتي إذا نام الغروب إليّ

وقد أطفأتُ قنديلي متى يأتي

ليسرق نايَ خاصرتيّ

وقبل هروبِهِ أُلقي زمرُّدتيْنِ

في شفتيهِ من نهديّ[24] (مفاعلتن)

ما أجمل هذه القصيدة لو أصبحت أغنية تغنّيها السيّدة فيروز من دُرَرِ عشيقها الروحي جوزف حرب.

حبيبته لا تفارقه. هي دائمًا معه وفي آخر الليل وهو يتألّم وتتراءى له وهي تحضنه بذراعيها، وبينهما نهدان من رخام.

عندما في آخر الليل أنامُ

وعلى طاولتي التعبى كسجّاد الحصى في الماءِ

أوراقي تنامُ

لا ذراعاكِ تنامانِ

ولا صدر ينامُ

فذراعاكِ على الأوراقِ موَّالانِ عند الصبحِ

غُصنا قُبَلٍ، يومانِ، نهداكِ هما بينهما

شمسٌ ووردٌ، ورخامُ

وأنا قلبي ريحٌ فوقها صدري غمامُ

عندما أكتب شعرًا عن ذراعيكِ

وأغدو آخر الليل وحيدًا في سريري

وأنامُ

يترك الأوراقَ يأتي لعناقي

كذراعينِ الكلامُ[25] (فاعلاتن)

وفي الصباح، بعد القهوة، عندما تشلح قميص النوم، ويشاهد شمع جسدها، تكون مقبلاته قبل الفطور، ثمارها:

في الصبحِ إن شلَحَتْ قميصَ النومِ

حتّى تستحمَّ كشمع ديرٍ،

بعد قهوتها

يدُها تُحمِّلُها يدي أغلى

تحيّتِها

حتّى تسلِّم لي، على كلّ الذين تحبّهم شفتي

بقامتِها[26] (متفاعلن)

شجرة اللوز حين تزهر، ويجتاحها البياض، تغصّ العين من منظرها، وينسى العقل أنّه أمام شجرة، فهو يرى راهبةً تتزيّا بالطهر.

أمّا جوزف حرب فأمنيّته أن يرى حبيبته تأتي إليه بقميص اللوز:

يجيء اللوزُ في قمصانِهِ البيضاءِ
لو تأتينَ مثل اللوزِ
قامةَ لوزةٍ بيضاءْ
ولو آتي كأنّي الحقلُ
في أعشابِهِ الخضراءْ
تغطُّ عليكِ طيرُ
البرِّ كلَّ مساءْ
تصير جناحَ خصرِكِ
قوس نهديكِ الصباحيَّيْنِ
هدلةَ شعرك السوداءْ
ويهبط صدرك اللوزيُّ فوقي
أزهرًا بيضاءْ
وجاء اللوز
جاء اللوز في قمصانه البيضاءْ[27] **(متفاعلن)**

جسدها في كفّه كتاب ولكنه يقرؤه كأنّه لا يعرفه:

أجملُ ما في جسدكْ ألمُسْرِفْ
في أجنحةٍ بالعشقِ تُرفرفْ
أجملُ ما في جسدكْ

ما يعزفْ
من آهاتٍ
أجملُ ما في جسدكْ
أن يغدوَ في كفِّي
كتابْ
مكتوبًا بضبابْ
وغيابْ
أجملُ ما في جسدكْ
المتشفِّفْ
أنّي أعرفُهُ، لكني أقرؤه
وكأنّي لا أعرفْ[28] (فاعلن)

يبدو أنّ هذا الجسد قد أعياه، أو قد أغراه، وفي كلتا الحالتين، فهو جسد نادر يستحق القراءة، تلو القراءة، وفي كلّ قراءة يكتشف طعمًا جديدًا.

وفي ديوانه «كلّك عندي إلّا أنت» قصيدة عنوانها «صدى» يبدو أنّ جوزف حرب يعاتب فيها امرأة محدّدة، كان يحبّها، وهي لم تبادله هذا الحب، وهذه القصيدة، كما ستلاحظون، جاءت خطابيّة، بإسلوب مباشر، حتّى تكون رسالة واضحة، لهذه المرأة. وهذا الإسلوب لا يعتمده جوزف حرب، في شعره عمومًا، وفي الغزل بخاصة، فمعظم قصائده مشفّرة، مرمّزة، وتنحو نحوًا تصويريًا.

يعاتب هذه المرأة، ويعترف لها بحبّه رغم جفائها وبعدها عنه. فهي وسادته، وملاكه، رماها بالورود وغيره رماها بالإهمال وعدم الإهتمام، ومع ذلك فهو يفكّر فيها صباحًا ومساءً وفي البيت الأخير يكويه الألم لأنّ هذا الحب بقي

صدىً في وادٍ: (الوافر)

مَضَتْ هذي السنينُ وأنتِ فيها	على بعدٍ، ولم أعشــقْ ســواكِ
كأنّك رَغْــمَ رمحِكِ في فؤادي	وســاديَ أو ورودي، أو ملاكي
وعشْتُ زوالَ حسنِكِ، حينَ غيري	لبعضِ الوقتِ لم يعشــقْ صباكِ
لقد طفأوا صباحَكِ، يومَ روحي	أذابَــتْ صُبْحَ حبّي في مســاكِ
رمَتْــكِ يــدي بوردٍ مِلْــتِ عنهُ	لِمَــنْ بكئيبِ دمعِــكِ قدْ رماكِ
وَمَــنْ عينــاهُ رافقتــاه، حتّــى	يــرى بهمــا جمالَــكِ لا يراكِ
أنــا وادٍ وأنــتِ مــرورُ صوتٍ	فمــا لي في الهوى إلّا صداكِ[29]

وفــي القصيدة التالية تعود الميــاه إلى مجاريها، ويعود غزل جوزف حرب مشتعلًا بالشّهوة، واللذّة، والحنان. يخاطب الرجل: المرأة لا تشعر برجولتك إلّا في السرير، وهي لا تصل اللذّة إلى قعرها، إلّا إذا عصفت بها، وجعلتها تتلوّى، وتصرخ، وتتأوّه كن معها وهج الجمر، ورشق الرمح وهذا ما يطلق عليه شاعرنا «الألم الغامض»:

كلُّ امرأةٍ، تعشقُ هذا الألمَ الكحليَّ
وأنت تضاجعها
عمِّقْ فيها الجرحَ
وعمِّقْ في قامتِها تلك اللذّة
من وجع الجُرحْ
لا تنسَ وأنت تضاجعها، أن ترسل في مجرى الجرحِ

مياهَ الملحْ

أَشْعِلْها لِتُؤَوِّهَ، وتصرخ، واجعل في كل مغامضها

وترًا، إنْ حُرِّكَ

أنَّ

أعمقُ ما يهواه عقلُ امرأةٍ

أن تتلوّى في شبقٍ وتُجَنُّ

فَدَعْها بين يديكَ تُجَنُّ

كي لا تدركَ عند مجيء الصبحِ

مجيءَ الصبحْ

فاعْصِفْ فيها

واعْصِفْ

كُنْ وَهْجَ الجمر، ورَشْقَ الرمحْ

حتّى إن هدأتْ عاصفةُ الجسد اغمُرْها كمياهٍ

يغمُرُها الصوانْ

لكنْ بحنانْ(30) **(فاعلن)**

لنكن واضحين، وجريئين، إن شئنا أم أبينا، فالعلاقة الجنسيّة بين الرجل والمرأة، هي التي تجسّد حياة بقائنا على الأرض، وهي حاضرة في أجسادنا غريزيًا كالمأكل والمشرب.

والفرق الوحيد بين الإنسان والحيوان في هذه المسألة، هو أنّ الإنسان كائن اجتماعي، قادر بفعل عقله، أن يطوّر حياته، ويجعلها الأفضل والأجمل والأعقل، والإنسان أيضًا توصَّل عبر تاريخه، الطويل إلى الزواج، وهذا الزواج نتجت عنه

الأسرة، أو العائلة، وهذه العائلة ركناها الرجل والمرأة، حتّى تستقر العلاقة بينهما، وتســـتقيم، ينبغي أن يحضر التســـاوي والعدل. وبما أنّ المتعة الجنسيّة للطرفين، هي حق مقدّس لكليهما، وبما أنّ الرجل في المجتمعات الشرقيّة، هو قائد هذه العمليّة، عرفًا، لذلك عليه أن يعي دوره، ويعمل على إتقان عمله، وبذلك نخرج من المعاناة التاريخيّة في مجتمعاتنا. وأعتقد أنّ هذا ما أراد أن يقوله لنا جوزف حرب، في قصائده الجسديّة. لأنّ مفكرًا، ومثقّفًا كبيرًا، من أمثال جوزف حرب، لا يمكن أن يكون من روّاد الإباحيّة الجنسيّة، التي قد يتوهّمها البعض.

ويتابع شـــاعرنا على هذا المنوال: جســـد المرأة عود والرجل هو العازف، ومســـتوى القطعة الموســـيقيّة في هذا العزف يتوقّف على الأصابع الذهبيّة التي تداعب الأوتار.

أنا العاشقُ الفِضَّهْ
لديكِ جسدٌ يدعونَهُ
العودْ
في جسدِكْ، خمسةُ ينابيعَ للشهواتْ
أحتضنُ العودْ
وأداعبُ أوتارَهُ الذهبيّةَ الخمسهْ
كما تداعب الريحُ شجرة الخوخ[31] **(فاعلن)**

ولعلّ النصّ التالي لجوزف حرب، يفتح لنا سرّه، في تقديس الجسد، واللعب على أوتاره، فهو شخّص هذا الجسد، ليكون من خامات كلماته:

كُحْلُها أسودُ والوجهُ قرنفُلْ
والأصابعْ كاشتعالِ الشمعِ

أو نَقْلَةِ بُلْبُلْ

شعرُها مُرخًى ومُسْبَلْ

يتموَّج، يترسَّلْ، يتأرجَحْ

مثلَ جدولْ

قامةٌ نايٌ وورِدُ

فبخصرْ إنما ذُوِّبَ نايٌ

وبصدر إنّما فَتَّحَ نَهْدُ

جسد من ذكرياتي

قد طوى الوقتُ يديهْ

كلّما اشتقْتُ إليهْ

زُرْتُهُ ريشة حبرٍ

لعناقِ الكلماتِ

في دواتي[32] **(فاعلاتن)**

ومن قصائده الغزليّة الجميلة التوأمة بين المرأة والطبيعة:

وساعةٌ في جسدكْ

تولد شمسٌ كلّما صارَتْ تمامَ

المُقْلَتَيْنْ

صارت تمام الثانيهْ

يعني اليدينْ

وأوّل الليلِ تمام الخصلَتَيْنْ

وعشرُ حباتٍ كحبِّ الكرزِ الورديِّ

قد صارَتْ تمامَ القدمَيْنْ

وغفوةُ ما بعد ظهرِ الصيفِ
قد صارَتْ تمامَ الكتفينْ
طار السنونو فوق صبحٍ أخضرٍ
يعني تمام الحاجبينْ
وإنّهُ موعدنا،
يعني لكي أمُرَّ بالنهدِ، وبالخصرِ،
وبالفخذينْ، قد صارَتْ
تمام الشفتينْ[33] (فاعلن)

وهكذا فقد أصبح هذا الجسد ساعةً!!!

ومن لمعات جوزف حرب، وهوسه بالنساء في شعره: يرى البرق وجه امرأة:

البرقُ يلمعُ وجهَ امرأةٍ
لكي أراهْ، يلمعُ
لا لكي أرى سواهْ
والغيمُ عاشقٌ
حزينةٌ به عيناهْ
يحبُّ وجه البرق، مثل يوم ضيفٍ فوقَهُ
مساهْ
ويضحك الغيمُ لوجه البرقِ وهُوَ لامعٌ
لكنْ إذا اختفى
بكاهْ[34] (فاعلن)

وفي نص «نبيذ الغروب» من ديوانه «رخام الماء» حوار ممتع وجميل بينه وبين

حبيبة قديمة، التقاها بعد أن بدأت الشـيخوخة ترسـم أثلامها في جسدها. وينتهي الحوار بجرعة أنسانيّة سامية، يذوّبها الشاعر في نفس هذه الحبيبة، وهي أنّ جسدها الآن بالنسبة له، نبيذ عتّقه الزمن. وكأسٌ من نبيذ غروبها ألذّ من كأس صباحها.

سئِمْنا من الحَوْرِ فينا، وناي الرعاةِ
تعالي نَعُدْ جسدينِ
تنامين قُرْبي، والعتمُ يُخفي ظلال التجاعيد عنّي
تخافين إنْ أنتِ أشعلْتِ ضوء السرير اكتشافي حَفْرَ الغروب
وما ترك الوقتُ من ثِنْيَةِ الموج فيكِ،
وأجراسِ أيلولَ
تمرُّ يدي فوقَ عُرْيِكِ، كم تُبْعِدِينَ يدي في ذكاءٍ
من الحركاتِ عن اللَّيِّنِ الهَدْلِ فيكِ،
وذاك المموَّجُ مثل مياهٍ يمرُ عليها الهواءُ
تُرى
لسْتِ تدرينَ أنّي أدري؟!
وأعرف أنّكِ أصبحْتِ غيرَ الرخام الذي كُنْتِهِ؟!
- تجيب الحبيبة:
كاد ذا الصيف أن ينتهي.
إنّه يا حبيبي، بدء قدوم المساء.
- وأعرفُ، أعرفُ، أعرفُ.
ليتكِ تدرينَ أنّ مساءكِ أجمل عندي من الصبح فيكِ.
أما قال ذلك هذا العناقُ الطويلُ؟ وقلبي؟ وعيناي؟
والشّفتان وقد مرَّتا فوق عُرْيك مثل نذور الخزامى؟

هو الحبُّ يُدْمِنُ فيك النبيذَ.
فكيف سيختارُ ما عُصِرَ الآن منهُ على ما تعتَّق
منذُ سنينٍ؟!
بدأنا عريشًا
وكرّامَ صيفٍ.
وقبَّلْتُ كل العناقيدِ فيك. نسيتِ العنبْ؟
ولَمَّ فمي لخواتِمَ من سُكَّرٍ وذهبْ
وكيف تحوَّلْتُ خمّار نهديكِ؟ خصركِ؟
كيف محوْتُ الذي كنْتِهِ قصبًا كي تصيري
على شهوة الريح آهَ القصبْ
أنا الآنَ شاربُ ما قد تعتَّقَ
كيف أُقرِّبُ ما لَوَّحَ الصيف منكِ
وأُبْعِدُ عن شفتي
ما انسكبْ
سئمنا من الحور فينا، وناي الرعاةِ
تعالي، نَعُدْ جسدينِ
ألا أشعلي الشمع فوق السرير،
وكالشمع ذوبي
فعنقود ذاك الصباح شهيٌّ.ولكنَّ
ما هو أشهى
نبيذُ الغروبِ(35) (فعولن)

جميلةٌ هذه اللمسة الإنسانيّة الراقية، التي شفّف بها جوزف حرب نفوسنا، وأجمل من هذه اللمسة، الوفاء للقديم الجميل، الذي لولاه لما بقيت أوراق حياتنا تأخذ نسغها، من هذه الجذور الضاربة في التربة الأصيلة.

إنّ غياب الحبيبة يفتّح في النفس براعم الحب. ويملؤها بالوحدة، فلا يجد الشاعر من صاحبٍ له يؤنس وحدته إلّا الطبيعة. وهذا ما فعله جوزف حرب، في غيابها قدّم له البحر موجًا، والصبح أنغامه الحزينة، وحتّى القمر الساطع رآه شاحبًا.

في غيابها يراجع تختها، وقمصان نومها، وفساتينها، وأدوات زينتها، علّه يزيّن بها كآبات روحه. في غيابها ليس له صديق سوى الدمع، وليس معه صاحب غير حزنه، ولا يستطيع أن يمحو غيابها فهذا انتحارٌ له. لذلك يناجيها ويقول لها: إن حرمتني الأقدار جمال حضورك، فلا تحرميني جمال غيابك. وجمال الغياب هنا ما تركه فيه الفراق من الألم الجميل.

في غيابكِ، قدَّم لي البحر موجًا
وقدَّم لي الصبح قيثارهُ
قمرٌ شاحبٌ
في غيابكِ، أمضيتُ وقتي أراجع تختكِ
قمصان نومكِ
مرآتُكِ الآنَ، كلُّ زجاجات عطركِ
كُحْلُكِ، أمشاطُ شعرك، أقلامُ حمرتكِ
أزيّن فيها كآباتِ روحي

في غيابكِ ليس لديَّ صديقٌ سوى الدمع.
ليس معي صاحبٌ غيرُ حزني
سأبدأ محو غيابك منّي
وهذا انتحاري. أُحِبُّ غموضَ سريركْ
وشمعَ ضبابكْ
فإنِ حرمَتْني الرياحُ جمالَ حضورِكْ
فلا تحرميني جمالَ غيابِكْ[36] (فعولن)

وجوزف حرب، في شـــعره، ليله جسدٌ، وكرزه حلمتان، وسريرٌ يقرأ ما بقي عليـــه من رائحة النســـاء!!! لذلك يصوِّر ليله بأنه قناديـــل لذّاتٍ يمتصّ منها النار لاهبةً. (البسيط)

فيها قناديلُ لذّاتٍ، إذا انتشـــرَتْ	**حمرًا ليالي الهوى فينا، أضوِّئُها**
أصـــبُّ في راحتي نايًا وأشـــربُهُ	**حتّـــى إذا فَرَغَتْ بـــالآهِ أملؤُها**
نصوصُ وردٍ على تختي مغمَّضةٌ	**أفتِّحُ الـــزِّرَّ فيها حيـــن أقرؤها**
وأفرُكُ الحلْمةَ الخمريَّةَ اتَّقَدَتْ	**وفـــي فمي مثلَ ياقـــوتٍ أخبّئها**
فيهـــا قناديلُ مـــا قبَّلْـــتُ ليلَتَها	**إلّا وفي قبلي قـــدْ ذاب لؤلؤها**
أظلُّ أمتـــصُّ منها النّـــارَ لاهبةً	**حتّى إذا ماج فيها النومُ أُطفئها[37]**

ويحلّق بنا جوزف حرب إلى معانٍ كونيّة في قراءته للجسد، وهو عنده أوّل كلّ النصوص وأعمقها، وأجملها، وفيه بدأت الأبجديّة.

هو النصُّ مفتوحٌ على ما لا يُحَدُّ من القراءاتِ

التي يحملها هذا الجسدْ
كم معنًى لعينيكِ أو لفمِكْ؟
وهل تنتهي في القراءات معاني يدِكْ؟
لا نصَّ إيقاعاتُهُ لا تنتهي
إلّا الجسد
هو والكونُ اكتشافٌ وغموضٌ
رقصُهما لا ينتهي، وزنُهما في كلّ شيءٍ
كلُّ شيءٍ وزنُهُ فيهما
يا للبحيرةِ
في خصركِ المائجِ! والصحو في عُرْيِكِ العنبيِّ
ويا لعينيكِ في عتمةِ السِّحرِ!
وصوتِكِ في شَبَقِ الريح!
غامضٌ كلُّ شيءٍ
راقصٌ كلُّ شيءٍ
وها نصُّكِ اللّامُنتهي مثلَ نهارٍ محا اللهُ منهُ
مساءَهْ
وهو أوّلُ كلِّ النصوصِ، وأعمقُ كلِّ النصوص،
وأجملُ كلِّ النصوصِ، وقد تمّ فيه افتتاح
القراءهْ[38] (فاعلن)

وما اللّذاذة إلّا في الثمالة. وخاتمة هذا الفصل زينة العري في النساء!!!!

أكتسي ما تزيِّنُني النسوةُ العارياتُ بِهِ.
أكتسي قبلًا منهنَّ وأنّاتٍ

أكتسي شَعْرَهُنَّ الطويلَ، أصابِعَهُنَّ
الجداولَ عبر براريَّ آهاتِهِنَّ
المفتوحةَ المِسْكِ بالشَّبَقِ الصاخبِ الموجِ
قَبْلَ السواحِلِ
زينَتُهُنَّ بما فاض من جسدي.
وبما قد رسمْتُ بأسنانِ وَهْجي عليهِنَّ
من وردةٍ وخزامى.
وما نسجَتْ شفتاي من القُبَلِ الذّاهباتِ
من الفمِ، للنهدِ، للخصرِ
للمُسْهَبِ الآهِ، والرَّجْعِ، والسِّرِّ
زينة هي أبهى وأغلى.
ألا، أبعدو الطِّيبَ، ولْيُحْرَقِ الثَّوْبُ.
ولْيَغْرَقِ الذَّهَبُ البابليُّ بنسيانِهِ
لا هدايا. ولا فضّةٌ وحريرٌ
ألا فَلْيُزَيِّنَّني من سريرٍ لَهُنَّ
بما وَجَّ في عُرْيِهِنَّ معي
واتَّقَدْ
ولأُزَيِّنْهُنَّ بما فيَّ من عيدِ
هذا الجسد[39] (فاعلن)

هوامش

الفصل الرابع:

1 - جوزف حرب: أجمل ما في الأرض أن أبقى علها: 69 – 70 – 71.

2 - نفسه: 80 – 81.

3 - نفسه: 136 – 137.

4 - نفسه: 138 – 139.

5 - نفسه: 230 – 231.

6 - نفسه: 248 – 249.

7 - نفسه: 253 – 254.

8 - نفسه: 256 – 257.

9 - نفسه: 295 – 296 – 297.

10 - نفسه: 300 – 301.

11 - نفسه: 303 – 304 – 305.

12 - نفسه: 328 – 329.

13 - نفسه: 339 – 340 – 341.

14 - نفسه: 443 – 444 – 445.

15 - نفسه: 448 – 449.

16 - نفسه: 450 – 451.

17 - نفسه: 453 – 454 – 455.

18 - نفسه: 470 – 471.

19 - جوزف حرب: السيّدة البيضاء في شهوتها الكحلية: 55 – 56 – 57 – 58 – 59.

20 - نفسه: 59 – 60 – 61 – 62.

21 - نفسه: 69 – 70.

22 - نفسه: 75.
23 - جوزف حرب: الخصر والمزمار: 118 – 119.
24 - نفسه: 135 – 136 – 137.
25 - نفسه: 158 – 159.
26 - نفسه: 192.
27 - جوزف حرب: دواة المسك: 68 – 69.
28 - نفسه: 139 – 140 – 141.
29 - جوزف حرب: كلك عندي إلّا أنت: 60 – 61.
30 - نفسه: 121 – 122 – 123.
31 - جوزف حرب: كم قديمٌ غدًا: 18 – 19.
32 - نفسه: 170 – 171 – 172 – 173.
33 - نفسه: 217 – 218 – 219.
34 - نفسه: 196 – 197.
35 - جوزف حرب: رخام الماء: 8 – 9 – 10 – 11.
36 - نفسه: 49 – 50 – 51 – 52 – 53.
37 - نفسه: 82 – 83.
38 - نفسه: 84 – 85.
39 - نفسه: 160 – 161.

الفصل الخامس:

الأبعاد الفكريّة في شعره حول الوجود واللّٰه

1 - فشل الدين في تحقيق العدالة على الأرض

2 - الفردوس المفقود

3 - الله هو العدل الجليل

4 - المقدّس هو الإنسان الذي يعمّر الأرض

5 - العقل هو المفتاح للوصول إلى الحقائق الكونيّة

الفصل الخامس

الأبعاد الفكريّة في شعره حول الوجود والله

من المؤكّد أنّ جوزف حرب كان مؤمنًا بالله، وليس ملحدًا، ولكنّه في الوقت نفســـه، كان إنســـانًا علمانيًا، متجاوزًا للعصبيّات المذهبيّة والطائفيّة. كان شعاره الدائم، حريّة الإنسان أينما كان، من أيّ جنس أو لون. وهذا الموقف كرّسه في فكره، ومارسه في حياته، وكل من يعرفه، يشهد بذلك.

وحتّى نفهم أبعاده الفكريّة حول الوجود، والله سوف نعرض، ونناقش ذلك من نصّه «المقدّس» في كتابه الضخم «المحبرة».

1 - فشل الدين في تحقيق العدالة على الأرض:

يخاطب الله: لقد أرســـلت الرسل والأنبياء لكي ينقذوا البشريّة من ويلاتها، ويطهروها من وثينتها، وشرورها. لقد أتى هؤلاء ورحلوا، وإذا بالخطايا والشرور قد زادت بل كانت قبلهم أقلّ فسادًا وسوءًا.

وقرأتُ مذهولًا، مطوّلةَ المقدّسِ،
حيث قد أرسلْتَ قدّيسيك، كلّ الأنبياء،
لكي يعودوا حاملين الأرضَ

غارقةً بأبيضها إليك.
وها أتوا
ومضوا
وإذ بالأرض قد كانت خطاياها أقلَّ
قبل مجيئهم. صارت خطاياها كمثل مصابةٍ
بالغيرة العمياء من مطرٍ تكاثر بَعْدَهُ
عشبُ السهولِ
جميع قِدِّيسيك، كلُّ الأنبياء
تعذّبوا
اضْطُهِدوا
أراق دماءهم سيفُ الحجارة، سال من أجفانهم
صدأُ السجون، وبعضهم صُلِبوا كموجٍ
بعضهم ذُبحوا كغيمٍ
وبعضهم جعلوا الجوارح والضّواري
تطمئنّ لقوَّتِها[1] (متفاعلن)

كلّ مــا جاء فــي كتبك كان رائعًا في حكمته وعدله وشــرائعه بحيث نجد العدل، والمساواة، والرحمة، والسلام. فقد أذيب السيف وأصبح شمعًا، والرماح أصبحت قمحًا وسندسًا أخضر وكل حربةٍ غدت بلبلًا أو وردةً.

هو رائعٌ لوح الشرائعِ
كيف أنّ الناس فيه جناح عصفورٍ، بريشٍ أبيض،
وهواء صيفٍ، فاح فيه القمحُ يحملُهُ الجميعُ كأنَّه

بشقائق النعمان حبٌّ ندًى.
وكلٌّ ذائبٌ بالكلِّ
حَسْبَ شريعة الينبوع
كلٌّ حَوْرَةٌ، فَتَحَتْ لتقرأ غيمتها، كُتُبَ الرياحِ الخضرِ
حَسْبَ شريعةِ البجعِ المسافرِ في الغروبِ.
وقد أُذيبَ السيفُ
حتّى صار شمعًا
والأسنَّةُ أصبحَتْ عُشبًا[2] (متفاعلن)

إنّهـــا شـــرائع كلّ ما فيهـــا أبيض، يتصاعد منها بخّور الســـماء، ويضوع في الأجواء، وهي ليســـت إلّا الشعر قرب النّاي. وهي غمائم مبلّلةٌ بالخصب، وهي العدل الحكيم.

ما هذي الشرائعُ؟!
كلُّ ما فها ملاكٌ. رأس سوسنةٍ
على إحدى وسائدِ خيطِ ماءِ الصبحِ.
ما هذه الفراشةُ علَّقَتْ قمصانها بخزانةِ الأعماقِ؟
ما هذا البخور يفوح من جمرِ الأصابع؟
ليس إلّا الشِّعْرُ قربَ النّايِ
والرقصُ المبلَّلُ بالغمائمِ قربَ خَصْرِ الخصبِ
والعدلُ الحكيمُ الخطِّ قربَ دواتِهِ البيضاءِ[3] (متفاعلن)

إلهي هذا ما دعانا إليه الأنبياء، ولكنّ الســـؤال الكبير: هل النفس الإنســـانيّة الضعيفة القريبة إلى الغواية، والهوى، مهيّأة لكي تستقبل هذه الدعوات البيضاء؟

وأنـــت تعلـــم قبل غيرك، أنّ هذه النفس تميل إلى ما هو مغرٍ مما خلقته من الفتنة والجمال. إنّ هذه الغواية هي في الحقيقة بهاء الروح أم أنّها الخطيئة؟

إلهي، أنا الإنسان الضعيف أتساءل: ألا يمكن أن تكون الحقيقة في الخطيئة، وأنّ الإنسان يمارسها، يكون أقرب للنقاء من القدّيسين؟ ولكنني لست أدري لأنّ مفتاح السرّ في يدك.

هذا ما دعانا الأنبياء إليهِ
هل نفسي مهيّأةٌ لكي تنساب في هذا البهاءِ؟
ضعيفةٌ نفسي
وأقربُ للغوايةِ والهوى، من قربها لعبادةِ الزُّهادِ
ما هو عند نفسي ساحرٌ مُغْرٍ
بهاءُ الروحِ أمْ آهُ الخطيئةِ؟
ربّما كل الحقيقة في الخطيئة!
ربّما الملعونُ أدنى للنقاء من المباركِ!
ربّما نفسي لها كَتِفا سوادٍ في الطريقِ،
فكيف تحمل كيس شمسٍ؟
لسْتُ أدري[4] **(متفاعلن)**

يا إلهي، إنّي حائرٌ، وإنّي حزين، لأنّي لســـت أدري ما الأجوبة على الأسئلة التـــي تراودنـــي، ولكنّي أدري أنّ ما بلّغه أنبياؤك وعملـــوا به، قد محته الأقدار، وأصبح شـــرائع مكتوبةً بماء الذهب على دور العبادة، ولكنّها ممحيّةٌ في نفوس رجال الدين قبل غيرهم من البشر.

وأســـأل: ما الســـبب في ذلك: هل طال اليباس هذه الشرائع أم أنّ ما كان في

الماضي جميلًا، مشرقًا، أصبح اليوم قبيحًا، معتمًا؟ وهل ما كان خمرًا أصبح خلًّا؟

وأنتم أيّها الكهّان والرهبان، والسـادة والمشـايخ، هل عملتم بشرائع الله، وكنتم خدمًا لله، في رعيته، أم أصبحتم رعاةً، والناس قطعانٌ لكم، تشربون لبنها، وتجزّون صوفها، وتأكلون لحمها؟!

لسْتُ أدري
غير أنّي حائرٌ للآنَ في نفسي. وتُحزِنُني
وترفع كفَّها مثل الغريق، وليس لي علم بملح البحر.
أدري أن ما حملَتْهُ روح الأنبياء محتْهُ في
الأرض الرياح، وصار أضرحةً لألواحٍ مقدّسة
لماذا؟
ربّما امتدَّ اليباسُ إلى الشرائعِ
ربّما ما كان قبلُ الصبحَ صار مسًا
لعلّ جميع ما قد كان عنقودًا
مضى للخلِّ لا للخمر[5] (فاعلاتن)

أمّا أنتم، يا رجال الدين، لقد أتخذتم الدين وسيلة شرعيّة لتكديس الذهب والفضة، في خزائنكم، وسـلبتم خيرات الناس، وقتلتم نسلهم، وأحرقتم زرعهم بحروب فتنكم. لقد محوتم رسـلكم وأنبياءكم لتقيموا دولتكم حسب شرائعكم الأرضيّة التي تؤمن لكم سلطتكم المزعومة.

وأتسـاءل: هل كان يعلم رسـولكم بما سـتفعلونه بعده، من هذا الخداع والخـراب؟ وإذا كان لا يعلـم فمن أين جـاء؟ وإذا كان يعلم، لماذا لم يطردكم من شرائعه؟.

يا رهبانُ
هل كنتم سواقيَ في الخريفِ
أم أنّكم كنتُم خريفًا للسواقي؟
هل قبضتُم فِضَّةً؟
أليس في آذانكم وقعُ المساميرِ التي
أنزلْتُموها في أكفِّ رسولكم؟
ألم يزلْ إكليلُ ذاك الشوكِ
يا من غرزْتُم صبحَ جبهتهِ بهِ – يُدْمي أصابعَكُم؟!
دفنتمْ ربَّكم حتّى يقومَ؟
دفنتموه ولم يَقُم إلّا وراثتكم له.
فتناسلَتْ في الأرض، روح الطينِ
واكتسَتِ المجاعةُ عندكم عفنًا
وبوركتِ الحروبُ
ولسْتُ أدري؟
هل مجيء رسولكم، لا علم فيهِ بما ستفعلُهُ أياديكم؟
فإنْ لا علم فيه،
فكيف جاءَ؟
وإنْ له عِلْمٌ
لماذا ما حُذِفْتُمْ من شرائعِهِ؟
أما هو كاتبٌ ماحٍ؟ وأنتم من كلامٍ؟
كيف يُبقي صائبٌ خطأً
وشمسٌ ظلمةٌ
ووسادة أفعى؟[6] (مفاعلتن)

2 - الفردوس المفقود:

إلهي، إنّ النصوص التي حمّلتها لرسلك، وأنبيائك، لم تعد صالحة، حتّى يكون للأرض رؤىً، لما هو مقبل من الزمن، والفردوس الذي وعدت المؤمنين الصالحين به، أصبح أخيلةً، لما نشاهده على الأرض من الجحيم. ما العدل إذا لم يرتفع ميزانه في الأرض؟ وإذا كان الجحيم عندك، لمن يخونك على الأرض، فإنّ الأرض بعد مجيء الرسل والأنبياء قد زادت جحيمًا. وأنت يا إلهي لا تريد للأرض هذا الجحيم، ولم تفتح سماءك للصّوص. وهؤلاء اللصوص هم قضاتك. فمن يحاكمهم وهم الذين يحاكمون الناس حاملين نصوصك؟

إلهي، لماذا نصّ الأرض عندك ثابتٌ؟ ولماذا لا تجعل الشرائع عليها تتوالد بحيث يبقى القوي المثمر، ويسقط الضعيف.

إنّ هذه الأرض كما هي الآن، نصّها غير كامل، ونحن البشر لا نملك مفتاح السماء لنكمل هذا النص. ليتك تضيف إلى الشرائع في نصّك حركية الطبيعة التي تتغيّر، وتتبدّل عبر دورة الفصول.

مطوّلةُ المقدَّس، لا رؤًى فيها
لما هو مقبلٌ في الأرض.
والفردوسُ نصٌّ. قارئ سيقول: أخيِلَةٌ
وآخر، سوف يمشي عابرًا بوابة الموتى إليهِ
هل الجحيم لمن يخون الله فوق الأرض؟
إنّ الأرض بعد مجيء قدّيسيك قد باتت جحيمًا
ليس شيئًا عنده ذاك الجحيمُ لديك.

لم تجعلْ سماءك فوق هذي الأرض

لم تفتح جحيمًا للصوصِ بقلب كهفِ الجمرِ في هذا الترابِ

وليس من قاضٍ هنا إلّا الذين أقمتهُمْ للعدلِ عندكَ

من يحاكمُهُم إن لم يعدلوا؟

ما العدلُ إنْ لمْ يرتفعْ ميزانُهُ في الأرضِ؟!

لو أنَّ النَّصَّ مفتوحٌ على خصبِ الشّرائعِ في توالدِها،

فيسقطَ ما تُصابُ غصونُهُ بخريفها، ويزولَ ما يقوى

عليه غروبُهُ.

ولكنْ نصُّ أرضِكَ ثابتٌ

كلماتُهُ ملأى برائحةِ الحجارةِ لا الرياحِ

وحيثُ كان عليك حَفْرُ مساقطِ الحركاتِ

أنزلْتَ السكونَ

لا ذي الأرضُ كاملةٌ

بنصِّكَ[7] (مفاعلتن)

إلهي أظنّ أنّ الوهم مركبة الهروب من الضريح. لقد صنعت نصّ الموت، وجعلت الموت بابًا إلى الفردوس أو الجحيم، وليس بابًا إلى التراب. ولكنّي يا إلهي، أنا أحب أمي الأرض، وأحبّ جسـدي وأحبّ أن أبقى حيًا على الأرض وهذا أنت، وحدك القادر عليه. لماذا لم تجعل الحياة فردوسًا بلا موت؟

إلهي، إذا كنت تحب الإنسـان، فصُغْ نصّك بلا خوفٍ، لأنّ الخوف يطرد الحب، وأنت لا تقبل أن تصنع بنصّك عبدًا، يخافك ولا يحبك.

صار الموتُ بابًا، لا ضريحًا

حيث أدخلُ جنّةً لا موت فيها. غير أنّي عاشقٌ جسدي
وهذي الأرض.
إنّهما جميلاي اللذان أحبّ أن أحيا وأبقى فيهما
هل أنت يعجزُ فيك نصُّكَ عن بقاءِ الجسمِ حيًا؟!
كيف لم يعجز إذن عن جعلِ هذا الموتِ بابًا لا ضريحًا مُتْرَبًا؟
أو جعل ما بعد الزوال حياة فردوسٍ بلا موت؟
تحبُّ بنصّك الإنسان؟
ضع نصًا بلا خوفٍ
فإنسان بخوفٍ ليس يقدرُ أن يُحِبَّ
يُفيقُ فيه العبدُ[8] (متفاعلن)

يا إلهي، إنّ خوفي ســببه موتي، لماذا لم تحذف الموت من حياتي، لماذا لم تجعلني حيًا على هذه الأرض، التي أحبها كثيرًا، لماذا لم تجعل لي جســدًا لا يشيخ، ولا يموت حتّى تبقى لي الأرض فردوسي الأبديّ.

أتُحِبُّني؟
إجعلْ إذنْ جسدي بلا موتٍ
وخلِّ الأرضَ لي، فردوسِيَ الأبديَّ
إنّي لا أحبُّ الخوف بي
فاطردْهُ من دَوَياتِكَ الزرقاءِ. أَخْرِجْ لِصَّهُ منِّي[9] (متفاعلن)

إلهــي، لقــد خلقتني أنا والأرض، فقد جئنا منــك، ولقد خلقتني من طينها وأصبحت جنينها وأصبحت هي أمّي. كلّما أردت أن أحضن أمي أو هي تحضنني تقصّر عمري بالموت.

صار لي أمٌّ، وصارَتْ عندها ولدٌ

وأبحرنا معًا

هي بعدما وصلت إليَّ. وما وصلْتُ أنا إليها

كلَّما حَمَلَتْ ليَ الأيامَ

أنقَصْتَ الزمانَ

وكلّما امتدت ذراعي كي أُعانقَها

شعرْتُ بأنَّ رائحةَ الفراقِ تفوحُ منِّي.

إنّها أمي

وإنّي طفلُها[10] **(متفاعلن)**

إلهي، جعلت في داخلي ضدين يتصارعان في نفسي عبدًا، وسيّدًا، سيّده ذاتي. عبدٌ يُبيحُ دم أمّه، وسيّد يبكي عليها! ثمّ تميتني لكي أذهب إليك وأفارق أمي.

يا إلهي، إنّ كلّ جنّتك لا تساوي فراقي لأمي. أعدني إليها، وأنا لست من الذين تغريهم الجنّة بكل ما فيها من الأطايب عندما أفقد أمي.

أنت جعلْتَني ضِدَّيْنِ يقتتلانِ بي.

عبدٌ، وسيِّده أنا.

قسمان بي:

قسمٌ يُبيحُ دماءَ أمي

وآخرٌ يبكي عليها!

ثمّ يأتي الموت، كي أمضي إليكَ

فأين أمي؟

كلُّ جنَّتِكَ البهيّةِ لن تعوّضَ لي الغيابَ

ولن تخفِّفَ من مدى شوقي إليها.
رُدَّ أجنحةَ السماءِ.
فليس يُغريني الذي فيها من الخفقانِ
أو ريشِ الصباحْ
إن لم يكن فيها لأرجعَ، كي أرى أمي
جناحْ[11] **(متفاعلن)**

ويتابــع جوزف حرب حديثه إلــى الله قائلًا: إلهي، كيف تجعلني بعيدًا عن أمــي الأرض، بالمــوت وتتركها في حداد الأمهات على بنيها؟ إني في حيرة من أمري. هل ذنب فيّ يا الله حتّى صرت أنت في إبداعي الشعريّ، تخرج منّي كلّ مفردةٍ، وقد صارت مرايا.

كيف تجيء لي بالموت كي أغدو بعيدًا
وهي تبقى في حداد الأمهات على بنيها
حائرٌ
هل ذُنْبَتَ فيَّ
فصِرْتُ أنتَ، ورحْتُ أسكنُ في خلايا النَّصِّ
فنّاني بهاءٍ، حيث تخرج كل مفردة، وقد صارت مرايا
في مرايا، في مرايا، في مرايا،
ليس روح الكون فيها تنتهي قبل الرجوع إليك![12] **(متفاعلن)**

إلهي، اجعل الأرض فردوسي الأوّل والأخير، لا أحبّ أن أغادرها هي أمي وحبيبتي ودنيا أحلامي، لن أختار مسكنًا سواها، هي مخبأ أشعاري، من غروبها أقطف قصائدي.

لن أختار متكأً سواها.

كل متكإٍ ولو أشهى، وأبهى كان ليس لديَّ

أقدس من وقوفي في الغروب، كراهبٍ ذي الشمسُ

مِبْخَرتي

تراتيل الطيورْ

وغمائم البحر البخورْ

وتدور هذه الأرضُ بي، وأنا حوالَيْ

مريمِ الكونِ

التي الآفاقُ مذبحُها

أدورْ[13] (متفاعلن)

إلهي، السماء لك، والأرض لك، وعندما أخشع للصلاة قَوْلي «أرضي» أبهى من قَوْلي «سمائي». وفي المقدّس من نصّك، لا حريّة خارج ما حدّدته في شرائعك. ولكنّ الإنسان كما أنت خلقته راءٍ، ملحاحٌ في الأسئلة ويريد أجوبة ولكنّ بابك مغلقٌ، فإذا لم تكن أنت الجواب، لأنك الأعلم إلى من أذهب بالسؤال حتّى يأتي الجواب؟!

سيّدي

قَوْلي: سمائي، ليس أبهى في فمي، لمّا أصلّي

خاشعًا من قول أرضي

لا شيء أعرفه سوى أني وُلِدْتُ من المياه.

وعندما تمضي المياه

أنا سأمضي

في نصِّكَ القدسيِّ لا حرّيّةٌ للشيءِ
لا أبعادَ
لا أعماقَ
خارج ما خَطَطْتَ من الشرائعِ.
إنما الإنسان أسئلةٌ وأجنحةٌ
وما في النَّصِّ طيفٌ عنهما. أما إذا وُجِدا
فإنهما خطايا
ضدُّ الوصايا.
إنْ لم تكن أنت الجواب عن السؤالِ
وأنت هذا الأفْقَ
والسفرَ المباعدَ
والرياحْ عند الجناحْ[14]
قُلْ
أين أذهبُ بالسؤالِ وبالجناحِ
نسيتَ سرَّهما وأنت تخطُّ قانون الخليقةِ
أيُّها القاضي!
ألم تخطئ، بأنك أنت قاضٍ؟!
مَنْ يحاكمني؟
الذي خلق الوجود، وراح يحذفُ من يدي المفتاحَ؟
لم تُخْلَقْ يدي إلّا لكشفِ السرِّ.
ها إنّا معًا
كلٌّ بموقعِهِ

أنا في موقع المفتاحِ، وأنت بموقع الأسرارِ

أنت لديك بابٌ مغلقٌ

وأنا لديَّ يدٌ

فكيف ترى إلى هذي العلاقةِ بيننا؟[15] **(متفاعلن)**

إلهــي، قــد أكون مارقًا وملعونًا، إذا قلت بأنــك أنت من اغتصب الوجود، وتخشى إن حرّكت مفتاحي أن أكتشف السرّ لأجد من خلق الوجود، سجينًا لدى القديسين والكهّان، الذين يقولون: آمن وصلّ، ويكتفون بجمع الذهب، والفضة ورعيتهم بلا طحين، وبذلك ينكشف الطريق، ولكن ليس للوصول لك بل لسواك من الشياطين الذين يحملون شرائعك!!!

ولقد يكون السِّرُّ

أنك أنتَ لسْتَ بأنتَ

إنّي المارقُ الملعونُ؟

أو أنت الذي اغتصب الوجود، وراح يخشى

إن أنا حرَّكْتُ بالمفتاحِ باب السِّرِّ، أجد

الذي خلق الوجودَ بقبوِ تعذيبٍ، وجلّاداه

قِدِّيسٌ وكاهنُ معبدٍ(16)

3 - الله هو العدل الجليل:

إلهي، لســت الطاغية، كما وصفك المشـكّكون فيك، لست هذا في نزول الأنبيـاء. إنك العدل المطلق، العدل الجليـل، إنك البياض في الحق، والرحمة ويد الخير والرزق، إنك مبدع هذا الوجود الجميل الذي يعكس شـيئًا قليلًا من جمالك، لأني كإنسـان لا أقدر أن أوصف جمالك البهيّ الذي تعجز حواسـي عن الإلمام به.

فإنك العدلُ الجليلُ، الحقُّ في حُلَلِ البياض.
الرحمةُ الكبرى. يدُ الرزق الذي يُلْقى بأعشاش الطيورِ
النورُ والغفرانُ
سنبلةُ الفقيرِ
الجمرُ في كفِّ اللصوصِ
وجالدُ الزاني، ومُعطي الأغنياءِ دراهمًا ملأى رمادًا.
سائقُ الأشجارِ كي ترعى الغمامَ
وواهبُ الينبوعِ مدّاتِ المياهِ لكي يُقيمَ لكلِّ غاباتِ
البراري حفلةً للخصبِ، لا أحدٌ، وليس عريسَها.
يا أيُّها الكرَّامُ، مَنْ يدعونه مَلِكَ العريش،
سلالةُ البيضُ الكواكبُ
عاصرُ الشمسِ المعتَّقةِ التي يُدعى
ألذُّ نبيذِ ساقيها
الغروبَ
ويا مُحبِّرَ خطبةِ الأمواجِ، صانعَ مُقْلَةِ الرؤيا

وديوانِ النهارِ
أُحبُّ مِحْبَرَةَ الكتابةِ فيك للأشعارِ
لا للدينِ
تعلمُ؟ فيك تغلِبُني القصيدةُ
لا الصلاةُ[17] (متفاعلن)

إلهي، لا يعنيني ما تعطيه للسماء، لأنّ من يزعمون أنهم ممثلوك على الأرض قد استعبدوها، ونهبوها، باسم السماء. ما يعنيني كرمك اللا محدود في العطاء، فأنت لم ترسـل الجيوش لسـفك الدماء، كي تفتح الأمصار والبلدان، إنما تفتح يديك للعطاء والرحمة والغفران. صوتك في نفوسـنا ريحُ صبا في عزّ الصيف، وسنابل نشتم منها رائحة الطحين، وعبق الأزهار في الجبال والوديان.

لقد شعرت بآلام المسحوقين، والفقراء، والجوعى والمرضى وأنت وحدك من يدكّ عروش الطغاة على الأرض، وأنت وحدك من يجعل أموال الأغنياء التي اكتسبوها من رحيق الفقراء، رمادًا يتناثر في الريح.

وليس يعنيني عطاؤك للسماءِ، وما وراء الريحِ
والآفاقِ والكون الذي هو مُغلقُ الأبوابِ
يعنيني عطاؤك لي
كريمٌ أنت
حتّى صار شمعًا طاهرًا بيت الخطيئةِ
لم تجئ بالسيف
لم تفتح بلادًا بل يديكَ
وكان صوتك ريحَ صيفٍ بعدما صِرْنا سنابل فيكَ،

ذابَتْ منك رائحة الطحين، وسوسن الوديانِ
أبكتك الجراحُ
وهزَّك المسحوقُ
وانتشرت بك الآلام كالبجع المهاجر في الرياحِ
ولم يغُرَّكَ طيلسانٌ. أو تُثِرْ بك نشوة الراعي
أناشيد القطيع. وكم أطحْتَ برأسِ مائدةٍ؟
وكان التاج دونَ الطينِ مرتبةً لديك؟
وكل عرشٍ ليس يطْهَرُ من خطاياهُ بغير رماده
الكحليِّ بعد النار؟[18] (مفاعلتن)

إلهـي، إنّ الأمبراطوريّات والممالك، التـي أقامها الأباطرة والملوك على الأرض، كانت وما زالت قضبان جمرٍ تكوي أجسادنا ونتساءل: كيف يولد جائع على الأرض، وقوته رغيف؟

كيف يوجد متسوّل، ولم تقصّ أصابع الأغنياء؟ كيف للظالمين لا يأتون إليك مستغفرين خطاياهم؟ وأنت صباح الحقيقة والجمال.

أيام الممالكِ
دائمًا قضبانُ جمرٍ من أسابيعِ الجحيمِ
وكيف يولدُ جائعٌ في الأرضِ مِزْوَدُهُ الرغيفُ؟
وهل يدا متسوّلٍ لا تعنيان بأنّ أقمشة الدراهم
في أكفّ الأغنياء مِقَصُّها قطعُ الأصابعِ؟
كيف من يُبكيك، لا تأتي به عيناه كي يستغفر
الدمعَ الذي ينساب من عينيكَ

يا لَلصُّبْحْ

كيف جعَلْتَهُ الأجراسَ![19] (متفاعلن)

إلهي ما أعدلك! لقد جعلت الأم تحمل في جســدها الحياة، وفي عاطفتها المحبة والحنان، ومنتهى التضحية والعطاء. ما أروعك! لقد جعلت الطفل أميرًا على العصافير والفراشــات والأزهار في الحقول التي فرشــتها باخضرار يديك، وجعلت العشبة الصغيرة فاصلة في ديوان التراب. ما أجمل هذه الأرض لو نزعت عنها ثياب الكهّان ولبست ثيابك!.

يا لَلأمِّ

كيف جعلْتَها الملكوتَ

يا لَلطفلِ

كيف رفعْتَهُ مَلِكًا بجيشٍ من عصافير الحقولِ

ويا لحكمةِ من رأى في العشب فاصلةً

بديوان التراب.

ويا لهذي الأرض لو لبست ثيابك[20] (متفاعلن)

4 - المقدّس هو الإنسان الذي يعمّر الأرض

إلهي، ما أكثر الرســـل والأنبياء الذين أرسلتهم كي يغسلوا الأرض من غبار الخطيئة، لتصبح فردوسًا وواحةً للرحمة والسلام. ولكنّ شيئًا من ذلك لم يحصل. ما زالت الأرض جحيمًا ومقصلةً.

إلهي، أين الأنبياء الذين أتوا لينقذوا السفينة من الغرق؟ وأين نصّك الإلهي الممسوح بالإبداع والرحمة، والسلام؟

وأيــن الآفــاق الأبويّة والرحمات التي أردت أن تحضن بها خلقك؟ فكيف لم تصعد إلى الفردوس بعد الأرض؟ هل هناك ســرّ في هذه الأرض؟ ولكن ما أعرفه من نصك: أن العدل شيخ الأرض، والمحبة هي الزيت التي تليّن النفوس وتمنع عنها اليباس.

أنا لن أجادل مَنْ رؤوك الله
في النص الذي قرؤوهُ
أعجبني اسمك الله
الذي خلق الوجود. وسوف أترك جانبًا
ذا الكون إلّا الأرضَ
كم رسلٍ، وكم من أنبياءٍ أُرسلوا للأرض حتّى
يُنقذوا الإنسان ممّا قد تسمَّوْهُ الخطيئة؟
كلُّ ما جاؤوا به، يوحي بأنّ الأرض مقبلةٌ
على إسمٍ آخر هو جنّةُ الفردوس.
أين هي؟
لقد جاؤوا لإنقاذ السفينة، غير أنّ

سفينتي قد أُثْقِلَتْ غرقًا. لماذا؟

من تُرى قد زادها غرقًا؟

وأين الأنبياءُ؟

وأين كلُّ كلامك الممسوح بالريح والرحمة

والمدى الأبوي؟ والرّحمات والعدل المبارك

والسلام؟(21)

هناك سِرٌّ في الكلام على الخليقة فوق هذي

الأرض. كيف تعيش؟ تعملُ؟ تصقُلُ الشهواتِ

تتَّشِحُ التسامحَ؟

لسْتُ إلّا تابعًا. لكأنني ظِلٌّ لبوذا أو محمدَ، أو

لزارا، أو راما، والمسيح. العدل شيخ الأرض. والحبُّ

الملاك الحارس الأرواحَ. والأيام ليس ترابُها إلّا ربيع

الوقت. والروحُ انعتاقٌ أخضرُ، كالعشب كالغاباتِ

والأيدي طيورٌ في فضاءات السنين[22] **(متفاعلن)**

إلهي، لماذا لم تصعد الأرض إلى فردوسها؟ هل منعها الملحدون من ذلك، وهل داسوا بحوافر خيلهم ميزان عدلك؟ أو أباحوا للمجرمين، وللفاسدين تمزيق شرائعك؟ هل هدّموا المعابد وأحرقوا الكهّان؟

هل سلَّ الملاحدةُ السيوفَ

على تسابيحِ الكلام، وأغرقوها

تحت ضِلْعِ القلب في المعنى

وهل داست حوافر خيلهم ميزان عدلك؟

أو أباحوا لِلُّصوص جميعَ ما وزَّعْتَ
من ذهب البياض، ولؤلؤ الأطفال
والياقوت في البسطاء والفيروز
في خبز الفقيرِ
وكهرمانِ الحقِّ
هل فتكوا بكهّان المعابد؟ أضرموا النار بالساحات
بعد وقوفِ قدّيسيكَ فيها؟[23] (متفاعلن)

إلهـي، الملحـدون لا مقـدّس عندهـم، لا جحيم ولا جنة. أمـا الكهّان والقديسـون في آرائهم خدعٌ كي يخدعوا بها البسطاء، ويسيطرون على عقولهم ليصبحوا قطعانًا عندهم يسوقونهم إليهم وليس إليك يا إلهي.

والأرض فيهـا مؤمنون، وملحدون ومشـكّكون والفضاء مفتوح للجميع، الحقـول والغابات، والمياه والتراب، للجميـع وهذا ما يخلق التنافس بين هذه الشرائح لمصلحة الإنسان.

إلهـي، إنّ الملحديـن الذين محوا ذكر الله من قاموسـهم، بعضهم عشـق التراب، وأفنى عمره يعمل لمصلحة الفقراء والمسـحوقين، والمظلومين، وهو لـم يوظّف المخبرين لمراقبة الناس، وبالتالي زجّهم بالسـجون، إذا كان رأيهم مخالفًا للحزب أو للحاكم.

ملحدونَ ومؤمنونَ
وإنّ أجنحةً لهم مرَّتْ بأجنحةٍ
وهذا الأُفْقُ متّسعٌ لكلِّ الطيرِ
وهو فضاء أجنحة الجميع

وحرةٌ أسفارهم
والشيخُ في غاباتهم للكلِّ والينبوعُ
لا منقارَ يُحْرَمُ من غريفِ الماء، أو بلِّ الجوانح
والترابُ أكفُّ عشّاقٍ كمائدة العريسِ
لعلَّ هذا ما تُحِبُّ الأرضُ في الإنسان[24] (متفاعلن)

إلهي، هذا الملحد قال للميزان: أنت الجبروت. شرّع كلّ الأروقة والمساحات لتتصــارع الرؤى وتتجادل الأفكار. دعا الأيدي لتكون ممحاة المجاعة. الخليقة عنده «نعم» و«لا» وزوال طرفٍ منهما يؤدّي إلى زوال ضدّه....

إلهي، إنّ هذا الملحد ضد المقدّس لكنّ الأرض هي أحلامه وفردوسه الآتي، ولم يقتله كهّان المعابد وحدهم. الملحدون تآمروا عليه، وتناوبوا بسيوفهم على قطع رأسه. إنها الحياة يتساوى فيها مؤمنٌ صافٍ مع ملحدٍ صافٍ وعندها يقضي عليهمــا المؤمنون والملحدون لأنهما يحبّان الأرض. وهنا يصحّ القول: «يا لهذه الأرض، كل بناتها شهداؤها. يا للسماء، جميع من صلّت لها أشواقهم شهداؤها».

قال للميزانِ: أُقسم أنكَ الجبروتُ
شرَّعَ كلَّ أروقةِ الرؤى في الغيم
كي تتجادل الأنهارُ
وجد الحقيقة أنَّ لا أشجارَ
إلّا في تشاجرها
دعا الأيدي، لكي تغدو كمِمْحاةِ المجاعةِ
قال للشَّفَةِ: إذهبي عصفورةً، لا خلفها سَهْمٌ
ولا قفصٌ يلاحق صوتها(25)

هو ملحدٌ ضدُّ المقدَّسِ
غير أنَّ الأرض في أحلامِهِ فردوسُهُ الآتي.
فلم يقتلْهُ كهَّانُ المعابد وحدهم
الملحدون تناوبوا بسيوفهم أيضًا عليه
في كلّ نورٍ قاتلٌ هو لصُّهُ
وقتيلُهُ حارسُهْ[26] (متفاعلن)

إلهــي، إنك عندي مقدّسٌ، وتــراب الأرض عندي مقدّس أيضًا ولكن هل قدّيسوك فيهم شيءٌ من قداستك؟ أين آثار الرحمة في تاريخهم؟ هم من أشعلوا الحروب باسمك وارتكبوا المذابح ويتظاهرون بالتقوى حين يصلّون إليك.

إلهي، هؤلاء المؤمنون الذين يعبدونك ما الذي فعلوه في الأرض، فيه شيء من عدلك، ورحمتك. كم توّجوا بإكليل الخطيئة بشرًا باسمك فأحرقوهم.

إلهــي ماذا يبقى مــن المقدّس هذا عندما يحميه ســاطورٌ وأفّــاكٌ، وأقبيةٌ للتعذيب؟

وما المقدَّسُ عندما لا شيء فيك
من المقدَّس غير أنّك تاجرٌ
صار المقدَّسُ سلعةً بيديك
وانتشرت بمعبدك المضوَّأ بالصلاةِ السوقُ
حيث يَتِمُّ بيعُ الله
والقدّيسِ، والقربانِ، في عُلَبِ التراتيلِ الحزينةِ،
أو بصندوق المباخرِ، أو بكيسِ الصوم؟![27]

ويتعجّب جوزف حرب من القدّيس الذي لا يصغي إلى لغة العقل، والعلم لأنّ هــذا الإصغــاء قد يمحو قليلًا، من الصنمية في داخله، وإذا أصغى أو تظاهر بالإصغاء يقول: كل ما قد يتوصل إليه العقل من أبعاد في النص، منزّل في اللوح.

إنّ هذا المقدّس يقتل المقدّس الذي يعبده حتّى يبقى مخبّأً في سره الدنيوي.

ما هذا المقدَّسُ

عندما يدعوك عقلٌ لاحتفالٍ قد أُقيم لديه

تكريمًا لعلمٍ ربّما يمحو قليلًا من مقدَّسِكَ الذي

صيَّرْتَهُ حجر الرخام، فَتَلْعَنُ الزِّنديق في العلم

الذي جعل العقول شراعَهُ، وتُكَفِّرُ العقلَ

وبعدُ

تلحقُ باحتفال العقل مدَّعيًا بأنَّ جميع ما تُرْخي

العقولُ شراعَها يومًا إليه منزّلٌ في اللوح[28] (متفاعلن)

5 - العقل هو المفتاح للوصول إلى الحقائق الكونيّة:

إنّ العقل البشــري هو تراكم البشــريّة من تجارب عبر الصح والخطأ. هذا التراكم أنتج مقياسًــا منطقيًا للعلاقة بين الســبب والنتيجة، وبين المعقول واللا معقــول. وهذا العقل الذي يضوّى بنوره الأشــياء، ويفرزها ويغربلها لا يعجب رجال الدين لأنه يكسد بضاعتهم المحشوة بالخرافات والبدع والخدع.

في الأرض فلّاحٌ يُسمَّى العقلَ
أذكر أنّه من ألف عامٍ
كفُّهُ زرعَتْ إشارهْ
جاء المقدَّسُ حاملًا فأسَهْ
قطعوا بها رأسَهُ
نبتَتْ إشارتُهُ وصارَتْ بعد أجيالٍ
عبارهْ
وَعَلَتْ، عَلَتْ
حتّى غَدَتْ شجرَهْ
هي روحُهُ في الأرضِ منتشرَهْ
منها تدلَّتْ رأسُهُ ثمرَهْ[29] **(متفاعلن)**

أيّهــا المقدّس، أحببتم أن تعتّمــوا حياتنا كي تمنعوا مجيء الصباح، صباح هذا العقل الذي وحده ســيمحو الظلام الذي خبّأتم فيه التصورات والأشــباح، للفراديس البعيدة، والأيام الملاح في ترانيم ملائكيّة في أنغامها ولكنها لا تنتظر إلّا بريق الذهب في الأكفّ.

أيّها المقدس، أين نحن اليوم، إننا من ظلام إلى ظلام، أجسادنا وأرواحنا ملأى بالظلام، لأنكم أيها القدّيسون، أردتم أن نغلق أبوابنا للشموس ونبقى في الزوايا الرطبة، العفنة المفروشة بالعناكب.

كم ليلٍ بليلٍ، يا مقدَّسُ، أُلْصِقَتْ أطرافُهُ
كي لا يجيء صباحُ هذا العقلِ، في يده مماحي
ما لمحْنا في الظلام من التصوُّر للفراديسِ البعيدةِ
والرؤى البيضاءِ، والأشباحِ في شكلٍ ملائكيٍّ
التموُّجِ
أين نحن؟
وتختفي الأشياءُ
تبقى في الظلام كأننا صِرْنا ظلامًا
كل أيدينا امتدادٌ للظلام.
وروحنا ملأى ظلامًا.
يا مقدَّسُ، أين نحن؟
نظنُّ أنّا كائنٌ بَرَصٌ
لِنُقْفِلْ بابنا كي لا تفاجئنا الشموسُ.
ونلتزمْ هذه الزوايا كي نؤالفَ في
رطوبتها رُتَيْلاء الضريحِ وعنكبوتَ
خرائبِ الأيامِ
ما كانت عليه الأرضُ
لو حُكِمَتْ بعقلٍ؟[30]

أيّها المقدّس، لماذا أغلقت الأبواب أمام روحي، لأرى خالقي كما هو، لا كما صوّرته أنت لي. إنّ الإنســـان ريحٌ، يحبّ الإنتشـــار، يحبّ مداعبة الكائنات التي خلقها الله مثلي، وفيها من الأســـرار كثير من الإشـــارات والعبادات التي إذا أحسنّا فهمها، وقراءتها توصلنا إلى قيمة الخالق من قيمة مخلوقاته.

لقد حجّرتنا أيّها المقدّس وأضعت عمرنا في دخان مباخرك الخرساء.
يا مقدَّسُ، كل ما حولي بأحوالٍ
لماذا أنت قد حَجَّرْتَ روحي
إنما الإنسان أحوالٌ، كهذي الريحِ
كالأشجار، كالينبوعِ
يا حجَّرْتني، ضاعت عصورٌ من يدي[31] **(متفاعلن)**

أيها المقدّس، كل ويلاتي بلا شـــفاء، لأنـــي أداويها بتراتيلك لا بعقلي. لم أدخـــل بيـــت الوعي والمعرفة، ولم أفتح أبواب الزمن لأطلّ على الغد بل أكتفي بالنظر إلى الماضي، فاتحًا كتبًا كســـاها العفن، ونخرها السوس، وأمضي ناسجًا شيخوخة ملئت برائحة المقابر.

ذُقْتُ المراراتِ التي داويتُها بالنُّسْكِ
لا بالعقلِ
لم أسكن بيت الوعي. بل شرَدْتُ
في هذي الصحارى السودِ
لم أُعطِ الزمانَ الشوقَ للآتي
فإنّي دائمًا ملّاحُ بحرٍ راحلٌ أبدًا
إلى الماضي

من الماضي إلى الماضي
فاتحًا كتبًا أُضيف إلى عفونتها
بذاكرتي زفاف السوس،
منتظرًا كهرٍّ مات، روحًا
من سباعيّاتِ أرواحي[32] (متفاعلن)

أيّها المقدّس، وأنا أستمع إلى ترانيمك وتلاوين صوتك، أسمع صوت العقل يناديني: لا تصغ إليه... تعال إليّ إنّ نوري ينتظر مجيئك ليلبسك غدك الملتمع باليقين. ولكني سددت أذني برماد النّسك كي لا أصغي إلى صوت الرياح! أيّها المقدّس، لقد ملأت شمسي بالسواد وأقنعتني أنني أسير معك إلى الآتي. فتحت روحي كي أرى فشاهدت أمي!!!!

ويَهْتِفُ بي تعالَ – العقلُ –
تنتظرُ الشموسُ مجيئك العاري
لتخلعَ في السنينِ عليكَ
آتيكَ المتوَّج بالجناح
وأسُدُّ أُذني بالرمادِ المُرِّ
عن صوت الرياحِ
يا ذا المقدَّسُ
بالسوادِ ملَأْتَ شمسي
أقنعتني أني إلى الآتي أسيرُ
وكلَّما فَتَّحْتُ روحي كي أرى
شاهدْتُ أمسي[33]

إلهي، إنّ في حريّة العقل اتســاعًا للجميع. إن الملحدين ساعدوا المؤمنين بــك، على الخروج من أقفاصهــم والتحليق إلى البعيــد، وبذلك انطلقت عند المؤمنين معرفتك، خاليةً من زيف الكهّان.

إنّ المؤمنين بك استطاع البعضُ منهم
أن يرى في العقل شيئًا منك حرًا.
أو يرى أنّ التمرُّد فيه يغفرهُ احتضانُك للجميعِ
وأنّ في الأشياء طيرًا
فَلْتَطِرْ أنّى تشاءُ
فلن يكون رجوعها إلّا إليكَ
وأنت تعلم أنّ بعض الملحدين هو الذي فتح
الجناح لمؤمنيك، وحطّم الأقفاص
وانطلقَتْ طيورُكَ في سماواتِ البخورِ
لأنّ في حريّةِ العقلِ اتساعًا للجميع[34] (متفاعلن)

أيّها العقل، إنّ ما ينساب فيك من حريّة واتزان، والوصول إلى جوهر الأشياء بإســلوبك الإســتقرائي يجعلك قادرًا بما تملكه من الوسائل والبراهين أن تهدّم الهياكل الوهميّة وأن تفجّر المعرفة، وشلّالات الحق في وجه الباطل.

إنــك تتطلّع إلى الغد، ولا يعنيــك الماضي، إلّا للوقوف فيه، عند الأماكن الرخوة لتعود بتقويتها وتماسكها حتّى تصبح أماكن صلبة، وثابتة.

أيّها العقل، إنّك في صحوة دائمة، فأنت لا تشيخ ولا تمارس الطقوس، ولا يغرّك الجمال، ولا البكاء ولا الفرح لأنّك لا تتوقف عند الأمور العابرة، وهذا ما يتهمك به الشعراء بأنك جلمود صخرٍ!!! ولكنّ هذا الصوان فيك، جعلك تدخل

إلى الباطن دون أن يخدعك الظاهر.

ستهدمُ أو تُعَوِّضُ، أو تُفَجِّرُ

ليس من ذكرى لديك أحبُّ

عندك من غدٍ

وغدًا ستبني

ما لديك وسادة

لا نوم فيك

ولا تشيخ، ولا تُصلِّي

ليس عندك وردةٌ، لا دمعَ، لا أعراسَ

أنت مُفَرَّغٌ من كل ما هو عابر.

ولكنْ ما تَهَبُ الخليقةَ من رحيلك

داخلَ الأشياءِ يجعلها

أرقَّ، أشفَّ، أعمق[35] (مفاعلتن)

وهذا الكون اللا منتهي، لا نســتطيع سبر أبعاده، بالتراتيل والصلوات. أيّها الإنسان إذا أردت أن تكتشف هذه الأبعاد فكن بحّارًا ماهرًا، ومغامرًا جريئًا، تلوي العواصف بإرادتك وقوّة معرفتك بالرياح، وأنواعها وهذا لن يحصل إلّا بالعلم، والعلم مصدره العقل. وهذا العقل بما سيحققه من الإنجازات الكونية، سيقرِّبك من مخزن الأسرار الإلهية.

ليس يُطْفِئُ نار هذا الكونِ

أيُّها العاري أمام الكونِ، مرتديًا كما البحارُ

قمصانًا من الملحِ الموشَّحِ بالعواصفِ، هاتفًا:

يا أيّها اللامنتهي

يا كلَّ سِرٍّ بعدُ لم يُفْتَحْ

ويا ذاك الغموضُ المستريحُ أمام

أبواب الكواكبِ

والفضاءات التي ألوانُها ألّا نراها

يا عناصرُ، يا قُوى الأعماق

يا غيبَ السوادِ، ومعلَّقاتِ اللُّغْزِ

يا كلَّ القوانينِ التي قد سنَّها يومًا

قضاةُ الكونِ

يا هذا المدى، يا كلَّ شيءٍ

إنني آتٍ بوجهٍ صارمٍ، ويدٍ بغير هوًى

لأكتشفَ الذي تدعونه ذا الكونَ

لا شيءَ أراه مقدّسًا[36] (متفاعلن)

أنا العقل سأغوص في تركيب الأشياء، سأفكك هذه الأشياء، أدخل في تركيب الأصول، أكون في ضلع المثلث والمربّع عند «فيثاغورس» الرقميّ. أو في نار «هيرا قليطس» الداعي إلى أنّ الطبيعة واحد متعددّةٌ... إنني رهيف الحواس لأصغي إلى حركة المادة، أنا لست شاعرًا أرى القمر في الليل قرص فضةٍ يسكب فضّته على جسد النساء. وأنا لا أفكّر بالغيب. وما وراء الموت، ولا تعنيني العجائب والنذور في حديث الكهّان، ولا الروح التي تفتّش عن جسدٍ لتسكن فيه.

إنّني رائي الحواس

فلا المساءُ معي مساءُ الشِّعْرِ

والقمرُ المدوَّرُ، فوقُ، ليس بحارسٍ جسدَ النساءِ
وما المياه إلهةٌ للخصبِ
والشمسُ التي لمَّا بثوبِ غروبها اتشَحَتْ
مَضَتْ للعالمِ السُّفليِّ، وَهْمٌ ليس يُفرِحُني
حكايةُ أنَّ هذه الأرض زُوِّجَتِ السماءَ
وأنجبَتْ كلَّ الذي يحيا عليها[37] (متفاعلن)

أيّتها الأرض، جميعهم غرّهم جمالك تغزّلوا بجسدك. وتنافسوا في تصوير فتنتك وجمالك، ولكني، أنا العقل الوحيد الذي يفكّر كيف سيحافظ على جمالك، ويمنعه من زوال شبابه.

أيّتها الأرض، إني أعمل من أجلك، وأحب كل الذين يحبّونك ويقدّمون لك الهدايا، ويعطّرون قامتك بالبخور، ويأخذون مما قدّمت من معرفة وعلمٍ المهارات لعمرانك حتّى تصبح أعيادك أعياد الروح بلا موتٍ وبلا ألمٍ. ولكنّ الذين يتاجرون بأولادك، ويغرقون بشهواتهم، مؤمنين وملحدين، قتلوا العشق وهم يلاحقونني ليسرقوا كنوزي.

جميعهم عشقوكِ يا ذي الأرضُ
لكنّي الوحيدُ المنقذُ الأرضَ الجميلةَ من زوالِ شبابِها
أحبَبْتُ عشّاقًا
أتوا فَمَكِ المنوِّر بالهدايا
وجهك الشّمعي، بالصلواتِ،
قامتك المقدّسة الأمومة. بالبخورِ
وقدَّموا ما قد قَصَّبْتُ من العلوم

حجارةً تبني العصورُ لك البيوت بها
وتملأها سلامًا، واحتفالاتٍ بعيد الروح
وهي بغير موتٍ، أو بلا ألمٍ
ولكنّ الذين تعشَّقوا شهواتهم
قتلوا جميع العاشقينَ، ولاحقوني
ملحدينَ
ومؤمنينَ
ليسرقوا مني كنوزي، حيث يصبح كلُّ كنزٍ
مِدفعًا، سيفًا، بنادقْ[38] (متفاعلن)

أيّتها الأرض، إنّ المؤمنين والملحدين، لاحقوني لأني اكتشفت واخترعت كلّ ما يجعلك أكثر عطاءً، وأكثر كرمًا، وأكثر فرحًا، وأنت توزّعين الطحين على جميع الأفواه من سادةٍ وعبيدٍ، وقاتلٍ وقتيل، ولكنهم خانوا نوري، وإبداعي وأنزلوا السكين بين نهديك اللذين تمازج الدم فيهما، بغمامة اللبن الذي قد ذاب فيهم. لقد سرقوا ما أعددته لك من وسائل الراحة، وحوّلوها إلى قيدٍ، وسجنٍ، ومقصلةٍ ونيرٍ رفعته أعناق العبيد بيارق لملوكها. لقد جعلتك أكثر خصبًا حتى امتلأت سهولك بأمواج السنابل، ولكنّ المجاعة زادت.

أيّتها الأرض، إنّي حزين، وفي داخلي صراع مدمّر: فأنا العقل الذي يرتّب قامتك وأنا العقل الذي اخترع كلّ أدوات الحروب والخراب!.

لاحقوني
منذ أن أشعلْتُ فيكِ شرارة الصوّان
واكتشَفَتْ يدي سكينك الحجريّةَ الحدَّيْنِ

ما قتلوا الغزالَ بها
ولكنْ،
أنزلوها بين نهديكِ
لاحقوني، بعدما خانوا كنوزي، إذ غَدَتْ نَهْبَ اللصوصِ
وزينة الأسواقِ
يا أرضُ، كيف يصيرُ هذا الخبزُ سمًّا؟!
والسيوفُ يراعةً أوراقُها جَسَدٌ
وأسطُرُها جراحُ؟
كلّما عمَّرْتُ للعصفورِ بيتًا أخضرًا
سكنته أفعى.
كلّما نادَيْتُ عرسًا جاءني قبرٌ!
ليس في كفِّي مّما قد صنعْتُ
سوى الرمادِ!
وإنني يا أرضُ
منقسمٌ على ذاتي. أنا العقلُ المجرَّدُ
في العلوم، من المشاعر، إنّني العقلُ المدمِّرُ
في الحروب[39]

أيّتها الأرض، أنا العقل الحائر، كل شيءٍ فيّ متناقضٌ. إنني متباعدٌ ومتقاربٌ، متفاوتٌ، متصارعٌ حلوٌ ومرّ، عاقلٌ ومتوحّشٌ.

أيّتها الأرض، ماذا أقول لك عن هذا الإنســان الذي تحتضنينه وتتعرّين له بجسدك الشمعيّ، وجداولك التي تحمل في انسيابها حكايات الأزل. إنه الإنسان

المتوحّش الذي يأكل لحم أخيه الإنسان إنه جمرٌ من الشهوات ليس في أعماقه إلّا نساءٌ عاهراتٌ يطفحن حسنًا يسرق النسّاك من صوامعهم.

كلُّ شيءٍ، كلُّ شيءٍ
داخلي. ما بداخلي؟!
هو أنني متباعدٌ، متقاربٌ
متناقضٌ، عاقلٌ متوحِّشٌ
يا ذا الذي يدعونه الإنسانَ
أنت، أنا
غرائزُنا، كأنَّ رجالَ جمرٍ
ليس في أعماقهم إلّا نساءٌ عاهراتٌ![40] (متفاعلن)

أيتها الأرض، إني أسائل نفسي: هل لي منقذٌ منّي؟ لقد تفرّغت لسبر أسرار الكون، لا لأمحو الله، ولكن لأدخل إلى ذاتي، كيف سأعود وأنا مخضّبٌ بدم الخطيئة؟.

أليس لي من منقذٍ منّي؟!
هربْتُ إلى اكتشافِ الكونِ، أَنْضَجَ، صِرْتُ أكملَ،
صِرْتُ أجملَ.
ليس سِرِّي أنني ماضٍ لأمحو الله.
سِرِّي أنني ماضٍ إليَّ
فكيف أرْجِعُ يا أنا الخلّاقُ
أكثرَ وحشةً، ودمًا، وأسواقًا،
وأعمقَ في الرَّمادِ، أقلَّ في الآفاقِ

ممتلئًا بقارعة الطريقِ، وبالمقاصلِ
والخريفِ المستفيقِ بكلِّ ما قد صار أخضرَ في سنيني؟[41] **(متفاعلن)**

أيّتها الأرض، مضت عصور تلو عصور إلى أن اكتشــفت أني لم أكن فيها غيــر مــن يبكي عليّ، أنا العقل الذي حــاول تنقيح الوجود ولعلّ ما أجريت من حبرٍ لتنقيحي به، لا شيء تغدو عنده البحار ومع ذلك لم أزل فيك أيتها الأرض سفّاحًا، ولصًا.

قد مزّقَتْني ما بروحي من رياحٍ
خالقٌ، راءٍ، نبيٌّ، كاشف الأسرارِ
مفتتح البعيد أنا.
وبعد؟.
أشدُّ كالنيران للنير الذي اكتشفَتْ
مرارةَ ذلِّهِ عُنُقي. عصورٌ
بعدها مرَّتْ عصورٌ
لست فيها غيرَ من يبكي عليَّ
رغم ذلك لم أزل في الأرض
أكثر مجرمًا، لصًا، وأفّاكًا
وذا رأسٍ تلافيفي بهِ
تبدو خرائط للمذابح والخطايا[42] **(متفاعلن)**

ولكنّ العقل مع كل هذه الفريات عليه يبقى صامدًا ومستمرًا في رسالته لأنّ شــوقه الكبير يكون في الآتي المشرق من الأيام والعصور. وهو ماضٍ في رحلة الاستكشاف للوصول إلى حقيقة المقدّس.

أيّها المقدّس، سوف أتابع رحلتي إلى اللا منتهي، إني ماضٍ إليك مهما كنت: ربّاً أو ساحرًا حيًّا أو جمادًا.

يا مقدَّسُ
إنّني ماضٍ إليك، أكنْتَ ربًّا أو عميقًا،
مدهشًا، أو ساحرًا، موتًا ولاداتٍ كواكبَ
مادةً عمياءَ
إنني ماضٍ لأُكْمِلَ رحلة اللامنتهي
ليس لديّ إلّا أنني أشتاقُ
حتّى إنْ وصلْتُ، اشتقْتُ
فاشتعلَتْ طريقي من جديد بي
فياذا الشوقُ، يا ذاك الوصولُ
ويا أنا
هذا الذي من أجلِهِ قد جئْتُ
حتّى ألتَقِيني كاملًا في كلِّ شيءٍ
لا مقدَّسَ قبلُ
إذ إنّ اعترافي بالمقدَّسِ ليس إلّا أنني ألقيْتُ
مِرْساتي
وكتبْتُ إبحاري
بمِمْحاتي[43] (متفاعلن)

ويمضي جوزف حرب في ملحمة العقل، بل في ملحمته هو:

البروق إكليل أيامه، وصولجانه ريشته، ووشاحه دمه، ومن كروم الأفق

خمره، وأمام الكون بين الصاحي والســكران، لما ينتابه من النشوة ورماحه التي أصابت هذه المرة، فتحت في داخله رؤى عميقة، وبعيدة أخذ يجذّف نحوها بعد أن تحررت سفينته من مرساتها.

إكليل أيامي البروقُ وصولجاني
ريشتي، ودمي وشاحي
والأُفْقُ بعدَ كرومِ غيمِ عريشِهِ خمّارتي
وجرارُ راحي
وأنا أمام الكونِ، من شوقي لَهُ
سكرانُ صاحِ
وأظنُّ أني كائنٌ في كلِّ شيء
إنْ رماحي قد أصابَتْ مرَّهْ
شيئًا أصابتْني رماحي
ها قد فَتَحْتُ جَناح أشرعتي
وغاصَتْ في غمير الموج أطراف المجاذيفِ
العصيّةِ، واستراحَتْ عُنْقُ جري سفينتي
من قيد مرساتي
فَهُبِّي يا رياحي
أنا مُبْحِرٌ صوب المدى الكحليِّ
حيث السِّرُّ منغلقٌ عليه البابُ
من خشبٍ لليل لم يُوَشَّحْ
بالصباحِ
فإذا رأيتِ عليه حُمْرَةَ أرجوانِ

لا تقولي: ذي غروبُ الشمس

بل هذي جراحي[44] (متفاعلن)

وتبدأ الرحلة بالمضي إلى قمر بعيد في داخله، وعبر الرؤيا تسافر به روحه ليدور حول الشـــمس حيث يشاهد الكواكب التي رافقته كأنها سربٌ من البجع، ويــدور حــول بحيرةٍ زرقاء في وادي الغروب فإذا هو في الفردوس الذي يبحث عنه.

فيرى نفسه بين تغريد العصافير تظلّله عريشة تتدلّى عناقيدها الذهبيّة المثقلة بخمرتها الأزليّة، وســط حوريات الحور المرخيّــة الضفائر. والجميع يدخلون المعبــد الأوّل منــذ بدء الخليقة، وهذا المعبد مرتــبٌ ترتيبًا أنيقًا ترصّعه النجوم وفي هذا المشهد تتجمّع العصور وأمكنة الوجود فيكشف المجهول عن أسراره لصديقه المعلوم وبذلك نكون كأنّا فتحنا الكون واكتشفنا كل شيءٍ.

أمضي إلى قمرٍ بعيدٍ في دمي.

وندور حول الشمس في روحي معًا.

وأرى الكواكب رافقتني مثلما بجعٌ يرافقُ بعضَهُ

ويدور حول بحيرةٍ زرقاء في وادي الغروبِ.

وأسمع الأجراس تقرعُ بي وتأتيني العصافير

التي ارتَدَتِ المسا. وعريشة الصيف التي حَمَلَتْ

كأمٍّ يمامةٍ عنقودَها.

والنبع يُلقي حوره العالي على كتفيهِ

تتبعُهُ السواقي زُيِّنَتْ بالسَّوسنِ الفضّي

والصفافُ أرخى شعره كالمريماتِ.

ويدخلون المعبد المبنيَّ من حجرِ البداياتِ السحيقةِ
والمرتَّبَ كالدقائقِ، والمرصَّعَ بالمجرّات
المضاءةِ مثل تنقيطٍ من الياقوتِ
أو شُعَلِ النجومِ الواقفاتِ وراء شباك الضباب
وتلتقي كلُّ العصور بكلِّ أمكنة الوجود[45]

وانطلاقًا من هذه الرؤيا التي انكشــف فيها كلّ شــيءٍ في الخليقة، ويصير فيها الكون نائمنا، ونحن بنومه أحلامه، ونحيا بما يدعونه الفردوس. ولكن ماذا يحصل لو اهتزّت الأرض، وأدّى ذلك إلى فنائنا، فمن ســيكمل اكتشــاف الكون أيها العقل، وما معنى السماء إذا غدًا قد أغلقت أبوابها؟

لا موت بعدها، ولا ولادة، ولا اكتشاف، ولا غموض ولأي أسباب لم يكن أمس كما أريده، وكيف يصبح في الغد؟

ربّما تهتزُّ هذي الأرضُ
أو يجتاحنا يومًا وباءٌ ثمّ نفنى
من سيُكْمِلُ أيُّها العقلُ اكتشافَ الكون؟
ما معنى السماء إذا غدًا قد أُغْلِقَتْ أبوابُها
لا موتَ بعدُ ولا ولادة، لا اكتشاف ولا غموض[46] **(متفاعلن)**

إنّــي العقل، هذا اســمي، الذي تعرفني بــه الأرض. وأعدائي على الأرض كثيرون، وأخطرهم من سيفرح من الخيانة التي مورست ضدي. لقد تعوَّدْتُ على هذه الخيانة، وجراحي دائمًا تزهر بالثبات والأمل، وكلّما اكتشــفت ســرًا تصبح الأرض أجمل ولكنّ لصوصها دنّســوا إنجازاتي وأحرقوا بها السنابل، وأنا أعلم بأنّ سمومهم ستزداد كلّما فتحت بابًا جديدًا كان مغلقًا في هذا الكون.

إني العقل الذ يعشق عمله، رغم كل السموم، والآلام، والخيانة، والجراح، واليأس الذي يوحي به أعدائي من الملوك والكهّان، والتجار والمرابين.

في الأرضِ أُدعى العقلَ
لا اسمَ لديَّ خارجها. وأعدائي بهذي
الأرض لا يُحْصونَ، لكنْ
ليس كثرتهم بشيءٍ عند من قد مارسوا
ويمارسون، ومَنْ ستسعدهم
ممارسةُ الخيانةِ في عصور الأرض ضدّي
حاملٌ كفَّيْنِ في جوفيهما أثر لصلباني
وجرحي أخضرٌ
لم أفتح لسرٍّ بابه إلّا لتغدو الأرضُ أجملَ
غير أنَّ لصوصَها سكبوا بمائي سُمَّهُم
وسقوه للأرض التي ستظلُّ تشعر من دوار لصوصها
مَنْ كلّما ازدادَتْ مياهي ازداد سُمُّ أكفِّهِم
وإنّي صادقٌ
إنْ قُلْتُ
أعشق ما أقوم به، برغم الحزن والآلام
واليأس الذي يوحي به وجهُ الملوك
وسبَّحةُ الرهبانِ، والقاضي وأسواق المذابح
والمرابي[47] **(متفاعلن)**

إنّ هذا الكون جميل. لن أتراجع عن رسالتي في كشف أسراره مهما حصل،

حتّى ولو صلبت أو مزّقت قلبي مناقير الكنائس، لا أعرف النوم، ولا راحة عندي ولا أعياد، ولست غيمًا عابرًا، إني حاضرٌ في كل شيء. كل من أحببتهم لوحقوا وعذّبوا وسجنوا أحببت العارفين والأنبياء، والفلاسفة، والعلماء، وصوت الحق والثــوار. ولــم يكونوا جميعهم برقابة مطرٌ، وقمحًا فيــه رائحة الطحين. أصابوا وأخطأوا، ولكنهم حاولوا أن يقرؤوا في كتاب الأرض، وتركوا لنا حبر هم الأسود والأزرق والأحمر والكحليّ.

رائعٌ ذا الكونُ
لن أطوي شراعي فيه حتّى لو صُلِبْتُ
على الرياحِ. ومزَّقَتْ قلبي مناقيرُ الكنائسِ.
لا وسادةَ لي
ولا أعيادَ عندي.
لسْتُ غيمًا عابرًا.
لسْتُ الغواية، لسْتُ فقرًا أو غنًى، مملكةً
أو رايةً.
إنّي الضرورةُ
ومنذ بَدْءِ البَدْءِ لوحِقَ كلُّ مَنْ أحبَبْتُ
مَنْ أحبَبْتُ، كان الصامتون العارفون، الأنبياءُ
الفيلسوفُ، الشاعرُ، العلماءُ، صوتُ الحقِّ في
عُمْقِ البراري...
لكنْ
لم يكونوا دائمًا بَرْقًا به مطرٌ[48] (متفاعلن)
جلّادو الأرض ثلاثة: قاضٍ نسي العدل في جيبه، وعسكريّ تطوّس برقعتين

على كتفيه، وحاكمٌ مستبدٌ يحمل صندوقًا من الذهب فيه خرائط للمذابح، ونصّ غيبٍ أهداه إيّاه كاهن الرعيّة شريكه في الوليمة.

يقولُ رعيانُ السنينِ:
الأرضُ أثقلَ ظهرَها قاضٍ بلا عدلٍ
وخوذةُ عسكريٍّ
حاكمٌ في سيفه يشوي على نار الشموسِ
الأرضَ كالغزلانِ.
صندوقٌ، خرائط للمجازر نصُّ غيبٍ[49] **(متفاعلن)**

أيّهـــا المقدّس، باســـمنا ارتكبت المجازر علـــى الأرض. كلّ منا قد أصيب بخائنٍ وهذا نلتقي عليه، وكل ما تبقّى أننا ضدان: واحدٌ مفتوحٌ على الآتي، وآخر مغلقٌ. الأوّل يراقب يحلّل، يســتنتج، والثاني نائم مكتفٍ بما عنده من الشــرائع الثابتة التي بها أقام سلطته على الأرض، زاعمًا، زورًا، وبهتانًا بأنه ممثّل الله على الأرض وطاعته من طاعة الله، والخروج عليه خروج من الإيمان إلى الكفر.

يا ذا المقدَّسُ
باسمنا ارتُكِبَتْ جميعُ مذابح التاريخِ
كلٌّ قد أُصيبَ بخائنٍ
لا نلتقي إلّا هنا
ما قد تبقّى،
أننا نصّان مختلفان:
ضدٌّ وهْو مفتوحٌ، وآخرُ وهو منغلقٌ.
وهذا دائمًا يسعى، وذاك ينامُ

نحن اثنانِ
ذا قَلِقٌ وأمّا ذا فمرتاحٌ
طريقي، دائمًا، بدأتْ بلا.
لكن طريقَكَ دائمًا نعمٌ
وإنّك حين أدخلُ بيت صمتِ الشيء،
تدخلُ بيت صوتِ الشيء[50] (متفاعلن)

أيّهــا المقدّس، كلّ الذين قرؤوا الكون بعقولهم ما زالوا عندي أمّا كلّ الذين مضــوا إليك فقــد رحلوا واختفوا، لأنّك أيّها المقــدّس عندما كنت تطرح عليهم شرائعك لم تناقشهم، ولم تصغ إلى آرائهم في شرائعك الملأى بالأساطير والهوى.

أيها المقدّس، أمّا أنا فإني متفرّغ إلى علمي، أســتقرئ الأشــياء وأبحث عن مصدرها بالأدلة المحسوسة لا بالأهواء والخرافات.

قد ظهر الذين مضوا إليَّ
وإنما كل الذين مضوا إليكَ قد اختفوا
وحين تأتي بالشرائع، لا يفوحُ من الشرائعِ
غير أنّك لا تناقشُ، ولا تبدِّلُ.
إنّني أمضي إلى علمي، لعلمي.
لا «أنا» يومًا يرافقني، ولا غيمي بروحي
كي تقلِّبَهُ الرياحُ.
بغيرِ شدٍّ، غير خيرٍ، غير أهواءٍ
أجالس مادة الأشياء

منصرفًا إليها[51] (متفاعلن)

أيّهـــا المقدّس، أنا غارقٌ دائمًا بعبق التأمّـــل والحكمة. كل نصّ أجده باليًا أمزّقـــه، وأطوي صفحته، وأبحث عن غيره، يحاكي حاضري لا ماضيّ، لأنّ كلّ غدٍ، ظلّ ماضيًا قبرٌ.

أيها المقدّس، إنّ مقدّسي هو الإنسان الذي ينعم بسنبلةٍ ووردةٍ وكل القوانين والشرائع الخالية من العدل هي سبب وجود اللصوص والمحتالين على الأرض، وسبب كل المجاعات والخراب.

ومتوّجٌ بالحُلْمِ، أو برقِ المدى، والحكمةِ
الملأى برائحة التأمُّلِ.
كلُّ ما قد شاخ أطوي نصَّهُ
وأخطُّ فوق دفاتري الحبر الفتيَّ
سلالمي حُمْرٌ، ففوق عِصِيِّ أضلُعِها جراحي.
كلُّ أجنحتي اسمها حريّةٌ. وغدٌ بغيرِ شريعتي قبرٌ
وصلبٌ كلُّ سلطانٍ، بغيرِ بيارقي.
ومقدَّسي الإنسان أن يحيا بسنبلةٍ ووردٍ
والقوانين البخيلةُ بالعدالة نَبْعُ ما في الأرض
من لِصٍّ، وفتّاكٍ، ومُحتالٍ
ومجرى كلِّ فقرٍ، أو مجاعاتٍ، وبُومٍ في خرابٍ.
والعدالةُ أمسِ
ليسَتْ في غدٍ هي ذاتها[52] (متفاعلن)

وحلمي في هذا الوجود أن أرى الأرض كوكبًا لا تاج عليه، ولا سيوف، ولا قضاة. إنّ سنّة الحياة أن تتغيّر بتغير الأزمنة والثابت الوحيد عليها هو الإنسان الذي عليه أن يستبدل كلّ قديم بكل جديد يلائم العصر الذي يحيا فيه. لا وطن نهائي للإنسان إلّا الأرض. الأرض هي الوطن وكل الأوطان التي حدّدها أصحابها على الأرض هي التي ولّدت الحروب والدمار والخراب.

إنّي أكتشــف علمًا، ليسرقه اللصوص، ويستعبدون به شعوب الأرض. إني أكتشف كي يكون الكون أجمل والوجود أكمل.

تتعاقبُ الأيام، لكن، وهْي ملأى بالتغيُّرِ
هكذا، فلتصبحِ الأرضُ الجميلةُ
إنّ أوطانًا بهذي الأرضِ تعني
الحربَ
لا وطنٌ نهائي، سوى الأرض التي وصَلَتْ
إلى لا حكمَ للأوطان فيها. قبلُ، فالمحتلُّ
لِصٌّ والمقاوم روحُ حُرٍّ أو شهيدٌ
تحضنُ الأرضُ الجميعَ، وكلٌّ بجذورِهِ
لكنْ، بأُفْقٍ واحدٍ.
لم أكتشف عِلْمًا، ليفرح به زاني السوقِ
لكنْ، كي يكون الكونُ أقربَ، والوجودُ أقلَّ كُحليًا
وهذا الكوكبُ المختار راعي العيد والعصفور،
لا تاج عليه، ولا سيوفَ، ولا قضاةَ
وإنَّه حُلْمي[53] **(متفاعلن)**

أنا العقل الذي لا يعرف شيئًا، إسمه اليأس رغم كل الجراح وما فعله الخونة بإنجازاتي. كل ما أريده في هذه الحياة، عدم إغلاق بابي لاكتشـــاف هذا الكون. وغدًا عندما أكمل رسالتي سأقف منتشيًا هاتفًا: يا أرض هذا اليوم عيدك.

ولكن كم أشـــعر بالحزن والألم عندما يســـرق اللصوص والتجار والملوك والكهّـــان هديتي إلى الأرض، وتصير هذه الأرض إن قدّمت محراثًا حوّلوه إلى سيفٍ، وإن قدّمت جناحًا حوّلوه سجنًا. إنها الخيانة العظمى التي ارتكبت بحقي.

لا معاركَ خاضها أحدٌ، كمثل معاركي
لا يأس يُطْفِئُ لي دمي، رغم الجراح، ورغم صلباني،
وما حَفَرَ الغزاةُ من المقابر لي
صحيحٌ، أنه لا شيء يعنيني
سوى إغلاقِ بابي في اكتشاف السِّرِّ
لكنْ، عندما أُنهي التشافي أفتحُ الأبوابَ
مُنتشيًا، وأهتف عاليًا:
يا أرضُ هذا اليومُ عيدُكِ
فاقبلي مني هديةَ مَنْ يُحِبُّكِ لَفَّها بدم الأصابعِ
آهِ
كم تسوَدُّ روحي، عندما يأتي اللصوص،
ويسرقون هديتي، وتصير هذه الأرضُ،
إنْ قدَّمْتُ محراثًا، غدا جوعًا، وإن قدَّمْتُ
عصفورًا، غدا قفصًا، وخمرًا، صار سُمًّا[54]

إلهـــي، أنبيـــاؤك الذين بعثتهم لينقذوا الأرض مـــن جحيمها لوحقوا عذّبوا

وصلبوا. وحرّفت كتبهم. وهم الذين نشروا المحبّة والتسامح وتوّجوا ملكًا واحدًا على الأرض هو الخير. لم يخدعوا ولم يستكبروا، نقّوا القلوب، كما ينقّى القمح. لقد ملأوا الأرض رحمةً، وعدلًا، ولكن بعد رحيلهم عادت الأرض جحيمًا.

أنبياؤك، عندما منذ القديم – أتوا،
أُبيحو لوحِقوا، صُلِبوا.
وقد قُطِعَتْ غصون كلامهم
حتّى يصيروا لا ظلال لأي معنى أنهم جاؤوا
وقد نشروا المحبّة والتسامح، توَّجوا ملكًا
يُسمَّى الخيرَ
ما مَكَروا، ولا استعلوا ولم يستكبروا.
كل يدين قد غَدَتا غمامًا، والوجوه
رسائل البركاتِ
والأيام صومعةٌ لرهبانِ الجناحِ(55)

بعد هذه الرحلة مع جوزف حرب في آرائه حول الله، والوجود يمكننا القول: إنّ جوزف حرب كان إنسانًا فاعلًا في شعره، وفكره وأراد أن تكون حياته في هذا الوجود، علامةً دافعة في تعميق الوعي، حول حقيقة الله، والدين ورجاله وحقيقة الملوك والحكّام. ولكن الأمر المركزي الذي كان يحتلّ الصدارة في فكره وسلوكه العقل البشري، ومقدرته التي لا حدود لها. وبهذا العقل، وحده يقدر الكائن البشري أن يحدّد موقعه بين جحافل البشر، على هذه الأرض.

هوامش

الفصل الخامس:

1 - جوزف حرب: المحبرة: 673 – 674.
2 - نفسه: 675.
3 - نفسه: 676.
4 - نفسه: 677.
5 - نفسه: 678.
6 - نفسه: 679 – 680.
7 - نفسه: 682 – 683.
8 - نفسه: 684 – 685.
9 - نفسه: 688 – 689.
10 - نفسه: 690.
11 - نفسه: 692.
12 - نفسه: 695.
13 - نفسه: 697.
14 - نفسه: 698 – 699.
15 - نفسه: 700.
16 - نفسه: 701.
17 - نفسه: 702 – 703.
18 - نفسه: 704 – 705.
19 - نفسه: 705 – 706.
20 - نفسه: 706.
21 - نفسه: 708.
22 - نفسه: 709.

23 – نفسه: 710.

24 – نفسه: 712.

25 – نفسه: 714.

26 – نفسه: 716 – 717.

27 – نفسه: 721 – 722.

28 – نفسه: 723.

29 – نفسه: 725 – 726.

30 – نفسه: 728 – 729.

31 – نفسه: 729.

32 – نفسه: 730.

33 – نفسه: 731 – 732.

34 – نفسه: 736.

35 – نفسه: 738 – 739.

36 – نفسه: 740 – 741.

37 – نفسه: 743.

38 – نفسه: 744.

39 – نفسه: 745 – 746 – 747.

40 – نفسه: 750.

41 – نفسه: 751.

42 – نفسه: 752 – 753.

43 – نفسه: 757 – 758.

44 – نفسه: 759 – 760.

45 – نفسه: 760 – 761.

46 – نفسه: 762.

47 – نفسه: 764 – 765.

48 – نفسه: 766 – 767.

49 – نفسه: 768.

50 – نفسه: 768 – 769.

51 – نفسه: 770 – 771.

52 – نفسه: 772 – 773.

53 – نفسه: 773 – 774.

54 – نفسه: 774 – 775.

55 – نفسه: 756 – 777.

الفصل السادس:

ما قاله فيه معاصروه

1 – الشاعر اللبناني طارق آل ناصر الدين

2 – الشاعر اللبناني باسم عبّاس

3 – الشاعر السوري عبد القادر الحصني

4 – الشاعر اللبناني محمد علي شمس الدين

5 – الشاعر اللبناني غسّان مطر

6 – الشاعر المصري فاروق شوشة

الفصل السادس

ما قاله فيه معاصروه

1 - الشاعر طارق آل ناصر الدين[1]:

الشاعر طارق آل ناصر الدين من الشعراء اللبنانيين المشهورين في مواقفهم القومية والوطنية، وقد آلمه رحيل جوزف حرب، فرثاه بهذه القصيدة: (البسيط)

إنّا على موعدٍ يا صاحبي اقتربِ ... ويا محابرُ رُشّي الشوقَ وانسكبي

جوزيفُ ليس هنا، جوزيفُ صار بنا ... مستوطنًا بين ريفِ العينِ والهدبِ

فإنْ نظرْنا يرى فينا وإنْ غمضَتْ ... عيونُنا فهْو من كشّافةِ الحجبِ

نقضي على الأرض أعوامًا مخصّبةً ... ولا نملُّ فيا أعوامه انتسبي

جوزيفُ أمُّك عرباءٌ محصَّنةٌ ... والشِّعْرُ كان أبانا وهْو خيرُ أبِ

إنّك لم تمت يا صديقي، هيّا اقترب منّا فهذا الشعر ينادينا وينتظر منك باقةً من حدائق إبداعك. إنّك لم ترحل فأنت محفور في مجامرنا، ومنتصب أمام عيوننا، بل ذبت فينا فإن غمضت عيوننا تستيقظ برؤياك التي تطارد السرّ حتّى تمسك مفتاحه إنّك متحدرٌ من دوحة الشعر وأنت فيها بلبل الأيك.

ما كنْتَ شاعرَ سلطانٍ كما زعموا بل أنتَ سلطانُ شعرٍ دائمُ الغلبِ

عزَفْتَ قلبَكَ في لبنانَ فارتعَشَتْ أنامــلُ الحبِّ في قيثارةِ الطربِ

أعنــي بلبنــانَ زرّاعــي مرابِعِهِ بالأرزِ والتينِ والزيتونِ والرطبِ

آمنْتَ بالأمّةِ الفضلى وكنْتَ بها سيفًا يخطُّ مدادًا فاضَ بالغضبِ

ومصرُ أهدَتْكَ من أهرامِها قمرًا لكيْ تظلَّ على مرأى منَ الشُّهبِ

ما عاد للشــامِ دمعٌ كي تجودَ بِهِ على ثراكَ فجادَتْ بالدَّمِ العذبِ

إنّــك يــا صديقي، ما كنت بوقًا للتاج، بل كنت تاجًا للشــعر، حملت قلبك قمــرًا تضيء به وجوه العشّــاق فــي ربوع لبنان، وملأت النفوس نشــوةً بأغاني الحبّ التي غنّتها الســيدة فيروز آياتٍ من العزّ للناس المهمّشــين الذين يداعبون الأرض بمعاولهم التي نشــتم منها رائحة الطحين. نذرت شعرك لأمّتك العربيّة، وكنت أصيلًا ووفيًا بانتمائك، حتّى غدا حبرك يشتعل وعيًا، ونقمةً على الصهاينة والتيجان والكهّان واللصوص الذين يشــربون رحيق الفقراء والمســحوقين. لقد بكتك عشيقتك دمشق بالدّمع والدم.

قالــوا انتقلْتَ إلى الجنّــاتِ أفزَعني أنَّ المــكانَ بعيــدٌ والزمــانَ غبــي

فكيف تسعى لملقى الحورِ وهْي سَعَتْ إليــكَ فــي هــذه الدنيا ولــمْ تُجِبِ

ألبسْــتَها مترفًــا إســوارتَيْنِ معًــا إســوارةِ الحبرِ مع إســوارةِ الذَّهبِ

ولــن يغــرَّكَ خمــرٌ أنــت نشــوتُهُ وقد رأيْتَ ســكارى الذلِّ والشَّــغبِ

كســرْتَ كأسَكَ قلْتَ: الكأسُ قيَّدَني ورحْتَ ترشِــفُ صرفًا من فَمِ العنبِ

أســـرَجْتَ رؤياكَ: سبَّاقٌ إذا احترَبَتْ　　　وإنْ عشِــقْتَ فمِغنــاجٌ علــى خَبَبِ

كان الــكلامُ قرينًــا لا يفارقُــهُ　　　والحبرُ يكــرجُ بين النبضِ والعصبِ

فلــم ينَــمْ ليلــةً إلّا علــى كَلِــمٍ　　　ولــم يُفِــقْ مــرّةً إلّا علــى خُطَــبِ

ما أعظمَ الشّــعرَ يحيا بعــد صاحبِهِ　　　ويأمــرُ الموتَ: قِفْ خلفي ولا تُجِبِ

ما أظلم الزمن وما أغباه، يخبط الموت فيه خبط عشواء، لا يميّز بين السفيه والفقيــه، بين المقــذع والمبدع. أمثالك لا تغريهم الجنّة بما فيها من حور العين والأطايــب لأنك قبل رحيلك عن هذه الأرض كانت الحور تحتشـــدن حولك، وهنّ يرقصن نشوةً، وشهوةً، بما كنت تجود عليهنّ، من ثمار جسدك. وما زالت أصداء قصيدتك «أســـوارة العروس» تتردّد في أرجاء الوطن العربي. وهي التي غنّتها السيّدة فيروز، بمناسبة تحرير الجنوب اللبناني من براثن الجيش الصهيوني عام 2000.

لقد كانت خمرتك في الحياة النشـــوة العارمة، التي كنت تشـــعر بها عندما تشاهد أبطال المقاومة اللبنانيّة يصبّون كتل نارهم على الجنود الصهاينة، ويلحقون بهـــم الهزيمة، تلو الهزيمة. وكانت منتهى أحلامك أن يصحو القطعان من بطش الذئاب، الذين يتقنّعون بثياب الرحمة أو بهرجة الصولجان. أما في شـــعرك فقد مزّقت الأشـــكال القديمة، وأطلقت رؤياك الشـــعريّة، إلى كل الأبعاد في الكون، بقوالب جذّابة وخلّابة وبجرأة واثقة بحبرها النقي.

2 - الشاعر باسم عبّاس[2]:

باسم عبّاس شاعر لبناني شفيف، شعره يذوب في النفس، كما يذوب السكر في الماء، ويترك في النفس نكهة إبداعيّة، راقية وأنيقة. وكان جوزف حرب على علاقة مباشـــرة معه، من ضمن نشاطات اتحاد الكتاب اللبنانيين الذي كان يتولّى رئاسته جوزف، إضافة إلى النشاطات الثقافيّة التي كانت تقام على الساحة اللبنانيّة، وخصوصًا في الجنوب اللبناني. وقصيدة «تســـمو بك السماء» تعكس لنا صورة جوزف حرب كما كان يراها الشاعر باسم عبّاس. [البسيط والقافية من المتراكب]

نجمٌ يســـافرُ فاهنأْ أيُّها السَّـــفَرُ	**وأشـــعلِ اللَّيلَ للعشَّـــاقِ يا قَمَرُ**
كم من ربيعٍ سيبكي؟! غاب بلبُلُهُ	**وكم شتاءٍ سيذوي ما بِهِ مطرُ؟!**
فيا مسافرُ عُدْ واخلعْ قميصَ منًى	**وألْبِسِ الأرضَ مّما فيكَ يختمرُ**
تلك الكرومُ إليها الطيرُ كم لجأتْ	**عندَ الغروبِ تناجي كرمَكَ السَّحرُ**
وسبرُ أغوارِكَ ما جرَّبْتَ كان هدًى	**لمن أرادوا اكتشافاتٍ وما قدروا**

هنيئًا لك أيّها السفر بالنجم الساطع الذي يمتطي صهوتك، وأنت أيّها القمر الجميـــل أنثـــر فضتك احتفاءً بهذا النجم الآتي ليذوب في فضاء هذا الكون. أيّها النجم الراحل، إنّ ربيع الشـــعر ســـيبكيك مليًا فأنت كنت بُلْبُلَهُ الذي يغرّد ألحانه وسط سنابل الكلام.

لا. لا نريد رحيلك. عد إلينا، إلى الأرض التي قدّســـتها وفصّلت جســـدها عضوًا عضوًا. ووصفت جمالها وتحدثت مع كائناتها، وغصت عميقًا في اكتشاف أسرارها، فأثريت خزائن الشعراء بتجربة فذّة في أفلاك الرؤيا.

حضنْتَ هذا الترابَ، ارتدَّ من ولَهٍ   نارًا على أوجـهِ الغازينَ تنهمرُ
وهبْتَ زنبقـةَ المعنى نضارَتَها   واللفظَ أحييْتَ كي يَغْنى به الوترُ
كفّاكَ كانَتْ سماءً أترعَتْ بهما   ذرى الجبال فصار الصخرُ يستعرُ
إسوارةٌ منكَ في زَنْدِ العروسِ غَدَتْ   قـلاعَ مجدٍ تـدكُّ الريحَ تنتصرُ
أكحِّـلُ الورقَ المِلْحِيَّ أُلبسُـهُ   ثوبَ المجازِ، وأنّى لي غدًا عذُرُ
وربّما كان عصفورُ السؤالِ رؤًى   على غصونِ القلوبِ الخضرِ تنتشرُ

لقد ملأت دواتك من حبر التراب، طبعت إنتماءك إليه بكفّ القلب، وحقنت من عليه بشعرك الثوري حتّى أنجب أبطالًا يسطرون ملاحم، يشهد لها التاريخ في هزيمة الصهاينة وطردهم من الجنوب اللبناني. وكانت قصيدتك «إسوارة العروس» آيةً من كتاب الأرض، ومن كتاب المجد الذي لا يزهر، ولا يثمر، إلّا بزنود المقاومين.

صُغْتَ القوافي نجومًا، صِرْتَ مؤنسَها   ولهـى تجيءُ علـى الأوراقِ تنفجرُ
يا صانعًا للكلامِ الشمس هل سطعَتْ   لولاك؟! هل غَزَلَ الضوء الغوى القمرُ
البئـر مـلأى حكايا، فاسـتحمَّ إذنْ   يا بلبلَ الحورِ، ولْيفرَحْ بك الشـجرُ
في كلِّ جملة حبٍّ روحُكَ انتشـرَتْ   وفكـرُكَ الحرُّ فـي الدنيا هوىً نضرُ
وكلُّ ظـلٍّ من الغابـات باتَ غوى   صفصافـةٍ بحنيـنِ الليـلِ تأتـزرُ
للنّحلِ أشكوكَ، أين الشهدُ! قُلْ، فلقَدْ   جِئْنـا لشـعرٍ مصفًّـى نبضُـهُ دُرَرُ

لقــد نثرت قوافي الشــعر نجومًا مرصّعةً فــي دواويّتك حتّى بتنا نصبو إليها متتبّعين بريقها. كان حلمك أن يكون الرأي مســتحمًا بنور الحريّة، وفي الوقت نفســه شــفيفًا، فيه من الغموض غطاء رقيق كما يكتب القمر ظلال حروفه في الليل. لقد دوّنت في الحب حكاية الجسد، ووصفت تضاريسه بعناية قلّ نظيرها في الأدب العربي قديمه وحديثه، وبقيت روحك الندى الذي يقطّر عليه ويسقيه. إنّ شــعرك شــهد مصفّى قطفت أزهاره من حقول اللوز والشيح والحور والتين وصبايا السنابل.

ينبوعُ شــعرِكَ كم قالَــتْ مطالعُهُ ... يا ياســمينُ انتعشْ، فِضْ أيُّها النَّهَرُ

مبلَّلٌ بغروبِ الشمسِ صوتُ هوًى ... عشَّــاقُهُ الريحُ والأنهارُ والسَّــمرُ

لديــك أجمل ما في الكونِ مِحْبرةٌ ... كأنَّهــا لِبَنــي الدنيــا هي السُّــوَرُ

وشــمعدانُكَ كم صاحَ النُّعاسُ بِهِ ... وظلَّ يســهرُ حتّى استسلمَ السَّهرُ

فافتحْ ذراعَيْكَ للأشجار، شمَّ شذى ... عناقِهــا تَــرَ دمــعَ الغيــمِ ينهمرُ

إنّ شعرك يا صديقي يستمدّ ألحانه من الحفيف والخرير. والسقسقة وتفوح روائح الياسمين من حروفه وكل معانيه تحاكي الريح والأنهار والسهر مع القمر والنجوم في ليالي العشّاق. لقد فاضت مجامرك بالحبر المعطّر بأريج الكادحين والمهمّشــين ورائحة التراب الذي احتضنته وقدّســته، ودعوتنا إلى الإنتماء إليه والخروج من قطعان المذهبيّة والطائفيّة والإنصهار في عناصر الكون الإنساني. وكان شعرك غمامًا يسقي ماؤه النفوس اليابسة حتّى تلين وتتراقص مزهوّةً بالحب والعناق والتآخي.

رجوْتُكَ اكتبْ على جذعِ الزمانِ: هنا يُقيـمُ نجـمٌ كأنْ ضاقَتْ بِـهِ العُصُرُ

واغمرْ صخورَ الجنوبِ، احْفُرْ على فمِها آياتِ نصـرٍ بصـدرِ الأرضِ تختمرُ

هـذا الوجـودُ انفجـارٌ بيـن متّكئٍ ومبـدعٍ مقلتـاه الريـحُ والشَّـرَرُ

فتَّشْـتُ عن عُمُـرٍ كي أفتديـكَ بِهِ بكـى الزمانُ، بكى التاريـخُ والعُمُرُ

أزيِّـنُ الآنَ موتًـا كنْـتَ عاشـقَهُ لكنَّـهُ صـارَ خلقًـا منـكَ يبتكـرُ

كأنَّكَ اخترْتَ تسمو بالسَّما، فَسَمَتْ بكَ السـماءُ، انتشَتْ فاسَّاقطَ المطرُ

كنـت يـا صديقي متوثِّبًا إلى العلا في سـلوكك وإبداعك وهذا ما جعلك تخترق جدار التقليد والركون إلى الماضي. حملت شعرك منارة للأجيال. كنت جنوبيًا أصيلًا رسمت حبّه في محبرتك وطرّزت انتصاراته بألوانك البهيّة وأنطقت صخـره بأناشـيد العزّ وجعلت الريح تحمله إلى ثـوار الأرض لتتعلّم منه فنون البطولة المؤيّدة بصحة العقيدة. كم سـمعناك وأنت تتمنّى الرحيل للإنتقال إلى العالم الآخر إلى السـماء ولكنّ السـماء بقدومك إليها شعرت بسموّك وعبرت عن هذا السمو بالمطر الذي كنت تحبه وتتغنى به.

3 – الشاعر السوري عبد القادر الحصني[3]:

فــي الذكرى الأولــى لرحيل جوزف حرب أقامت الحركة الثقافيّة في لبنان إحتفالًا أدبيًا تكريمًا لذكراه وتخليدًا لشعره الراقي الذي أثرى اللغة العربيّة بروافد إبداعية كانت بحاجة ماســة إليها في زمنٍ أراد لها البعض أن تخبو، ولكن هذه اللغة العريقة والجميلة لا تقبل أن يركب صوتها إلّا خيّالٍ ماهر من أمثال جوزف حرب وهذا ما فاضت به مجامر الشــاعر عبــد القادر الحصني في قصيدته «كلّ حرفٍ عن حرفه مسؤول». (الخفيف)

نحنُ والموتُ والزمانُ طويلُ	فليمِــلْ قصدَنا ونحــنُ نميلُ
ليــرى أنّنــا الكثيــرُ الذي لا	تســتطيع المنونُ وهْو القليلُ
ويــرى أننــا افترعنــا خلودًا	ومطلًّا لــه، يُســمَّى الرحيلُ
وجــرى إثرنــا ســواد لهاثٍ	ســابقاه جميلُنــا والجليــلُ
وإذِ انجــاب عنــه منّــا غبارٌ	وتــولّاه مشــفقٌ وعــذولُ
قيل: من أنت؟ قيل: غمغم خلنا	أنّــه قــال إنّــه المســتحيلُ

إنّ الشــعراء المبدعين لا يموتون. إنهم يغيبون أو يســافرون إلى أرواحنا، وتبقى مجامرهم متوّهجة في نفوســنا ومستوطنة في عقولنا، وأنت أيّها الموت، لا تقدر على محو إثرنا، الذي يولد كلّ يوم من بطون الأجيال.

شــجرَ الوردِ، ما أتيْتُ أواســي	أنت أحلى إذا اعترَتْكَ الفصولُ
وصديقي كســاكَ فيض جمالٍ	فمشــيبٌ كســاؤه وخضيــلُ

كســرَ الحبــرَ بالعتيقــةِ خمرًا　　كلُّ حــرفٍ بســكرِهِ مأهــولُ

ومن المزْنِ بعدها الصحو قوسًا　　قزَحيًّــا ألوانُــهُ لا تحــولُ

فــإذا دار فــي الطبيعــة شــعر　　دار فيهــا ألوانُــهُ والشّــمولُ

وصبايــا لم يطعمِ الــوردُ خبزًا　　مثــل أجســادِهنّ عــزَّ المثيلُ

أبــدع الله حســنَهنّ وظلــنَ　　قلقــاتٍ، جوزيف مــاذا يقولُ

وفي هذه الأبيات يصف الشاعر الجمال الذي اكتسى به شعر جوزف حرب. شعره خمرة معتّقة تسكر شاربها وتنقله إلى الأجواء السحريّة. قصائده في الطبيعة والمرأة عزّ مثيلها.

إيــه يــا صاحبــي، لننــأَ قليلًا　　غاية الرّكــب أن تُحَطَّ الحمولُ

ويطــولُ الــكلامُ والصمــتُ　　مــا دام وصلنا، وأنّــه لا قفولُ

وكلانا المجهــول ما عاد يعنيه　　كلانــا يخافُــهُ المجهــولُ

هاتِ حدِّثْ، أنتَ اعتزلْتَ أخيرًا　　وعنانــي بالبــال مــاذا يجولُ

أفَتَحْــتَ الكتــاب حتّى تراءى　　مــا إليــه نصوصُنا ســتؤولُ؟

أم طويْتَ الكتابَ ثمّ استراحَتْ　　من عقالِ العقولِ هذي النقولُ؟

يا صاحبي، نحن الشعراء نشقّ فيافي الحياة، وأمتعتنا حرف ورؤيا، ونقتحم المجهول، لنكشــفه، وهذا ما اعتزلت من أجله، ولقد اجتزت في رحلتك جبالًا وأوديةً، ودوّنت كلّ ما شاهدته في نصوصك، والآن بعد الرحيل، ماذا شاهدت؟ وماذا ســيحصل لأشــعارنا هل ستبقى أم ستزول؟ إنّ شاعرًا كبيرًا من أمثالك لا

يعنيــه كل مــا يحصل فأنت قلت قناعاتك وتركتها ذخيرةً في محابرك، وها نحن نقلّب صفحاتها ونستحضرك بشغفٍ.

مــا ترى أنــت؟ كان إيّاي يعني   وشــرودًا أدنــى مــداه الطلولُ

مــا أرى؟ ليتني أصــمُّ وأعمى   عــربٌ رحّــلٌ، وليــلٌ ثقيــلُ

إنّ ما يؤلمني أنّك رحلت وتركتنا بين جاهليّة القبائل المتناحرة.

4 - الشاعر اللبناني محمد علي شمس الدين[4]:

محمد علي شمس الدين من كبار الشعراء العرب. له باع طويل وعريق في هذا الفن طيلة ستين عامًا. بدأ شعره بالقصائد العمودية الخليلة، ثمّ شعر التفعيلة، ثـمّ قصيدة النثر. وبرأي جمهـور النقاد والمتذوقين فإنه قد أجاد في جميع هذه الأنـواع وفـي الأعوام الأخيرة من حياته اتجه إلى شـعر التصوف، وله في هذا المضمار قصائد عميقة في رؤيتها.

كان الشـاعر محمد علي، من الأصدقاء، المقرّبين جدًا من الشاعر جوزف حرب. يمكننا القول بأنّ الإثنين شكّلا ثنائيًا شعريًا، متميّزًا على الساحة الشعريّة اللبنانيّـة، ووصلت شـهرتهما إلى أقاصي العالم العربـي، بدواوينهما الغزيرة، وبمشاركتهما في معظم المهرجانات الشعريّة العربية.

وفي قصيدته «سقط الإناء على المساء» يخاطب محمد علي صديقه الراحل جـوزف حرب، متحدثًا عن مزاياه الشـعريّة، والفكريّة، في مطولاته التي كانت في معظمها رؤىً، تعبّر عمّا كان مؤمنًا به، تجاه الحياة والموت، والله والوجود، والطبيعة.

أخذتك جدتك القديمة

أمّك الأولى التي ربّتك سبعينًا من السنوات

منتدبًا لموعدها

فقل لي ما رأيت

وقل: هنالك من رآك؟

أعبرت حقًا في السحاب

وأنت حرٌّ كالسحاب
كأنما شرب السحابُ دموعَهُ
ومضى
فمن خطف الملاك؟

كان جـــوزف يخاطـــب الأرض، كونها الأم الأولى للبشـــر، ومن هنا يذكره محمد علي بذلك، ويسأله: ماذا رأى بعد الموت؟ هل عبر السحاب المتحرّر من كل القيود في الســـماء، وهل أصبح حرًا مثله، كما كان يرغب أن تكون الحريّة في مجتمعه.

يـــا صديقي، هل تأكدت، وأنت الآن فـــي العالم الآخر من خطف الملاك، الذي أرســـله الله إلـــى الأرض، لينقذها من ويلاتها، ومذابحها وما ســـفك فيها الملوك من الدماء.

سمَّتْكَ أمُّك يوسفَ المنذور للرؤيا
فمن أهداك مغلولًا إلى ذئب الهلاك؟
ورأيت فلاحين فوق الساحة البيضاء
محتشدين
ينتظرون أن تأتي
فأوّلْتَ السنابل
وابتكرت الناي من قصب الخيال.

وأتساءل يا صديقي كيف استطاع الموت أن يقودك إليه وأنت من تجاوزته برؤياك وابتدعت أغنية الحصاد حيث يصبح الحقل المغطّى بإســـلات الســـنابل قصيدة ونقطها وفواصلها أجســـاد الفلّاحين الذين احتشدت بهم محابرك. فأنت

أوّل من وجد في الســنبلة شــعارًا للحياة، وفي الناي صوتًا سحريًا ينغّم في آهاته ذبذبات النفس المتألّمة.

ومشت عرائس من ربى حرمون
نحو البحر
تبحث عن خطاك
يا سرُّ، ثمة من رآك
يا سرّ، ثمة من رآك
سكر الحصى في الماء
واشتعل الأراك
وجرى (الحصان النهر) خلفك
والفتى المذعور من سمَّتْهُ خالتُه الهوى
ودعاه والده السهر
رقص الفجر
فرحين في ثوب من المرجان
آخره رجوع مواكب الموتى
وأوّله السفر
هل يرجع الموتى
إذا أزِفَ السفر؟.

ولأنك كنت تحب البقاء وأنت القائل «أجمل ما في الأرض أن أبقى عليها» لقد فرح بك العشّــاق ومشــوا إليك من قمم جبل الشــيخ قاصدين البحر أصل الخليقة كما ســميته... إنّهم يبحثون عن خطاك وعن ســرّ اختفائك الذي أسكر

الحصى في مجاري الأنهار وأشعل شجر الأراك وأخذ النهر يبحث عنك وكذلك الحب الذي قدّسته وأشعلت الجسد كرمى له. ولكن هل يرجع الموتى... أجل يعـــودون إلينـــا بما تركوه في خزائننا من فكرٍ وإبداع. وأنت منهم. إنّي أراك واقفًا أمامي تحدّثني ببسمتك المضيئة وهمسات صوتك الرخيم.

وكأنّ ما بيني وبينك
نصف دائرة من الكلمات
خلفها لنا طفلان
يتفقان في عد النجوم
وربّما اختلفا على عد القمر
وتقول أنت رأيته يمشي
على قدمين فوق الماء
متّجهًا إلى بيت الحبيبة
كي ينام على الرمال بقربها
وتقول: كان صديقها في الصيف
جار الرملة البيضاء
جاء الصيف
وانكسر الإناء على المساء.

من صورك الشعريّة الجميلة، تصويرك للقمر وهو يرصد الحبيبة، كي يأوي إلى بيتها، وهذا التصوير ما أتى به غيرك لأنك دخلت في جسد الكون، وتعرّفت إلى أســـراره وتفاصيله ومن هذه التفاصيل: علاقة الحب بين الأرض والقمر في الصيف، وما تضفيه هذه العلاقة على الكائنات، من الســـحر والبهاء وإني ألتقي

معــك علــى كثيرٍ من الأمــور، وإن اختلفنا فعلى القليــل ولكننا في ذلك نكمّل قاموس الأشياء كلّ من رؤيته ورؤياه.

وأظلّ أنزع في الدم العالي عيوني
لتصيب وجهك
وهو يرحل في السراب
أعبرت حقًا في السحاب
وأنت حر كالسحاب؟
فأمكث هناك
ولا تعد في الصوت
إنّ الصوت محمول على جمل المحامل
في صحارى
لم يعد فيها نبي أو كتاب
موتى يجرّون الحياة
كما تجر ذبابة الراعي
القطيع لحتفه

وسأبقى أتبع وجهك وهو يغيب في السراب لأتأكد أنه أصبح حرًا كالسحاب لأقول لك: ابق حيث أنت ولا تفكّر بالعودة إلى ديار القحط والخراب لأنّ الناس في هذه الديار محت الكتب والأنبياء فهم أحياء موتى يذهبون إلى الهلاك.

أسئمْتَ هذا المشهد البدوي
في مدن الذبيحة والخراب
فرحلْت...

أم أنّ البنفسج لم يعد يكفي
ليرتق ما تفسّح من نسيج الأرض
والطرقات قطّاع وسيّافون
قد جعلوا هواهم في الخديعة ربَّهم
فامكث هناك ولا تعدْ
سأراك أجمل ما تكون إذا ابتعدت
وأن تظلّ بخاطر الأرض الغياب
والأرض أجمل ما تكون
إذا تلفعت بالضباب
صلّى عليك الناي والمرعى
وكبَّرَ في تهجُّدِهِ التراب.

هل رحلت يا صديقي لأنّك سئمت من هذا المشهد البدوي حيث عاد الناس إلى زمن داحس والغبراء. أم أنّ الأزهار والرياحين لم تعد كافية ليبقى وجه الأرض لينًا وبرّاقًا.

لا تعد يا صديقي إلى الأرض، أنصحك أن تبقى حيث أنت لأن البشر قد أتقنوا فنون الدجل والخداع وأصبح الرياء ربّهم ودينهم.

5 - الشاعر اللبناني غسّان مطر[5]:

غسّان مطر من كبار الشعراء اللبنانيين، وهو نائب سابق في مجلس النوّاب، وركن من أركان الحزب السوري القومي الاجتماعي، ومعظم شعره وطني وقومي، وينحــاز بنبرة جذّابة. كان صديقًا حميمًا لجوزف حرب، وبخاصة التعاون الذي نشأ بينهما، في اتحاد الكتّاب وهو في قصيدته «إمسحوا دمعكم» التي أنشدها في ذكرى رحيل جوزف يظهّر لنا مجامره تجاهه.

إمسحوا دمعكم
وتعالوا إلى سِرِّهِ
كذب الواهمون ولو صدقوا
فالذي كان يوم بكينا معًا
لم يكن مأتمهْ
قمرٌ ظلَّلَتْهُ الغيومُ
حسبناه غاب
ولكنه كان يكتب شعرًا
ويغفو على كفّ محبرةٍ
ويغازل كونًا ولونًا
وشمسًا تنوّر أيامنا المظلمهْ
قمر لا ينام كما الناس،
يوغل في لغةٍ من بهاء
ويسهر حتّى تحطّ على يده نجمةٌ ملهمهْ
ويجيء الظلام الذي يشتهيهِ

فينشره فوق أرواحنا كالنبوءاتِ
واضحةً مبهمةْ

لا تبكوا، إمسحوا دموعكم، فجوزف لم يمت، إنّه قمرٌ ظلّلته الغيوم، وهذا ليس وهمًا إنّه السر الذي كان يبوح به، في كل ما كتبه، وهو الذي في رؤياه دعانا للذوبان في الكون، لأننا من عناصره.

أدخلوا إلى ســرّه، تروه متربّعًا على الغمام، يكتب شعرًا، ويملأ محبرته من الأزرق الذي يظلّله فتصل إلينا شــمس حروفه مبدّدةً ظلام الجهل الذي تغطّينا عناكبه. وهو الذي كتب الليل شموسًا وأقمارًا ونجومًا ما زالت تسطع في سماء الأدب العربــي، وما زالت استشــرافاته تلتمع في عقولنا ونفوســنا بنبوءاتٍ في تاريخنا وواقعنا.

امسحوا دمعكم
وتعالوا إلى سِرِّهِ
مفردٌ في الحضور ومستوحدٌ
كان يبحث في المفردات عن النار
يقطفها باليدين وبالقلب
يحضنها جمرةً جمرةً
وتطلّ علينا كما لو سقاها دَمَهْ.

إنّ ذكــراه أيّها الأصدقاء، ليســت مناســبةً للبكاء عليه، إنهــا فرصة ذهبيّة، للدخــول إلى عالمه الخاص، هذا العالم الرحــب، المتميّز بصفات وخصائص فكريّة، وإبداعيّة راقية. إن أدبه متوقِّدٌ بالعاطفة الصادقة، واللمعة الثاقبة، التي تشقّ عتمتنا كي يشقّ البرق جسد الظلام.

يتحدّر من شجرٍ شرسٍ وينابيع، قال:

لكنه لم يقل أنه يتحدّر من جرحنا

من لقاء السماء بعشّاقها،

من عبور السنونو المبشّر بالورد

من آهة الأرض حين يشكُّ الطواغيت

في لحمها حربة مؤلمة

لم يقل أنه يتحدّر من أمّةٍ

روّضت عاصيات الزمان

ولكنَّ أشباهَ حكّامِها

صيّروها أَمَهْ

كان وفيّاً لأرضه، ولشعبه، ومنحازًا، إلى المسحوقين، والمهمّشين وكان شلّالًا من الغضب، على التيجان، والأباطرة، والحكّام والفاسدين، ولم يقبل أن يعبر الناس إلى السماء، من كهوف رجال الدين، الذين فصّلوا السماء ثوبًا يتسع لخداعهم، وجشعهم، وفتنهم. آلمه كثيرًا أن يرى بلاده فقيرة وذليلة وهي التي روّضت عاصيات الزمان عبر تاريخها الطويل. وقد أشار إلى أصل البلاء في معظم كتاباته والمتمثّل بالحكّام الأنانيين والمعتصبين لمذاهبهم وطوائفهم ظاهريًا والمتفقين على توزيع المناصب والحصص لهم ولأولادهم وأزلامهم.

كان يكتم أحزانه حين تصحو دمشقُ

مجلّلةً بتوابيت أطفالها

حين تنكسر القدس باكيةً سورها المستباح

وقد دنّست طهرها الطغمة المجرمة

كان يكتم أحزانه،
ثمّ يعلن أعراسها إذ يعود إلى شتلة التبغ
وهي تلوّن صيف الجنوب،
إلى الشهداء الذين بأرواحهم
كتبوا الملحمة
كان يعرف أنّ التراب هنا سيّدٌ
والحياة هنا من «حسين»
وأن «يزيدًا» ولو هزم الأرضَ
لن يهزمَهْ.

كان مناضلًا وطنيًا وقوميًا، من الطراز الرفيع، المنطلق من الثوابت القومية، التي تؤكّد وحدة الأمة، وصيانة كرامتها وسيادتها. تفسّخ قلبه الشفيف لوعةً على الهجمة المغوليّة التي تعرّضت لها دمشـــق من الأمبرياليّة على يد المرتزقة الذين (جاهدوا) بنكاح الجهاد وإحراق النسل والزرع والدين.

وكانت القدس عروســـه التي حاك لها أجمل الأثواب وطرّزها بإبرة روحه التي ظلّت تلاحق رداء المسيح من الناصرة إلى قانا. وكان لقافلة المقاومة اللبنانيّة الحادي الذي يوقّع أشـــعاره على إيقاع خطـــى الأبطال وزغردات بنادقهم وهم يطردون الصهاينة من الجنوب وأهدى الجنوب قصيدته الرائعة «إسوارة العروس» التي غنّتها السيّدة فيروز.

كلّما جاء صبحٌ نرى وجهَهُ
كلّما جاء ليل نرى وجهَهُ
كلّما أخذتنا الحروف إلى نجمةٍ

في سماء الكلام
نرى وجهه، ونرى أنجمَهْ
قمرٌ ظلَّلَتْهُ الغيومُ
حسبناه غاب،
ولكنه جالس فوق عرش
يلوّح للساهرين على ضوء أبياته
ويتمتم إحدى قصائده
وترتل «فيروز» ما تمتمَهْ.

إنّ شـــاعرًا موهوبًا مـــن وزن جوزف حرب، لن يموت، فهو نبيذٌ ســـيعتّقه الزمان، ليبقى خمرةً قدســـيّة للأجيال وكل ما قيل عنه وفيه حتّى الآن هو القليل القليل مما عنده من الإبداع.

6 – الشاعر المصري فاروق شوشة[6]:

فاروق شوشة شاعر عربي كبير، ذاع صيته في سماء الشعر، لما في شعره من رؤىً وطنية، وقومية وإنسانيّة. هو من شعراء العربيّة المخضرمين. في شعره ليونة وعذوبة وانسـياب هادئ، ولكنّه عميق وتجري في داخله تيّارات فكريّة تنجذب إليها العقول لما تتضمّنه من الآمال والأحلام.

لقـد كتـب في ذكرى الأربعين لرحيل جوزف حرب قصيدة طويلة يتحدّث فيها عن جوزف حرب الإنسان والشاعر والمثقّف القومي الذي نذر شعره لنهضة هذه الأمة من كبوتها:

كَفْكِفْ دموعَكَ، لن تفيدَ الأنهرُ	**إنَّ الـذي تبكيـه لا يتكـرَّرُ**
كمْ صغْتَ في الشعراءِ لحنَ وداعِهِمْ	**فـإذا أتوكَ اليومَ، أنتَ الأشـعرُ**
جاؤوا إليكَ وأنت ماء بشاشـةٍ	**فأضـاءَ ليلَهُـمُ شِـهابٌ مُقْمِرُ**
فتَّحْتَ أبوابَ النفوسِ بلمسـةٍ	**فانـداحَ نسـرينٌ وغـرّدَ مزهرُ**
وجلوْتَ للدنيـا بدائعَ صاغَها	**وافتـنَّ فيهـا، صائـغٌ ومصوِّرُ**
شِـعْرٌ بأقباسِ الخلـودِ مضمَّخٌ	**يُملـى عليكَ وأنتَ فيهِ تُسـطِّرُ**

امسحوا دموعكم، لأن أنهارها لا تكفي، ولا تعيد إلينا الشاعر المبدع جوزف حرب. إنه رائد من روّاد الشعر ملأ حياتنا جمالًا وكنت قمر ليالينا، وسحر نفوسنا التي سكبت فيها ألحانك الرائعة في إيقاعاتها وصورها العذراء، وهذا ما جعلها تدخل سجل الخلود.

أفديــكَ مبتســمَ الأســاريرِ التــي بسَــطَتْ براءَتَها، وراحَــتْ تهمرُ

أفديكَ ترفعُ رأسَــكَ المكدودَ عن ورقِ المســاءِ وأنــتَ فيه تســهرُ

أفديكَ منزعجَ الضميرِ تجيشُ بالـ ـــغضبِ النبيلِ، وفي إهابِكَ مَسْوَرُ

أفديــكَ ملتاعَ الفــؤادِ تضيقُ بالثْـ ـــقلاءِ قد ملؤوا الحيــاةَ وكدَّروا

أفديــكَ يا صوتَ الحيــاةِ وطيبَها أفديــكَ يــا وجهًــا بــه نتنــوَّرُ

هــلْ كنْــتَ إلّا جمــرةً عربيّــةً تمضــي بنــارِ شــواظِها تتســعَّرُ

كنت يا صديقي باقة من الصفات الراقية، تستقبل زوّارك بالبسمة التي تتفتّح على محيّاك، الذي يشعّ بالطهر والبراءة، وأجمل ما فيك ضميرك الذي لا يغيب، بــل يبقى نابضًــا بكلمة الحق، مهما كانت العاقبة وكم كنت تشــعر بالضيق من تصرّفات البشر الثقلاء الذين يعكّرون صفو الحياة. كنت يا جوزف صوت الحياة الثرية بالمعرفة والتجربة ومنك تعلّمنا حب الحياة والعمل على تطويرها بالخروج من الماضي والنظر إلى المستقبل. وكنت جمرةً وقّادة في سكون حياتنا العربيّة.

أدركْتَ من سرِّ الحياةِ صميمَها وسباكَ من حَجَرِ الخلودِ الجوهرُ

ومشَــتْ وراءك كائنــاتٌ كلُّها كانَــتْ لغاكَ، وكنْتَ عنها تُخبرُ

وعلمْتَ أنّك حين تمضي، عائدٌ للأرضِ مثلَ شــجيرةٍ تستشجرُ

فتكون أغصانًا وجذرًا راســخًا فــي كلّ يــومٍ لبُّــهُ يتجــدَّرُ

وتصيــر أعنابًــا تهــادَتْ كرمةً قد عتّقــت في ســاقها تتخمَّرُ

يا ساكنًا ملءَ الصدور، وشعره   فــي كلّ مــا نلقاه طيــرٌ أخضرُ

الريشــةُ العليــا لديــك دواتُها   وشعاعُ شــعرِكَ ينجلي ويُحبِّرُ

يا شــيخَ هذا الغيمِ، يــا عكَّازَهُ   يــا أيُّها القلــمُ الــذي لا يُقهرُ

علَّمْتَنا الغضبَ النبيلَ فأخصبَتْ   أرضٌ بشــعرِكَ دائمًــا تتفجَّــرُ

ســبرت أغوار الحياة وعدت محمّلًا بغلال نفيســة قدّمتها لنا في مطولاتك الشعريّة التي تضجّ بكائنات الخلق. وفي رؤياك صوّرت نفسك كائنًا من كائنات الخليقة حتّى أصبحت مثلها تتقن مراحلها وطقوسها وشتاءها وصيفها وخريفها وربيعها وغدًا يأتي ربيعك وتخضرّ أغصان جسدك ونراك ترعى النجوم وتلاحق ظلال الطبيعة في ضوء القمر.

أو تصير كرمةً تكتنز عناقيدها وتنهد لتصبح خمرةً يخمّرها الخلود للرائين.

إنّك يا صديقي تســكن عقولنا وقلوبنا بقوافيك التي لم تترك كائنًا كبيرًا أو صغيــرًا في الخليقــة إلّا وصافحته بكفٍّ يقطّر حبًّا وســلامًا. صنعت حبرك من نسغ الرؤيا الحالمة فعلّمتنا الغضب النبيل الذي وحده، القادر على اقتلاع الطغاة وعودة السنابل إلى أفواه من زرعها.

هوامش

الفصل السادس:

1 - جوزف حرب إلى لقاء: من منشـــورات الحركـــة الثقافية في لبنان – بتاريخ 22/ 4/ 2014. ص:49.

2 - نفسه: 55.

3 - نفسه: 67.

4 - نفسه: 73.

5 - نفسه: 85.

6 - نفسه: 91.

الخصائص العامة في شعره

جوزف حرب ينماز عن غيره من الشعراء بميزات عديدة، ويكاد يكون متفردًا بها. إنّ جماليّة شعره، يرسو تحتها بنية صراعيّة، منحازة كليًا إلى المهمشين، من المزارعين، والعمال، والمبدعين، المنسيين في مجتمعاتنا العربيّة، الفاقدة للعدالة الإجتماعيّة، نتيجةً لوجود الأنظمة السياسـيّة القمعية، والمتحالفة مع الرأسـمال ورجال الدين، هؤلاء الرجال الذين يوظّفون الدين، لتحقيق مآربهم الدنيويّة، باسم هذا الدين والولاء له.

1 - الحلم بانصاف المهمشين:

ينشـطر جوزف حرب بين إرثين طيفيين متنازعين، يحققان له مأموله بترقية إنسانه الحلمي: أطياف الماركسيّة – اللينينيّة، وأشباح الأديان. في مواضع كثيرة من مطولاته الشـعريّة نجد الصراع التاريخي القائم بين الجياع والعمال من جهة والحكّام ورجال الدين من الجهة المقابلة ويبدو لنا ذلك جليًا في النص التالي:

نحن المنبوذين، رعاة الوقت الآتي
رسل امرأةٍ ولدتنا، منّا وجه الأرض كما يبدو
لمّا نعطيها أجمل ما فينا، وقوافل من يأتون
عليهم أسمال الليل...
نحن المنسيّين، جياع الأرض الملأى
ذهبًا، شعراء الشجر الراقص، كتّاب الزرع، بناة المدن
المنقوعون بملح الريح، عبيدُ الآلة والأسواق

مساكين الأمم

المنتظرون مجيء الموت، بأيّ مكانٍ كنّا

من أيّة ثانيةٍ تشبه باب القبر[1] (فاعلن)

إذًا هكـــذا يصور لنـــا الطرف الأوّل، الذي ينحاز إليـــه، وينتقل إلى تصوير الطرف الثاني، في المقطع التالي:

جلسوا ملتفين بثوبٍ أبيض في فمك الأخضر

تحت السقف الثاني، وحول المائدة الذهبيّة

كان إثنان على رأسيهما، وثلاثون أمام صحونٍ زرقٍ

فيها الأرض موزّعة قطعًا قطعًا،

وعليها حنطة شمس صفراء،

وصلصة ليلٍ في طعم القمر الصيفي

والخدم المتّشحون بأنظمةٍ صفرٍ، يأتون بأطباق القانون

ويمضون بأطباق الأسواق، وينتبهون لأيّة كأسٍ،

ليصبّوا فيها إن بدأت تفرغ، من خمر السلطةِ

صحنٌ أزرق

صحن أحمر

صحن أسود أو ذهبي

وأحاديثُ عن الطبّاخ الماهر في طهي الأرض

وعن أقبية الأديرة المشهورة في تعتيق دماء الله،

وعن تسويق القوميّات أو الأديان، لبيع الفائض

من أسلحة الحرب، وعن توظيف العقل الخلّاق

لصنع تفاهاتٍ يستهلكها الناس مقابل
ما في أيديهم من عرق الشهر.
وَضِحكٌ كُحليٌّ
ضِحكٌ دمويٌّ
ضِحكٌ أصفر
ضِحكٌ حلزونيٌّ
لنكات ساخرةٍ من حكم الرّسل البيضاء، وسيرة بوذا،
وكلام فلاسفة التغيير، وصوت دعاة الوحدة
بين شعوب الأرض
وكلٌّ ينظر في صحن الآخر
كلٌّ يطمع في كأس الآخر
كلٌّ يعلمُ أنّ الكلّ يُخطّط كيف سيقتله بعد
عشاء العيد![2]

فمــن خلال هذين النصّين، يمكننا إكتشــاف البنيــة الفكريّة الصراعيّة، في شــعر جوزف حرب إستنادًا إلى مستوى الألفاظ، من خلال المؤشرات الواردة، وتصنيفها فنستنتج ما يلي:

- الحرمان والقهر والإستغلال الذي يشعر به العمّال والفلّاحون والمسحوقون

- حــب التســلّط والتمويه والخداع والتآمر عند الحــكّام والطبقة الحاكمة ورجال الدين

- الثــورة في داخل جوزف حرب ونقمته ويظهر ذلك في الخطاب النقدي الثوري للمتكلّم أو الراوي أو الشاعر. وتظهر الصراعات، في المستوى الدلالي،

من خلال المحاور:

القانون الجائر – الجوع

السيطرة – الخضوع

الإنسجام – التشرذم

الإذلال – الاحترام

الحريّة – القمع

العنف – السلام

وهكذا يبدو الصراع في المستوى الدلالي في هذه المحاور التقابليّة أو بين ما هو مقبول وما هو مرفوض. وجوزف حرب يمثّل المقبول والسلطة ورجال الدين يمثّلون المرفوض.

2 – ثوريّته:

جوزف حرب من الشعراء القلائل الذين وفّقوا بين جماليّة النص ومضمونه الأيديولوجي. ولعلّ النص التالي الذي يصوّر فيه «الشهيد» خير مثالٍ على ذلك:

هوى
بعد طلقةِ نارٍ عليه
ولم يمتثلْ
رافعًا في الهواء يديه
هوى
للشموس يؤدّي التحيّه
فصارَتْ دماهُ على الأرضِ
وردًا،
وسنبلةً فوقَهُ البندقيّه[3]

يتــوزّع هذا النص على حركتين تســتهلُّ كلٌّ منهمــا بالفعل المولّد «هوى»: الأولى، (هوى... يديه) حركة ســقوط الشــهيد مقاومًا. تتماســك هذه الحركة بقافيّتها (عليه – يديه) وبترابط أســطرها نحويًا. والثّانية (هوى... البندقيّة) حركة خصب الشــهادة. وتتماســك هذه الحركة بقافيّتها (التحيّــة – البندقيّة) وبترابط أسطرها نحويًا، وبالمستوى البلاغي (التشبيه)، وبالتوازي المصلّب الذي يتعاضد فيه النحو مع الإيقاع:

دماهُ[1]

على الأرضِ وردًا[2]

فصارَتْ

وسنبلةً فوقهُ

البندقيّه[2]

فللنص بنية الانبعاث، وفيه ثلاثة محاور:

- محور الهُوَ (الشــهيد المقاوم) الآخر (العدو). ويتميّز بحضور الشــهيد، وغياب العدو مطلق النار.

- محور الأسفل/ الأعلى

- محور الموت (سقوط الشهيد مقاومًا) الانبعاث (وردٌ دمه وسنبلةٌ بندقيّته)

الهُــوَ مقــاوم إختار المــوت بكرامة، إذ لــم يرفع يديه في الهــواء إمتثالًا واستســلامًا، ليحافظ على حياة الذلّ، خاضعًا للآخر المعتدي، فســقط مرتفعًا شاخصًا إلى الشموس، إلى الأعلى، والذي يختار مثل هذا الموت يُخصب حياة العزّة والمجد.

وهكذا اســتخدم الشاعر الصيّغ التأشيريّة التقابليّة، ليبني قصيدته، ففي رفع

اليدين تشـــفير جســـدي إجتماعي تأشيري يدلّ في السياق على الإستسلام الذي يرفضه الأخر المعتدي، والإمتناع عنه الذي مارســـه المقاوم في رفض الإمتثال، وقد إكتمل المشهد بالسقوط المرتفع: (هوى/ للشموس يؤدّي التحيّة) فوضعت الشموس بعلاقة تعارضيّة مع المعتدي، ورفض الإمتثال للمعتدي بعلاقة تقابليّة مع تحيّة الشـــموس. وهكذا حملت الشموس (الأعلى) دلالات ثانية: الشموس جمع الشمس، وهي كوكب مشع ومنير، وأبٌ مخصبٌ للأرض الأم، وإذا وضعت بالتعارض مع العدو القاتل، فلينزاح مدلولها إلى دلالات دالّ آخر غائب، هو دالُّ الشـــهداء، فهم شموس المجد والكرامة، وخصب الحياة الجميلة الكريمة، وقد أفصح عن خصب الشـــهادة والإنبعاث منها الدلالات الثّانية في الورد والسنبلة، حيث يتحوّل الدم إلى ورد، والبندقيّة إلى سنبلة...

3 - التوفيق بين الأيديولوجي والجمالي:

إنّ جوزف حرب استطاع بموهبته الفذّة، أن يطرح في شعره معظم القضايا الإنســـانيّة، والفلســـفيّة، بثوبٍ جماليٍّ نادرٍ. فهو لجأ إلى السيناريو والأسطورة، والتّصوير اليومي البســـيط، الذي يتناسب مع حياة الناس العاديين وكل ذلك في ســـياق لغـــوي جميل وأنيق وجذّاب وفي أحيانٍ كثيـــرةٍ كان يعمد إلى التضخيم والســـخرية والمفارقات والمطابقات والمتشـــابهات. لاحظوا كيف اســـتطاع أن يصوّر الجهل المركب في المجتمع المتخلّف بهذا النص البسيط والقصير ولكنّه يتضمّن نقدًا فكريًا عميقًا:

سرق التاجر يومًا مزرعهْ

سرق الجائع يومًا لقمةً من مَزبَلَهْ

عندما التاجر حيّانا

رفعنا القبّعةْ

عندما الجائع حيّانا

رفعنا المقصلَةْ[4]

في هذا النص: التّاجر، الجائع، الناس. وما يؤلمنا إحترام الناس للتاجر الذي يستغلّهم، وعدم إحترامهم للفقير مثلهم. وفي النص تقابل بين المزرعة واللقمة، وبين فعل التاجر المضخّم (سرقة المزرعة) وفعل الجائع العادي (سرقة لقمة من مزبلة)، وفي النص تقابل بين حكم الناس على فعل التاجر (رفع القبّعة)، وحكمهم على فعل الجائع (رفع المقصلة)، وثمة تقابل بين الكل الكثير (المزرعة، الناس والتاجر) والجزء المسحوق (اللقمة من مزبلة والجائع).

إنّ شعريّة هذا النص تكمن بالحرفيّة المتمثّلة بانزياح التعبير التأشيري (في المجاز المرسل والكناية) من الدلالة الأولى إلى الدلالة الثانية، من خلال علاقة المجاورة، وعبر السـخرية والتضخيم والتقليل اللذين هما جزء منها. فالمزرعة هي الخيرات والمحاصيل والغلال بوصفها ثمار عرق الفقراء الجائعين، واللقمة وسـرقتها أدّت إلى نتيجة مناقضة لفعل التاجر: (رفعنا القبّعة) وهي عبارة مشفّرة جسديًا واجتماعيًا وسياقيًّا بدلالة الإحترام والتقدير. أمّا اللقمة في المزبلة فتحمل دلالة الهوان والقلّة السـاحقة، وسـرقتها أدّت إلى نتيجة مناقضة لفعل الجائع: (رفعنا المقصلة) وهي عبارة مشفّرة سلوكيًّا واجتماعيًّا وسياقيًّا بدلالة الإعدام.

وهنا تكمن شعريّة هذه القصيدة في السخرية ذات التشفير المزدوج المتمثّل بالتناقـض الفاضـح بين السـبب ونتيجته، وفي تنويعات السـخرية التضخيميّة والتقليليّة. وكلّها شـكل تعبيري موسـوم يبرز الدال، ليؤشـر إلى دلالات ثانية تكشف عن المقصد. وفي هذا موقف نقدي تهكمي لاذع، ومحافظة على المناخ الشعري عبر سلسلة الإنزياحات القائمة على علاقات المجاورة.

4 - المرفوض والمنشود في شعره:

معظم قصائده مبنيّة على ثنائيّات المرفوض والمنشـود، لا يمكننا أن نوفّق بين هذه الثنائيّات لأنّها متضادة وإذا ذكرت واحدة تحضر الثّانية مقابلة لها وهذه السـمة عنده تبعث الديناميّة في السـياق الشـعري وتحفّزنا للدخول في المناخ الشعري في قصائده.

وتصدر هذه الثنائيّات عنده عن نغم روحه الممتلئة من وعد الاشتراكيّة بغدٍ أفضل للإنسانيّة، والثائرة الحاطة بجنّة الأرض، بعد خذلانه من الوعد بجنّة السماء التي قالت بها الأديان... من هنا نبع ألمه حين رأى بأنّ التاريخ البشـري يُكتب دائمًا لمصلحة التيجان والحكّام وحاشيتهم من القضاة والقواد فيما يهمّش عمّال الأرض، وفقراؤها، وشـهداؤها الذين أعلن لهم شـاعرنا أنّه فارسهم الأخير في ديوانه «مملكة الخبز والورد» والذي أهداه إلى السيّدة «فيروز». وقد صرّح جوزف في هذا الديوان بأنّ حياته تكملة لموت هؤلاء المهمّشـين، ومن أجل ذلك بقي في حالة حداد وهو يشهد إنهيارات حلمه العربي والأممي، فانسحب إلى العيش متوحّدًا مع أطيافه التي لم تغادره. وقد يكون هذا هو السبب الجوهري الذي دفعه إلى النقمة العارمة على الأديان التي، برأيه، أقامت حلفًا دينيًا على الأرض لجعل الحياة الدنيا تحت سلطتهم مما أبقى بناة الأرض مهمّشين. ويمكننا أن نستشف ذلك من خلال النص التالي من ديوانه «مملكة الخبز والورد»:

يا دمي
ويجيبني متجمّد القطرات برّاقًا على التيجان
مصلوبًا على الرايات، منسابًا على خشب البنادق،
ذائبًا في فضة الأسواق، مذبوحًا وأبيض
فوق أوسمة الغزاة، معلّقًا عصفورةً حمراء

في قفصٍ تدلّى بين أعمدة المحاكم
يا دمي
ويجيبني متقطّرًا كالضّوء عن حدّ السيوف،
معتّقًا كالملح في حجر الشوارع، راشحًا كالدير
من غفّارة الراهب، دردارًا كنهرٍ من صناديق
اللصوص، أبحّ معتلًّا كحدّاءٍ يجيء مع القوافل.

5 - موهبته الفذّة في تنغيم إيقاعاته:

إيقاعاتــه تصدر من نغم الروح، ويوظّف لها شــتى العناصر من موســيقيّة التنســيقات والهندســات، والمتوازنات، والمتوازيات وســحر تقفيات الجمل والفقرات... إلى إلتزام بالأوزان من تفعيلات مفردة أو مركّبة أو متســاومة حتّى إمتلاء البحور التي أسعفته حينًا إلى حد الإدهاش، وخذلته حينًا آخر إذ غرق في بعضها في التركيب الكلاسيكي.

6 - مشهديّاته ولوحاته المدهشة:

بــرع جوزف حرب في إبداع مشــهديّات ولوحــات متقاطرة، صادرة من مخيال دينامي حتّى لتظنّ أنّك أمام كون طبيعي تحوّلت فيه شيئيّة أشياء أرضه إلى أرواح حيّة، فحكمت شعره أسلوبيّةٌ خاصةٌ به، كلّ شيء فيها مشفّر بدلالات رؤيته الوجوديّة، لكأنك تقرأ أو تشاهد وتشارك في عمليّة خلقه الشعري المكمّل للخلق الإلهي والكوني.

7 - دواوينه:

تجــاوزت دواوينــه حوالى 3500 صفحــة وكلّها متماســكة ومترابطة في قصائدها، وأنيقة، جميلة في صورها.

وهو صاحب القول الشهير: «لا دور للشعراء إلّا أنّهم قد أشعلوا الفانوس، كي يخرجوا الكلمات، نحو شموسها من عتمة القاموس».[6]

هوامش
الخصائص العامة في شعره:

1 – جوزف حرب: مملكة الخبز والورد: 430 – 431

2 – نفسه: 431 – 432 – 433

3 – جوزف حرب: الخصر والمزمار: 252

4 – نفسه: 230

5 – جوزف حرب: مملكة الخبز والورد: 154

6 – جوزف حرب: الخصر والمزمار: 173.

- مراجعة ودراسة الدكتور نبيل أيوب حول شعر جوزف حرب في الذكرى الأربعين لرحيله بتاريخ 22/ 3/ 2014 والمنشورة في «جوزف حرب إلى لقاء» إصدار الحركة الثقافية في لبنان.

المصادر والمراجع

1 - جوزف حرب: أجمل ما في الأرض أن أبقى عليها – رياض الريس للكتب والنشر – بيروت 2009.

2 - جوزف حرب: دواة المسك – رياض الريس للكتب والنشر بيروت: 2011

3 - جوزف حرب: الخصر والمزمار – دار الآداب – بيروت 1994.

4 - جوزف حرب: السيّدة البيضاء في شهوتها الكحليّة – رياض الريس للكتب والنشر – بيروت: 2000

5 - جوزف حرب: رخام الماء – رياض الريس للكتب والنشر بيروت: 2007.

6 - جوزف حرب: كلك عندي إلّا أنت – رياض الريس للكتب والنشر – بيروت: 2008.

7 - جوزف حرب: كم قديم غدًا – رياض الريس للكتب والنشر بيروت: 2013.

8 - جوزف حرب: المحبرة – رياض الريس للكتب والنشر بيروت: 2006.

9 - جوزف حرب: مملكة الخبز والورد – دار الآداب – بيروت: 1991.

10 - جوزف حرب: قلم في ثلاث أصابع – رياض الريس للكتب والنشر – بيروت: 2013.

11 - الحركة الثقافية في لبنان: جوزف حرب إلى لقاء: 22/ 3/ 2014.